حوار حول رواية وليمة لأعشاب البحر

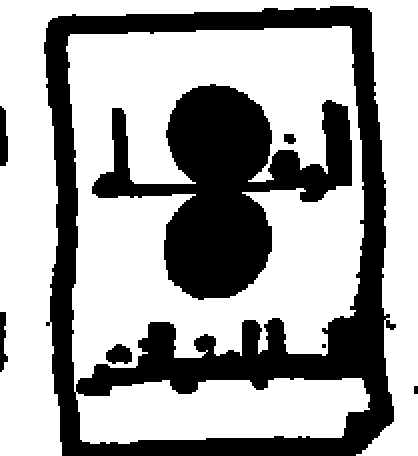
الدكتور السيد أحمد فرج

دار الوفاء

حوار حول
رواية وليمة لأعشاب البحر

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠

ت: ٢٢٥٦٢٣٠/٢٢٥٦٢٣٠ - ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠

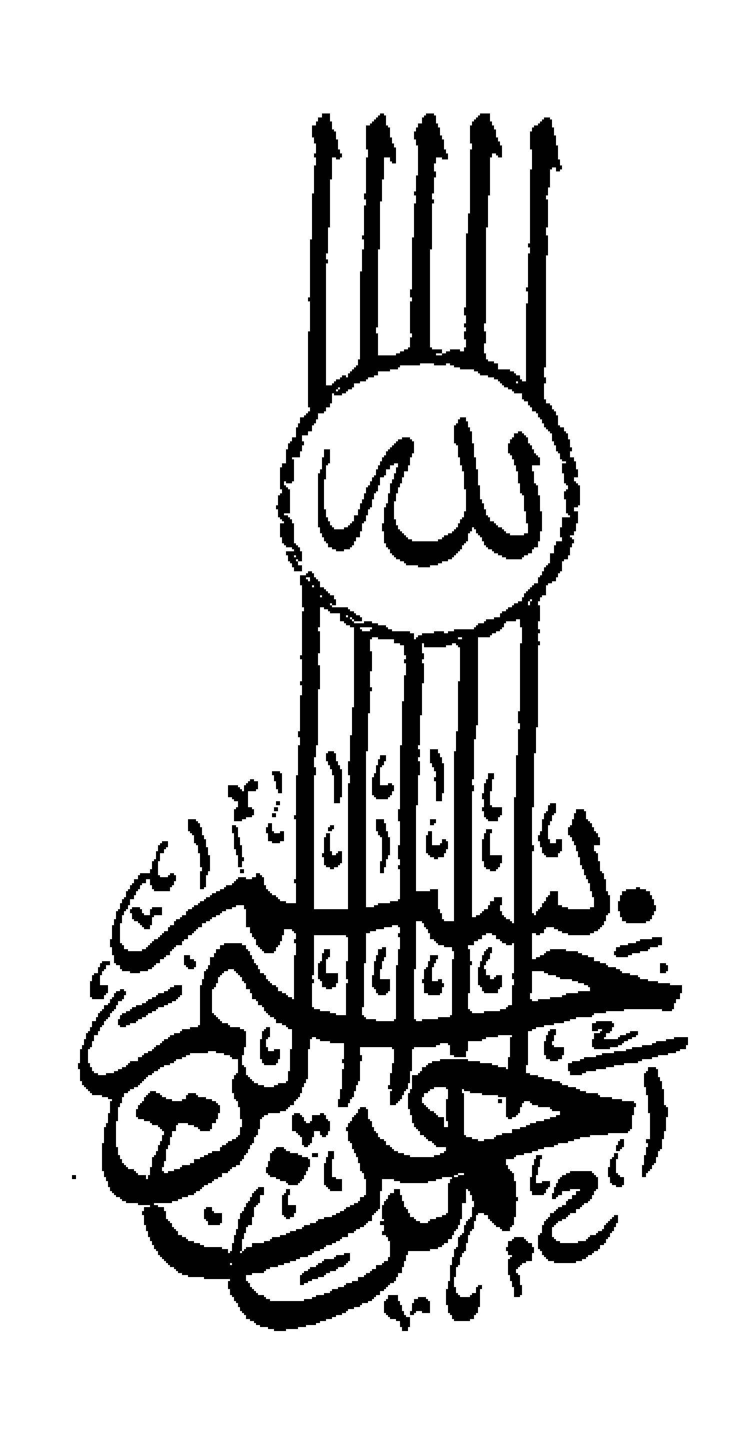
المكتبة: أمام كلية الطب ت٢٢٤٩٥١٣/ ٠٥٠

E-Mail : DAR ELWAFA@HOTMAIL. COM

حوار حول

رواية وليمة لأعشاب البحر

الدكتور السيد أحمد فرج



مقدمة

بدا الحوار حول رواية (وليمة لأعشاب البحر) أكبر من مجرد حوار حول رواية تجاوزت الأيديولوجية إلى التجديف ، وسب المقدسات ، مما أدى إلى أحداث تتابعت وتداعت وتجاوزت كل الخطوط والقواعد المسموح بها فى الحوار؛ لأن فئة من المتحاورين لهم أماكن مرموقة فى الصحف الوطنية وصحف وزارة الثقافة ضبطوا بوصلة الحوار على قبلتهم ، وكأنهم أصحاب ديانة جديدة يجب أن يستقبلها كل من له قدرة على التفكير واستيعاب تعاليم (التنوير) .

بدأ الحوار بين تيار قال : إنه يمثل التفكير الملتزم بتعاليم الدين ، فى مواجهة تيار وصف نفسه بتيار المثقفين التنويريين ، وتحول الحوار الصاخب إلى أزمة صارت فخاً لافكاك منه دخل فيه من لم يكن ليهتموا بأمر رواية (حيدر) لولا أن الظروف صنعت منها حالة ما ، من هوس (الوليمة) معها أو ضدها ، مع مؤلفها أو ضده .

ورأى مسئولون بأكبر هيئة تشريعية فى البلاد (مجلس الشعب) إحالة موضوع (رواية الوليمة) إلى اللجنة الدينية بالمجلس ، ثم رأوا إحالته إلى الأزهر الشريف ؛ لأنه مسؤول عن الشأن الإسلامى ، ولأن الرواية طالت المقدسات الإسلامية بسوء . وهكذا صار الأزهر طرفا ثالثا فى أزمة (الوليمة) .

ثم ساعدت تداعيات (أزمة الوليمة) على ظهور طرف رابع تمثل فى مداخلات فرضتها الأزمة مثل مداخلات بعض كتاب الأهرام - منهم على سبيل المثال : الأستاذ الشاعر فاروق جويدة المدفوع بغيرتين ؛ أولاهما دينية ، والأخرى وطنية ، والأستاذ فهمى هويدى الذى تدخل ليعلن رفضه للرواية ، كما يعلن رفضه للتنوير الذى ضل طريقه . والدكتورة هالة مصطفى التى رأت أن تدخل الأزهر فى أزمة الرواية يعد تهديدا للديمقراطية ، وكتاب الأهرام لا يمكن تجاهلهم .

وفى هذا الخضم كانت هناك مداخلات لا تنتمى إلى تيارات فكرية محددة ، كمداخلة الدكتور محمد سليم العوا ، والأستاذ محمد حسنين هيكل ، فقد كان تدخلهما بناء على دعوة من مجلة (وجهات نظر) ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن يصف

رأى كل منهما بالحياد المطلق ، فكل منهما رفض الرواية .

وهناك من وجهت له دعوة لمعرفة رأى خاص بالحكم فى مدى أحقية الأزهر الشريف فى إصدار البيان أو عدم أحقيته مثل المستشار طارق البشرى رئيس لجنة الفتوى والتشريع (السابق) بمجلس الدولة ، وكان له حضوره البارز ، وحكمه المتميز على مائدة (الوليمة) .

وفى النهاية سكتت أكثر الأطراف عن الكلام ، إلا أصوات ما عرف بجبهة المثقفين التنويريين التى وجهت كل سهام غضبها إلى قلب الأزهر ، تاركين الحديث عن الوليمة ، لإعلان انتهاء دور الأزهر ، الذى كان له دور فى زمن مضى ، ولم يعد له الآن دور يؤديه ، ومن ثم يجب أن يمضى . وهكذا كشفوا عن نياتهم ، وكأن رواية (وليمة لأعشاب البحر) لم تكن مجرد رواية تجاوزت الأيديولوجية إلى التجديف وسب المقدسات ، بل ممهدة لظهور (تنين) كهنوتى جديد تحت غطاء التنوير للقضاء على الدينى والغيبى .

إن اللافت إلى الانتباه ظهور دور جديد لمن تسموا بالتنويريين من دون الناس ، وهو الدور الكهنوتى الجديد ، وهذه ليست مفارقة ؛ لأن الذى حدث بالفعل بالرغم من ادعاءاتهم برفض الكهانة فى الفكر ، فإنهم بدوا أشد تعصبا ، وكان تعصبهم من نوع غريب عبثى ، فهم يدّعون أنهم وحدهم من دون الناس المثقفون ، وأنهم وحدهم من دون الناس القادرون على صنع الإبداع وقراءته وفهمه . . . لقد تحولوا إلى كهنوت يصدر صكوكا سحرية عبثية مثل :

١ ـ صك بأنهم وحدهم المثقفون التنويريون من دون الناس .

٢ ـ صك بأنهم وحدهم القادرون على صنع الإبداع وقراءته وفهمه من دون الناس .

٣ ـ صك بالحكم على جهل علماء الأزهر بالأعمال الإبداعية ، وبأنهم يعجزون عن قراءتها ، وعن فهم سككها المراوغة .

٤ ـ صك بأن حيدر حيدر مؤلف رواية (وليمة لأعشاب البحر) من كبار الأدباء ، وأن أعماله الإبداعية تزخر بقيم فنية رفيعة (!!) .

٥ ـ صك ببراءة حيدر حيدر مؤلف الرواية السالفة الذكر ، من تهمة الإساءة إلى المقدسات ؛ لأنه غير مسؤول عما كتب لأنها كتابة متخيلة .

٦ - صك بعدم مسؤولية مؤلف الرواية عن شخصياتها ؛ لأن اسمه حيدر حيدر وأسماء الشخصيات : مهدى جواد ، ومهيار الباهلى ، وفلة بوعناب ، وآسيا الأخضر وغيرهم .

٧ - صك بضرورة إعادة طبع الرواية مرة ثانية ليفيد منها العام والخاص .

وكتاب (حوار حول الوليمة) يقدم رؤية أشبه بالرؤية التسجيلية لما دار حول الرواية، غير أن هناك سؤالا يبحث عن إجابة ، وأقرب الظن وأبعده أنه لن يجد الإجابة . والسؤال: هل ألقى بهذه الرواية على الناس قدرا مقدورا أم أن بعض أولياء الشيطان ألقى بها فى طريق الناس ، فى مرحلة من مراحل إعادة تكوين العقل العربى ، وإعادة تكوين الفكر والتفكير فيه ؟

وفى النهاية ، فإن الناس سينسون رواية (وليمة لأعشاب البحر) ، ولكن أحدا لن ينسى أن مواجهة إلى حد الصدام حدثت بين العلمانيين والأزهر الشريف ، لن تكون آخر المواجهات ، ولا آخر صدام .

ولقد حاولت أن أتدخل بقدر قليل فى الحوارات ؛ ليبقى لأصحاب المداخلات القدر الأكبر من الحضور فيها ، كما حرصت على وضع ملحق للكتاب يضم بيان اللجنة الدينية بمجلس الشعب ، وبيان الأزهر الشريف للناس عن الرواية ، ونص دفاع فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر عن الأزهر ، ونص حديث الأستاذ طارق البشرى رداً على من حاولوا إقصاء الأزهر الشريف عن ساحة الحياة العامة فى مصر ، فيما يتعلق بالشأن الإسلامى . وتقرير لجنة وزارة الثقافة فى الحكم على (الرواية) والهجوم على من رفضوها .

والله المستعان والموفق لما فيه الخير والسداد .

ميت سويد فى يوم الثلاثاء ١٥من جمادى الأولى ١٤٢١ هـ — السيد أحمد فرج

١٥ من أغسطس ٢٠٠٠ م — الأستاذ بجامعة المنصورة

الفصل الأول

الرواية : الإنسان والجغرافيا والتاريخ

الرواية (*) : الإنسان والجغرافيا والتاريخ

(١)

تبدأ الرواية بالجغرافيا بوصف مدينة (بونة) الجزائرية، وتدور جغرافيًا بين الجزائر والعراق ، ثم تمتزج الجغرافيا بالتاريخ ، بالإنسان الدائر فى فلكهما ، إذ يغرق الإنسان فى جغرافيا المكان، ويذوب فى تاريخه السياسى والاقتصادى والعقدى والاجتماعى والسلوكى.

تبدأ الرواية هكذا من صفحاتها الأولى ، بوصف مدينة (بونة) الجزائرية فقد « كانت مدينة جميلة مطوقة بالبحر والغابات ، لكنها كانت كأى مدينة عربية متوحشة محكومة بالإرهاب والجوع والسمسرة، والدين والحقد والجهل والقسوة والقتل، مدينة تكره الغرباء ، ورغم جوارها للبحر والغابات فهى تبدو حزينة ، إن الحب ينمو داخلها نمو النباتات بين شقوق الصخرة مهددا بالموت متى حاول الوقوف تحت الشمس ، تلك هى (بونة) مدينة الحزن والبحر والخوف والحب والذاكرة » (ص ١٢) .

هكذا يصف الكاتب المدينة التى بدت فى عينيه سوداء .

الكاتب : إنسان ضئيل الجسم والفكر ، سورى ماركسى العقيدة ، علوى المذهب ، خرج من سوريا للعمل بالجزائر فى ظل حكومة (هوارى بومدين) ، وقد يكون خروجه من سوريا فرارا من نظام سياسى ، أو رغبة فى العمل بجزائر المليون شهيد التى تمثلت حلما فى خيال الشباب العربى بعد نجاح ثورة التحرير من الاحتلال الفرنسى ، سواء كان هذا أو ذاك فقد خرج حيدر حيدر مؤلف رواية (وليمة لأعشاب البحر) من سوريا إلى الجزائر ، هو نفسه يروى سبب خروجه الطردى الذاتى أو القسرى: « سافرت إلى الجزائر ، وتوالت سنى الهجرة التى امتدت إلى اثنتى عشرة سنة، فى وقت عصيب على المستوى السياسى » فى حين كان عليه أن يبقى ليواجه الصعاب التى لاقى بسببها المبدعون والمثقفون الكثير من الآلام ، ولكنه يزعم أنه لم يذهب إلى الجزائر منسحبا من المعركة الوطنية فى سوريا ، فعندما ذهب إلى الجزائر شارك « فى المعركة الثقافية وتعريب

(*) نسخة الرواية التى اعتمدنا عليها ـ نسخة الهيئة العامة لقصور الثقافة طبعة نوفمبر ١٩٩٩م ، وسنضع النصوص المأخوذة منها بين علامتى تنصيص ، وسنشير إليها هكذا (ص) .

الأجيال الجديدة بعد الثورة » [1]. وهو ادعاء فيه زيف؛ لأنه لم يكن مقبولا فى سوريا ، ففرّ إلى الجزائر، ومع أنها البلد التى فتحت له ذراعيها فقد نفث صدره فيها ما يكنه لها ، ولكل المدن العربية من كراهية . فبونة المدينة الجميلة التى منحها الله الموقع الجغرافى الجميل الفريد ، وطوقها بالبحر والغابات ، بدت فى عين الكاتب مدينة متوحشة يحكمها الإرهاب والجوع والسمسرة والدين والحقد والجهل والقسوة والكراهية ، وقتل الحب ، وبهذه الصفات التى ألصقها بالمدينة التى بدت فى عينيه كريهة يمهد للصفات التى سيلصقها بالناس الذين يعيشون فيها ، وبكل الناس فى البلاد العربية ، أى أنه يمهد لما سيكون عليه سكان هذه المدينة ، وتدينهم المقترن بالحقد والجهل والقسوة والكراهية ، وهذا السرد لا يخفى وعى السارد بما سيرويه فى الرواية الذرائعية لما يعتمل فى صدر راويها . واختيار الجزائر والعراق لكى تدور الأحداث بينهما لم يكن من تدبير ظروف أو تداعيات حالات ما ، بل ذريعة للابتعاد عن سوريا التى خرج منها ، ويحلم بالعودة إليها يوما ما ، هو نفسه يحتفظ لما يكنه للنظام السورى من بغض وكراهية ، ويسقطه على النظام العراقى ، فسوريا زمن الرواية يحكمها البعث العربى الاشتراكى ، والعراق عروبية ، وفى حال مخاض بعثى ، وأبو الفكر فيهما زكى الأرسوزى ، وميشيل عفلق وجمال عبد الناصر .

إن الكاتب احتفظ لنفسه بكراهية ضمنية مباشرة أو إسقاطية ، كان يكررها كثيرا فى الرواية بصورة مرئية وغير مرئية ، فمدينة (بونة) الجزائرية هى كل مدينة عربية تماثل دمشق وبغداد والقاهرة وكل مدينة عربية ، وعلى حد قوله: « فى العراق وسوريا ومصر، وسائر البلاد العربية لا يوجد غير السلب والنهب والقتل والأكاذيب، والحكام العرب حلاليف وطغاة وأعداء لشعوبهم » (ص ١٥٣) .

هذا النص الذى ورد سردا فى الرواية ليؤكد به بغضه للعرب ومدنهم ، ومنها سوريا يؤكده اعترافًا لمجلة أخبار الأدب قال : « يمكن أن يكون صعبا شرح الحالة التى كنت عليها بسوريا ، وعلاقتى بالمؤسسات والسلطة والنظام السياسى ، فقد كان هناك نوع من الجفاء وعدم الاتفاق بين أفكارى ورؤياى ، ونظرتى للأشياء وبين نظرة النظام، وعندما خرجت من سوريا كنت مقتنعا أننى لو بقيت لواجهت صعوبات كثيرة » [2] .

(١، ٢) من حديث المؤلف لأخبار الأدب فى ٧ / ٥ / ٢٠٠٠ م .

وكاتب (وليمة لأعشاب البحر) متأثر بالكاتب الجزائرى / الفرنسى (ألبير كامو Albert Camus) الذى أبدع فى وصف الجزائر أيما إبداع، وصفها بمشاعر حميمية، مع أن (كامو) عاش فيها طفولة صعبة فيها قسوة . ومع هذا فالجزائر عند (كامو) بلد حميمية ، كانت أمه تسميها (بلدنا) وحتى عندما بدأت حرب التحرير والاستقلال فى الجزائر، وحين حدثته أمه عن عزلتها، وعن خوفها من الانفجارات عرض عليها (كامو) السفر إلى فرنسا ـ وقد صار مشهورا وغنيا ، وأصبح فى مقدوره أن يوفر لها معيشة مريحة كان جوابها : « لا الطقس بارد هناك ، الآن أصبحت عجوزا أريد أن أبقى فى بلدنا » [1] .

أم (كامو) لم تعرف بلدا سوى الجزائر ، ولم تكن تفكر كما يفكر الفرنسيون المحتلون ، مع أنها كانت جاهلة وشبه بكماء، وكانت تعمل فى الخدمة فى بيوت الناس لتعيش. « إلا أن (كامو) استطاع أن يعبر عن حبه الحقيقى للجزائر التى أمضى فيها نصف حياته ، وفيها نشأ ودرس ، واختبر معنى الحياة والاغتراب والألم والكتابة ، ولم يكن موقفه من الجزائر إلا تعبيرا عما تمثل الجزائر فى وجدانه وذاكرته » [2] .

والأمر عند حيدر مؤلف الوليمة غيره عند (كامو) فمن وصف حيدر للمدينة العربية ثم من وصف أبطال الرواية تتمثل إسقاطات شيطانية تعكس حقد المؤلف وبغضه للإسلام ، والعرب على حد سواء . وهذا يبين أن القارئ أمام رواية أسقط فيها الكاتب انحرافات حبيسة فى نفسه ، وعلى قمتها عجزه الشخصى وعجزه السياسى .

جعل حيدر الميدان الأساسى للرواية الجزائر بلد المليون شهيد ، ولكنه سخر من ثوارها وعلى رأسهم (هوارى بومدين) الزعيم العربى الوحيد الذى ذكره بالاسم وهو يعلن عن بغضه له . ومبعث هذه السخرية أنه لم يكن يؤمن بثورة كالثورة الجزائرية ، أو كل الثورات العربية ، بل بثورة ماركسية لينينية ، ولأن (هوارى بومدين) كانت له توجهات تعريبية وإسلامية .

وكما أعلن عن رفضه للثورة الجزائرية ، رفض الثورة العراقية التى أنهت النظام الملكى العراقى ، وجاءت بنظام جمهورى لا يقل سوءاً عما كان قبله ، وعبر عن بغضه للنظام العراقى فى السرد ، وعلى لسان مهدى جواد ومهيار الباهلى ، الشخصيتين الماركسيتين المحوريتين فى الرواية التى قصد بها باعترافه لأحد الصحفيين قائلا: « قصدت

(١ ، ٢) صحيفة الحياة ـ لندن ـ العدد ١١٤٠٥ فى ٩ / ٥ / ١٩٩٤م ، مقال : الرجل الأول ـ عبده وازن .

بالرواية أن أعبر عن الواقع العربى المأزوم والمطوق بكثير من القوى التى تعيق تقدمه»[1].

مؤلف الرواية خان وطنه سوريا بالكلام عن الجزائر والعراق بهذه الصورة ،وخان الوطن العربى كله .

(٢)

الأبطال الرئيسيون للرواية

١ ـ مهدى جواد :

ماركسى عراقى شيعى ، فر من العراق ناجيا من مذبحة ألمت بحزبه بجواز سفر مزور قال عن نفسه فى الرواية : إنه ملحد . أو أراد المؤلف أن يكون كذلك فالمؤلف ماركسى ، ومهدى جواد هو أقرب الشخصيات إلى المؤلف . قال مهدى لآسيا لخضر (الأخضر) عشيقته (فى الرواية) : « لكننى كما تعرفين ملحد ، الشرف وأخلاق المسلمين فى مؤخرتى » (ص ٥١٠) .

استطاع أن يصل إلى الجزائر ليعمل مدرسا للغة العربية فى مدينة (بونة) .التقى بآسيا الأخضر لأول مرة أمام بوابة ثانوية القديس أغسطين ، وطلبت منه أن يعلمها اللغة العربية ، رأى فيها امرأة الحلم ، منذ رآها أبحر معها بخياله فى لجة الليل والقمر ، والعواصف والموت ، كانت جميلة فارعة ذات جسد جميل ، ذلك الجسد الذى طالما تخيل أنه قد يلقاه ، غرق معها فى الجنس والخمر . بعد أن اختارت طريقا آخر ووجد نفسه وحيدا بلا هدف أنهى حياته بالانتحار ليكون جسده (وليمة لأعشاب البحر) بعد أن حاول الانتحار فى مرة سابقة بقطع شريان يده وتم إنقاذه .

٢ ـ مهيار الباهلى :

صورة أخرى محببة إلى نفس المؤلف شيوعى عراقى طوباوى ، أصيب مرتين ونجا من الموت فى كل مرة بأعجوبة ، فر أيضا إلى الجزائر ، وهناك ظل يحلم بثورة تقضى على كل حاكم عربى الذى رمز إليه المؤلف بـ (عبد الله بن أبى ضبيعة الكلبى) ، لكى يعود حلم الجذور الطبيعية للحياة الإنسانية الأولى ، كما كان يحلم به (كارل ماركس) فى الفردوس الشيوعى الأرضى ،محب للمنطق والأنثروبولوجى ، ولا يكف عن الحلم بالثورة،كان معجبا بالثورة الجزائرية،وسعى ليصل إلى خلايا ثوار حزب الطليعة الممنوع،

---

(١) صحيفة الأيام ـ مصر ـ فى ٤ / ٦ / ٢٠٠٠ م .

حذره جواد من عبث المحاولة ، قائلا له: إن الشعب الجزائرى لم يعد شعبا من الثوار، لقد حوله الإرهاب إلى شعب من الجرانيت . وصفه مؤلف الرواية بأنه: « مأخوذ بعصور التنوير والإصلاح اللوثرى وتوما الأكوينى والثورة الفرنسية وابن خلدون وابن رشد وغيلان الدمشقى المعتزلى والسهروردى والحلاج ، وابن الراوندى الملحد ، والقرامطة ، ويسخر من الزكاة » (ص ٥٤٨) . ظل مخلصا لزوجته ، ولكنه انهار فى النهاية أمام (فلة بوعناب) فقد أصيب بالحمى ،ولم يجد لنفسه ملجأ إلا حضن (فلة بوعناب) وبعد أن ذهبت عنه الحمى ارتمى بين ساقيها فهصرته كما تهصر أنثى العنكبوت ذكرها. اختفى فجأة ولم يعثر عليه ، مثلما ماتت أحلامه. صوره الكاتب فى سرده وقد وقع فى خيوط (فلة بوعناب) العنكبوتية فقال:« كانت نارا شخصية تراءت له بغتة فى وقت الضيق ، كما تراءت العليقة الملتهبة لموسى فى (الوادى المقدس طوى) خاطبته: أنت فى الوادى المقدس فاخلع ثيابك وتقدم ، بغتة خلع أستاره كلها وتعرى، اندفع فى اللهب فاكتشف الله فى جسد (فلة بوعناب) العاهرة المقدسة التى وطئها الثوريون والمنفيون والسفلة والخنازير ،ثم لفظوها لفظ النواة بعد امتصاص الثمرة» (ص ٢٩٤).

٣ ـ فلة بوعناب :

مواطنة جزائرية،ناضلت فى صفوف ثوار الجزائر زمن الثورة،عايشتهم فى الجبل ، وضاجعتهم فى كهوفه ، ولما انتصرت الثورة سلبها الثوار مجدها النضالى ، وأعطوها بناية جعلت من إحدى حجراتها (بانسيون) تؤجره لرجل واحد،جعلته عش عنكبوت ، وجعلت من نفسها أنثى عنكبوت تغتصب الذكر الذى يسكن عندها ،فلا تتركه حتى تنزف دماؤه ، قال الكاتب يصفها فى الرواية على لسانها : « من بين فخذى مر كل الغزاة . . . جسدى كالصحراء التى أتيت منها ، لا الرياح ولا الأمطار محت معالمه . . . لقد أخذوا الوطن وأعطونى (البانسيون) بوخروبة (هوارى بومدين) ورجاله يرسمون أما (فلة) فتفتح ساقيها ثم ترفعهما لتهصر بهما ذكر العنكبوت » (ص ٤٥٤) .

« قالت تسألنى عن الوطن ؟ بعت كل ما أملك بدءاً من الشرف وانتهاء بالله والثورة واحتفظت بنفسى،الوطن الذى صار سوقا ليس وطنى،وطنى هو الجسد »(ص ٤٥٧) .

(وفلة بوعناب) العاهرة المقدسة بنظر الكاتب ، ستظل حتى نهاية الرواية أكثر شخصياتها تماسكا ؛ لأنها قررت ، أو قرر المؤلف أن تكون (فلة بوعناب) العاهرة العنكبوتية حتى النهاية .

٤ ـ آسيا الأخضر .

ابنة مناضل جزائرى استشهد فى أثناء تعذيبه ، لم تفارقها صورة أبيها ، ورثت منه نضارة الجسد ، وقوة الإرادة ، تلميذة بالتعليم الثانوى ، تعرفت بمهدى جواد ليعلمها اللغة العربية ، وتحولت من تلميذة إلى عشيقة له . وصفها الكاتب قائلا : « آسيا الأخضر مهبط شهوة الرجال الشبقين ، والنذير السترى لتوق الأرض العطشى للمطر ، الناضحة بالبهاء والصحة والثقة واللامبالاة والقتل والجنون، سليلة معابد الآلهة القديمة » (ص ٥٤٠) .

وهناك شخصيات ثانوية مثل : (لالا فضيلة) أم آسيا امرأة جميلة لدرجة العبط ، طيبة بسذاجة، تعطى لأبنائها الحنان ولزوجها الثانى بعد موت أب الأبناء ـ اللذة ـ إنها الصورة التى تمثل نموذج الأمهات فى الوطن العربى كله . ويريد المؤلف تغييره .

يزيد ولد الحاج : زوج (لالا) تاجر ، صوره الكاتب أحد الإفرازات التى تفرزها الثورات الوطنية العربية وحروب التحرير من الانتهازيين المخلوطين من يمين ويسار وعسكر وتجار وفلاحين ومثقفين واشتراكيين وبرجوازيين ،ونساء وقف دورهم عند الخدمة المنزلية أو مومسات،أو زوجات صامتات؛لأن ثورة المليون شهيد فى تصور الكاتب اغتالها العسكر وهم أبناؤها والتجار؛ولهذا كان يزيد التاجر البرجوازى محتكر السوق وعرق العمال صديقا للوزراء والقادة ،لا يتورع عن عمل أى شىء خبيث مع التظاهر بالتدين .

الحاج محمد :نموذج المسلم العربى فى تصوير الكاتب لا يعرف من الدين إلا قشورا ويتشدق ببعض النصوص من القرآن والحديث ، دون أن يحفظها الحفظ الصحيح ، يفضل تأجير المسكن للفرنسيين لأنهم يدفعون أكثر من العرب .

منار أخت آسيا الأخضر : متفرنسة ، تحب الفرنسيين ، وتكره العرب ، ولا تخفى ذلك ، بل تحاول التدليل على أنها محقة فى حبها للغرب ، وتنكرها للعرب المتخلفين الذين لا وزن لهم فى ميزان العالم .

صنع المؤلف شخصياته هكذا على عينيه ، وأهلهم لإعلان الرفض المطلق لكل شىء ، يستوى فى ذلك رفض الموروث كله ومنه الدين ، ورفض أشكال الحكم العربى، وإحساس المواطن العربى بالاغتراب فى وطنه . ومن هنا فالرواية نوع من الفكر العبثى الذى يؤدى إلى اللاشىء . ويطالب بتدمير كل شىء لإقامة ماركسية لينينية فى الوطن

العربي، ولنلاحظ أن الكاتب ألف هذه الرواية قبل انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، وتحول روسيا إلى مجتمع رأسمالي فقير قلق .

لكن عدمية الكاتب تظهر في تصويره للمجتمع العربي ، مجتمعا أسود ، أبناؤه محاطون بالكراهية ، فقد تحول أبناء الجزائر إلى أعداء بعد أن انتهت مهمة الثورة ضد الاحتلال الفرنسي ، والشيء نفسه في المجتمع العراقي - وكل مجتمع عربي . صور ذلك في شخصيات عمر يحياوي الثائر الجزائري، والإيزرجاوي المتاضل العراقي وتصويره لنهاية جميلة بوحيرد التي تزوجت من محاميها الفرنسي ، ولهذا لم يكن غريبا أن ينهي الكاتب الرواية بإفناء بطليها مهدي جواد الذي قبسه من هاملت شكسبير مخلوطًا بأبطال ألبير كامو خاصة بطل رواية الغريب L'etrangeur ؛ لأن مهدي جواد في الرواية كان غريبا أينما حل ، يشبه (فلة بوعناب) فكلاهما في الرواية شجرة عارية مجتثة من جذورها ومرمية على الأرض وكلاهما مهزوم من نفسه ،ومن الآخرين ، يراوغ وينقسم على نفسه ، ولكن الهزيمة كانت مريرة لكل منهما ، وكل منهما رفض مصيره ، وعبرت (فلة) عن رفضها بأن تحولت إلى مدمنة للجنس ،وهو تدمير معنوي ، لكنه يبقى لها الحياة ، أما مهدي فقد أغرق في عبثيته،وآثر أن يكون عبثيا للنهاية فخسر نفسه أولا ثم قدم جسده (وليمة لأعشاب البحر) ثانيا .

(٣)

اقتباسات

اقتباسات ، لا ارتباط فيما بينها ولا اتصال ، فهو يقتبس من المنشورات الشيوعية الحزبية ، ومن شكسبير ، وكامو وسارتر ، ونجيب محفوظ ، وجان جينيه ومن كثيرين غيرهم عرب وغير عرب ؛ لإظهار أنه كفء لأية مقارنة ؛ ولأن قدراته على إبداع نماذج مستقله لا تسعه في أوقات عديدة ، في حالات كثيرة ، ولإظهار اتساع معرفته،فكأنه مراهق يحب التظاهر بمعرفة كل شيء ،والقدرة على فعل كل شيء .

أما مصادر اقتباساته فهي :

١ ـ منشورات حزبية : يظهر ذلك واضحا كلما نقل أحداث الرواية إلى العراق ، فيبدو وكأنه يقرأ منشورات حزب ماركسي وتقاريره ، ولم يستطع الكاتب أن يتخلص من

التقاريرية فى السرد فى هذه الأجزاء من الرواية، وكان يظهر عجزه عن التعبير الطبعى فى السرد ،ويخفت صوته، وتتلاشى ملامحه، وتهبط حيويته وقدرته على تدفيق الأحداث ، ويضعف النسيج السردى بصفة عامة .

٢ ـ هاملت شكسبير : « كانت أمى تقول لى وهى يائسة : ستموت وحيدا ، ولن تجد من يكفنك ويمشى وراء جنازتك . وبنزق كنت أجيب أمى: إلى الجحيم لا أريد كفنا ولا مشيعين ، أريد أن أموت عاريا تحت الشمس فى غابة أو صحراء ، تأكل جثتى الصقور ووحوش البر ، هذا أفضل وأهدأ لنفسى من صلوات الدجالين وقبور المسلمين المظلمة » (من فصل : الشتاء) .

وقالت له أيضا : « ستتوه فى البلاد البعيدة فتجرفك السيول والريح الصرصر » .

وقال له أبوه سعدون جواد:(وكان مهدى صغيرا ووحيدا، يرتجف من التجديفات والطقوس الملغزة التى يقوم بها أبوه) :« لن تكون ابنى إذا ما اعترفت يوما بأمومة هذه الأم اللعينة الغبية (أم مهدى) أنت ابن سعدون ، يعنى ابن الذئاب، كان يرتعد فى حضرته وهو يتخيله مجنونا سيقتله ، وكانت السكين على مرمى ذراعه ، وقال : عندما تكبر تذكر أنهم أهانونى وساطونى ، وعليك أن تثأر منهم ، إذا لم تثأر ستأتى روحى وتحوم حولك وتخنقك ، ربطونى أولاد العواهر فى الحظيرة إلى الشجرة وجاؤوا بالدرك وضربونى ثم أحرقوا البيت لأننى أحرقت محاصيلهم ، ثم طردونى من البلد . تذكر كلمة أقولها لك : الآن أنت ابن الطبيعة والوحش ، هذه البندقية والسكين ميراثك فلا تغفر لأحد » (ص ٢١٩) .

نبوءة أمه جعلت منه شخصية قلقة مترددة ، وورث من أبيه مشاعر الألم والخيبة والعجز عن رد الإهانة . فلم يتخلص من وساوسه إلا بالانتحار .

هذه الاقتباسات الشكسبيرية لم تقف عند مهدى جواد ، فقد كانت عند صنوه فى الرواية ـ آسيا الأخضر ، فهى ليست البنت الناضحة بالبهاء والثقة كما بدت لمهدى جواد أول مرة ، فهى لا تزال تعشق أباها وتنتظر عودته كانت تردد : « لا بد أن يرجع كعادته ومعه الزهور والخبز والحلوى وأخبار الحرب » .

كانت ترى أن أباها مات مرتين ، مرة وهو يناضل الفرنسيين ، ومرة لأن يزيد ولد الحاج تزوج من أرملته ، ووطئ فراشه .

كما أن الأم (لالا فضيلة) أم آسيا دخلت فى عشق سرى مع ابنتها التى تشبه أباها العربى الأخضر ، الذى لا تزال فضيلة تحبه من أعماقها ، ولا تفضل عليه رجلا آخر ، ولو كان يزيد ولد الحاج الذى ينفق عليها وعلى أبنائها ، مات العربى وبقى فى آسيا ابنته فى عين (لالا فضيلة) .

كلهم جوف من الداخل مهدى جواد يشعر بأنه « وحيد ومعزول ، يبحث عن جدار فى صحراء ملعونة قاسية » فر من العراق بحثا عن « أرض لا تقسو ، ورحم دافئ ، ولكن كانت الطريق طويلة والرحلة شاقة ، وهو رجل ملعون فقد الأب ولا يطلب غفرانا » ورث عن أبيه الوحدة والضياع والكراهية والحقد ، ويفكر دائما بالموت وحيدا كما مات أبوه سعدون جواد « سعدون الذى مات وحيدا دون أن يحقق شيئا ذا معنى سوى حماقاته الشخصية . كان كارها للناس جميعا حتي امرأته (أم مهدى) كان يقذفها بحقده الشيطانى » (فصل : الربيع) ،وكان يقول لآسيا وهما فى غمرة التمتع بحبهما ، وهما يظنان أنهما توحدا فى شخص واحد : « ابحثى عن رجل آخر لا يسكنه الجحيم » . فترد عليه آسيا : « إنما أنت رجل هالك ودمك مباح ، ستطوينى كما يطوى الغجرى الرحال خيمته ، لا يكون لى قرار ولا بيت » .

٣ ـ ألبير كامو Albert Camus : كانت أعمال ألبير كامو : الغريب، والصحراء ، والمتمرد، ومأساة سيزيف، والطاعون تطارد حيدر وهو يكتب روايته . كانت عبثية كامو وتمرده واغترابه تطارد حيدر ، فأبطاله يتشبهون بأبطال كامو ، وقد تختلف القدرة على تصوير الشخصيات بما تحمل من قدرة على التعبير عما تحمل من عبثية وتمرد واغتراب ، ولكن حيدر على أية حال غرق فيها . فمهيار يصحو وينام على حلم عبثى بثورة لا يراها إلا فى خيالاته أو أحلامه ، وهو حلم يرفض التخلى عنه رغم تكرار الهزيمة ، وتكرار التعرض للموت ، حلمه عبثى لأنه يحلم أن تعود الأشياء إلـى الخلق الأول بريئة نقية بلا رقابة من أحد ، جرب الموت فى الأهواز مرتين ، ولما فر إلى الجزائر استمر حلمه بثورة لمحو الماضى ، وإحلال عالم من تصوره بتربية أجيال جزائرية جديدة على النقاء الثورى والبراءة ،ولكنه كان ينحت جبلا بإبرة،وتنتهى حياته نهاية غامضة،الغربة والدمار،والوحل والموت بلا مغنى وبلا جدوى.

٤ ـ نجيب محفوظ : الوعى بأهمية الجنس ، فنجيب محفوظ يلجأ إليه لواذا به خوفا من الفناء فى حالات الضعف والخوف والانتحار المعنوى،كما فى رواية الكرنك ،

«ونفيسة» فى (بداية ونهاية) وفى بعض نساء (المرايا) و(الحب تحت المطر) و(ثرثرة فوق النيل) .

لكن حيدر تمادى فى الجنس لدرجة الإدمان ، بصورة شريرة سوداء أقرب ما تكون إلى طريقة (جان جينيه J . Gener) الذى قرر أن يختار الشر فى تعامله مع الحياة والجنس المحرم بصفة خاصة ، الذى أباحه لنفسه ولو كان شاذا . ولذلك كانت نهاية مهدى جواد الذى استغرق فى الجنس نهاية سوداء . كما أدى بمهيار الباهلى إلى نهاية شابهة فى بيت (فلة بوعناب) العنكبوتى ، وحيث فنى الباهلى الثائر طول حياته ، دون أن يعلم أحد كيف فنى .

أما (فلة بوعناب) التى قال عنها: إنها عاهرة مقدسة ، كما قال سارتر فى المومس الفاضلة فقد صورها شخصية مدمنة للجنس ، أفرغ فيها الكاتب كل سقوطه الشخصى والجنسى ،والنفسى والأخلاقى والدينى فهى « امرأة تشتعل بالشهوة والرغبة ، مجروحة يتفصد منها الجنس والألم » (ص ٢٠٦)، وتفوقت بشرها السوداوى على كل نساء نجيب محفوظ ، ولو اجتمعن فى امرأة واحدة تشتعل بالجنس المحرم .

(٤)

الرواية والرفض المطلق للواقع العربى

تعبر الرواية عن رفض مطلق لأوضاع العالم العربى. قال عنها محمود أمين العالم : « رواية عن الأوضاع الفاسدة فى العالم العربى ، نشيد الثورة العربية المجهضة ، تعبر عن رفض مطلق ، بل إدانة مطلقة لهذه الأوضاع العربية الراهنة ، والقيم الأخلاقية والاجتماعية والعقائدية السائدة فيها والمهيمنة عليها » [١] .

محمود أمين العالم لا يختلف كثيرا عن مؤلف الرواية فهما ينتميان لأيديولوجية واحدة، الكاتب نفسه كرر كلام محمود أمين العالم فى بعض أحاديثه الصحافية فقال لرئيس تحرير جريدة الأيام القاهرية :« قصدت برواية (وليمة لأعشاب البحر) أن أعبر عن الواقع العربى المأزوم والمطوق بكثير من القوى التى تعيق تقدمه » [٢] .

وإذا افترضنا أن بعض كلامه صحيح ، فهل وصل الواقع العربى إلى هذا الدرك

(١) مجلة أخبار الأدب فى ٧ / ٥ / ٢٠٠٠ م . (٢) جريدة الأيام فى ٤ / ٦ / ٢٠٠٠ م .

من الانحطاط ، حتى يصوره حيدر بكل هذا السفول ؟! لقد بالغ حيدر فى تصوير الواقع وأسرف فى تصوير الجنس الأسود ، والحقد الإنسانى ،ونشر الرذيلة ، بما يعرقل جهود المؤسسات التربوية ، وجهود الآباء فى تنشئة الأجيال الصغيرة على الفضيلة والقيم والمبادئ النبيلة .

يغلب على الرواية الطابع التسجيلى إذا كانت جغرافيا الكتابة العراق ، والرفض المخلوط بالعبث إذا كانت جغرافيا الكتابة الجزائر .

يبدأ الفصل الأول بعنوان الخريف،والخريف نذير؛حيث تسقط فيه الأوراق الخضراء وتصاب الخضرة بالذبول،فكأن الكاتب ينذر قارئه بأن عمله يحث على التشاؤم ، ثم يبدأ بوصف المدينة ، مدينة (بونة) التى احتضنها البحر والغابات ، ولكنها ـ مع ذلك ـ متوحشة قد أفسدها أهلها المتوحشون . بالرغم من أنه التقى فى هذه المدينة نفسها بفتاته الجميلة (آسيا الأخضر) كما التقى برفيق نضال (مهيار الباهلى) ابن الأهواز الثائر .

هذا الجو الموحش لا يخلو من لحظات جمال وسعادة ـ البحر والنوارس تجمل السماء ، والأعشاب الندية على شاطئ البحر ، تزيده بهاء وجمالا .

يظن مهدى ـ عندما استقر بهذه المدينة ـ أن الدنيا التى خاصمته بالعراق ستضحك له فى الجزائر ، خاصة بعد أن التقى بآسيا الأخضر ، ولكنه لم يجد شيئا من ذلك . لقد ظل طويلا يتأرجح بين الحياة والموت ، أو الرغبة فى أن يحيا أو يموت ، استمرت الحياة إلى حين ، وكانت الأحداث تؤكد له أنه غريب بالجزائر ، مثل غربته السابقة بالعراق ، لكن الغربة السابقة بالعراق كانت غربة فكرية ، كان ماركس يواجه قوى ترى فيه خطورة عليها ، أما الغربة الحالية ، فتتمثل فى الكراهية ، كراهية الجزائرى لغير الجزائرى من العرب ، كراهية يشوبها شك ، كانت تدفعه إلى النهاية ، وتقوده إلى الرغبة فى الانتحار .

تنقسم الرواية إلى مكانين فى ذهن مهدى جواد ؛ العراق بالتذكر ، والجزائر بالمعايشة وعلى هذا الأساس تدور أحداثها ، السرد يتوقف فى الجزائر ليتذكر الماضى فى العراق منذ الطفولة واليفاعة . ووصية الأب ونبوءة الأم ، وصراع الشباب ضد صور الحكم فى العراق ، بل ضد بعض كوادر الحزب الشيوعى نفسه الذى ينتمى إليه ، ضد الشيوعيين الذين هادنوا حكم عبد الكريم قاسم ، وخضع لأوامر الكرملين « المهمة المركزية الآن علينا أن نتمثل قول لينين :إن مدرسة الحرب الأهلية لا تذهب سدى بالنسبة للشعوب ، إنها مدرسة رهيبة حقا ، إنها تعلم الطبقات المظلومة شن الحرب الأهلية ،

تعلمها الثورة الظافرة » (ص ٧٤) . « البورجوازية الصغيرة بمؤسساتها العسكرية ، وجهاز استخباراتها ، ومعها القوى الرجعية المعادية للبروليتاريا تفتح علينا النار » (ص ٧٥). «إن قيادة حزب شيوعى تتخلى عن تعاليم لينين فى استلام السلطة بالعنف، وتنتهج النضال السلمى الديمقراطى ليست أكثر من قيادة بيروقراطية تحريفية جبانة تقدم حزبها بطواعية لسكين الرجعية » (ص ٧٦) . « بدأ الحزب الآن بين فكى الموت ، يجنى حصاد الصراع بين يمين كان مخدوعا بجمهورية وطنية ديمقراطية يقودها عسكرى أحمق يبحث عن مجده الشخصى ، وبين يسار منهك باحتدامات فكرية وتنظيمية ، يخطط لكفاح مسلح طريقا وحيدا للوصول إلى سلطة ديمقراطية ثورية » (ص ١١٩) .

الكاتب يكتب أو البطل يتذكر ـ لا فرق ـ التجربة الشيوعية العراقية التى هادنت عبد الكريم قاسم ، ثم بعد مقتل قاسم وتسلم القوميين السلطة (عبد السلام عارف) خرجت مجموعة حزبية من الحزب الشيوعى ومن الحكم البرجوازى (قاسم والقوميين) كانوا يحلمون بإقامة أول كوميونة عربية أو على الأقل حكم قريب مما حققه حمدان قرمط محقق أول شيوعية عربية فى بلاد الخليج العربى .

لقد اختطوا لأنفسهم خطة كفاح مسلح ساذج انتهى بالانكسار والفشل الذريع .

ويبالغ كاتب الرواية حيدر حيدر فى وصف هذه الأحداث إلى حد المغالطات التاريخية مما جعل رمزًا ماركسيا عربيًا يعترض فيقول :« إن الرواية لا تكتفى بالوصف الخارجى ، وإنما تمتلئ بمختلف الأحكام والتقييمات المتعلقة بخط الكفاح المسلح الذى تعتبره خطا ثوريا ، وخط اللجنة المركزية للحزب الذى تعتبره خطا تحريفيا تصفويا ، ولا يتم التعبير عن هذا على لسان بعض شخصياتها فحسب، وإنما فى النسيج السردى للرواية كذلك ، الذى لا يقف عند حدود التبنى الأيديولوجى لوجهة النظر هذه ، بل يتورط أحيانا فيسوق أقاويل باطلة ويلبسها ثوب الحقائق مثل قوله : « ومن موسكو حرض الأب الروحى خروشوف العزيز قيادة الحزب على ضرورة حل الحزب الشيوعى العراقى أسوة بالحزب فى مصر » [1] .

ظهور اللويتان :

واللويتان أو الليفى تان يعنى التنين ، كان أول ظهوره فى أسطورة يهودية تجعل هذا

---

(١) مجلة أخبار الأدب فى ٧ / ٥ / ٢٠٠٠م .

التنين يلتهم كل من يقابله . وقد اقتبسه توماس هوبز الكاتب الإنجليزى السياسى البرجوازى فى القرن ١٧ ليدعم حق الملك فى السيطرة على مقدرات الحكم فى إنجلترا فصّل توماس هوبز نظريته فى كتاب يحمل اسم الليفيتان ، وهو الملك المنتخب (المختار) من الشعب ، وهذا الاختيار بمثابة عقد اجتماعى بين الملك وشعبه ، يعطى الملك الحق المطلق فى القضاء على كل من يخالفه أو يعترض على سياسته . فإذا جرؤ أحد المواطنين واعترض على سياسته (الملك = اللويتان = التنين) كان من حق الملك القضاء عليه . لكن بينما كان (توماس هوبز) يرسم سياسة الدولة والحكم الأمثل الملائم للبرجوازية المنتصرة على الإقطاع فى القرن ١٧ بدعم حكم أفضل من سابقه، أى أنه يعرض مفهوم الدولة فى سياق فلسفى ، فإن اللويتان عند حيدر من نوع خرافى بشع - هو رمز لكل حاكم عربى ، هو عبد الله بن أبى ضبيعة الكلبى . وصفه حيدر بقوله: « فوق شاشة عقله الملتهب كانت تتصاعد من أعماقه كراهية على شكل أبخرة سوداء تتشكل مرتسما عنكبوتيا يفرى بالسم ، فتتراءى له تلك القطعان البشرية ، وقد تحولت تحت عدسات ملايين العيون العنكبوتية أسرابا من الذباب العالقة فى الشباك اللزجة تختلج فى احتضاراتها وصراعاتها الصامتة » .

ومع هشاشة بيت العنكبوت وضعفه - إذا كانت هذه صورة اللويتان العربى فى مخيلة الكاتب - فإنه قادر على قتل أسراب الذباب العالقة فى شباكه اللزجة وإفنائها ، والكاتب بهذا التصور يزيف صورة المجتمع العربى شعوبا وحكاما ؛ لأن حال العالم العربى لو كانت بهذه البشاعة فلن تقوم له قائمة ، فهو يصف أنظمة الحكم بأنها واهنة كبيوت العنكبوت ، لا تقدر إلا على سحق شعوبها التى صورها بأسراب الذباب ، وبئس التصور والتصوير .

هكذا كان نظام الحكم فى العراق فى مخيلة حيدر،الذى عممه على كل نظم الحكم العربية ، وهكذا تصور شعب العراق ، الذى عممه على كل الشعوب العربية .

أما المجتمع الجزائرى مجتمع المعايشة لا التذكر فهو مجتمع « زميت يحكمه الدين والشرطة وعصابات آخر الليل التى تغتصب وتقتل من أجل دينار »(ص ٢٧) ،وأبو مدين أشبه بمن يحكم العراق قال مهيار:« لقد قضوا على أحمد بن بيللا أبى الاشتراكية، أنا أرى فيه كاسترو العرب ، كنت أتوسم فيه تحولاً إلى الماركسية ، بومدين هذا لا يوثق به عسكرى إقليمى ، رأس إسلامى وجناح إفريقى ، أما قلبه فجزائرى ،

وفي المناسبات يلبس بزة عربية » (ص ٢٩) أي أنه في تصور الكاتب جمع كل الخسائس (عسكرى ـ إسلامى ـ إفريقى ـ جزائرى ـ عربى) أما هدف الكاتب ، فإن حال العراق والجزائر لا تختلفان ، وهما ككل بلاد العرب سواء « فى العراق وسوريا ومصر وسائر بلاد العرب لا يوجد غير السلب والنهب والقتل والأكاذيب ـ الحكام العرب حلاليف وطغاة وأعداء لشعوبهم » (ص ١٥٣) .

والكاتب بين التذكر (العراق) والمعايشة (الجزائر) ، فى التذكر لا يدين إلا السلطة، وفى المعايشة يدين السلطة والمجتمع كله. يستوى ذلك فى حال السرد ،أو حال الحوار بين الشخصيات . فبعد خلع بن بيللا وتولى بومدين يتصور الكاتب أن حكام الجزائر « اقتسموا لحم الوطن وأفراحه ، ورموا للفقراء ، وأبناء الشهداء النفايات والعظام والقبح والمرارة » (ص ٢٧٢) .وهنا تبرز شخصيات مهدى جواد ومهيار الباهلى فى حال التذكر « البرجوازية الصغيرة ، بمؤسساتها العسكرية ، وجهاز استخباراتها ومعها القوى الرجعية المعادية للبروليتاريا تفتح علينا النار » (ص ٧٥). كما تبرز شخصية (فلة بوعناب) فى حال المعايشة :« الوطن الذى صار سوقا ليس وطنى ، أما وطنى فهذا الجسد » (ص ٤٥٧) « أنا كل نساء بونة التى تشتهى » (ص ٥٦٤) وهكذا تحولت الجزائر ـ بعد بومدين ـ إلى سوق للبرجوازية ، والدعارة فى تصور الكاتب .

القلق : (مهدى ـ مهيار ـ آسيا) :

مهدى : كان قلقا عبثيا غريبا أينما حل ،ضاع بين ثأر أبيه ونبوءة أمه ، وفشل الثورة فى العراق .كان دائما يحس بأنه إنسان سقط بين طموحات الماضى التى تحطمت ، والزمن الذى التقى فيه بمهيار وآسيا الأخضر ، عاش طفولة قاسية ، و« طرد من الجامعة لأنه شيوعى محرض ، وقائد مظاهرات ، وأكثر من مرة نقل من عمله بالتدريس ، ثم طرد من الوظيفة ، لبسته أفكار إلحادية وأممية معادية للعروبة المقدسة . نصف حياته عاشه تحت التهديد والنبذ والتشرد والمطاردة ، وهاهو النصف الآخر يمتحن فى حرب اليأس » (فصل الشتاء) ، وفى بونة : « فى المنفى فى استراحة محارب مهزوم ، يشن حربا فى وجه أمواج الانهيار .يحمل أفكاراً ضارة متطرفة قاسية صعبة التحقيق » (فصل الشتاء) .

كان مهدى جواد فاقد اليقين ؛ لأن زمنه « يبدو غادرا ورماديا ولعوبا على سطح هذا الكوكب المعتم » (ص ٨٥) ويئس أن يحالفه الحظ « صرخ بالخليقة : كونى معى

يوما ، يوما واحدا فقط » (ص ٢١٦) « رجل مكسور ساقط ، وحيد ومعزول عن الآخرين » قالت له فلة بوعناب يوما ما : « لا حظت من خلال مراقبتى لك وحديث مهيار عنك ، أننا من طبيعة متماثلة ، كلانا شجرة مجتثة من جذورها ، ومرمية على سطح الأرض ، نحن مهزومان فى موضع واحد جغرافيته متباعدة ، إننى أعرف ما يدور فى رأسك من جلبة وضوضاء ومرارات .مثلى أنت تهرب وتراوغ وتنقسم على نفسك لأن الهزيمة كانت مريرة ولأنك وحيد لا تستطيع أن تفعل شيئا ، أعرف أنك لا تستطيع أن توقف الدمار والخراب الخراب أقوى منا ، ولا أحد فى الساحة ، لأعرف لقد انسحبوا إلى الملاجئ الآمنة والهدوء » (فصل الربيع) .

ولأنه صار إنسانا ساقطا عاجزا ،قد صار راغبا فى تدمير كل شىء،حتى نفسه « فى تلك الليلة تحدث إلى آسيا الأخضر عن تحطيم الأوثان التى أقامها الآباء والأجداد وضروزة الانفصال عن الدين والله والأخلاق ، والتقاليد والأزمنة الموحلة والجنة والجحيم الخرافيين ، وطاعة أولى الأمر والوالدين ، والزواج المبارك بالشرع ، وسائر الأكاذيب التى رسمتها دهور الكذب » (ص ٣٤٨) .

هل رأى الناس شرا أبعد من هذا الشر فى قاموس كاتب روائى مثل هذا الكاتب . إنه ليس مجرد كاتب متمرد عبثى يشعر بالغربة ، رافض لكل قيم الإسلام والعرب والمدنية العربية ، إنه كاتب منهزم ساقط فى أعماق نفسه المنهزمة . وبطله كما صوره ملحد فاشل لا يصلح باختصار أن يكون شيئا ما ؛ لأنه أحس بفقدان كل شىء حتى جسد آسيا بعد أن فقد العقل والروح . إن الانهزامية جعلته يخسر كل شىء ، وهى انهزامية نابعة من انهزامية الكاتب نفسه .

آسيا الأخضر :

كانت قلقة بلا انهزام ، كان قلقها نابعًا من حب غامض بأبيها ، الذى كانت تشبهه فى كل شىء ، وكانت تحس بأنها مثاله فى الشكل وقوة الإرادة . كانت ترى أن مهدى جواد أشبه الرجال بـ (سى العربى الأخضر) فهى المرأة « التى اختلط عليها (مهدى جواد) بـ (سى العربى) » (فصل الربيع) . كان مهدى جواد بالنسبة لها حالة شبقية عبر سبيل اللذة ، فقد جددت طريق حياتها وتعرف ماذا تعنى ، فمع أنها (آسيا الأخضر) « مهبط شهوة الرجال الشبقين ، والنذير السرى لتوق الأرض العطشى للمطر بالبهاء والثقة » (ص٠ ٥٤) فقد عرفت غايتها من بداية تعرفها به فقالت له : « أتعلم لأتحرر اقتصاديا ثم أستقل » (ص ٩٢) ،فلم تكن تنشد إنجاح ثورة ، أو قيادة مسيرة

ناجحة لحزب ثورى .كل همها تبلور فى حب والدها الذى تشبهه من الداخل والخارج، جسده وروحه . وقلقها من وطء رجل آخر لفراشه بالزواج من أرملته (أمها لالا فضيلة) كما تبلور فى الاستقلال الاقتصادى من أسر زوج أمها يزيد ولد الحاج،ثم تأثيث منزل وتكوين أسرة، أما حالة النزوات فى حياتها ،سواء كانت مع مهدى جواد ، أو مجيد بلقاسم فستعبرها، لتبدأ مرحلة جديدة فى حياتها بالسفر إلى مدينة الجزائر العاصمة لتلتحق بالجامعة ، وهذا يعنى أنها ستقصر التفكير فى حياتها الجديدة وتقطع التفكير فى مهدى جواد .

مهيار الباهلى :

هو التعلق الأبدى الحالم الطوباوى كان « مضابا بلوثة الحروب ، مثقف مسحور ببلانكى ، ومجد الكومونة ، والإغارة على سانت كلارا » (ص ٣٢) يشتبك عقله المأخوذ ، بل الملتاث بعصور التنوير ، والسهروردى والحلاج وابن الراوندى الملحد والقرامطة الذين كانوا تجسيدا للسلطة الاشتراكية المشاعية ، وكل التمرد والخروج » (ص ٥٤٨) ، كان قلقه ناتجا عن بحثه عن الوهم الذى لم يبرحه . كان يحلم بأن يقود تنظيما سريا يقلب الأوضاع فى كل بلاد العرب » (ص ١٧٨) ، جاء إلى الجزائر ليبحث عن ثوريين وهميين . لم يكن يملك إلا الحلم ، ولكن الحلم نفسه أفلت من بين يديه ، كما يفلت ضوء شمس تخلل من بين فرجات غض من قبضة طفل توهم أنه يستطيع الإمساك به . كانت تجربة الحزب بالأهواز بالعراق لا تكف عن الدوران فى رأسه ، فتصيبه بالدوار أحيانا ، وتجدد فيه الأمل أحيانا ، ولكن مات الحلم وضاع الأمل . فانكسر وتهدم كجذع شجرة هرمة نخرها السوس ، أخيرا سقط كما تسقط ورقة خريفية لتحملها الريح إلى مكان مجهول .

الهزيمة :

الإيزرجاوى ـ يحياوى ـ فلة بوعناب :

تتجسم الهزيمة فى الأهواز فى الإيزرجاوى ـ عطشان ضيوى الإيزرجاوى . وعمر يحياوى الجزائرى لم يكن مهدى جواد ومهيار الباهلى يمثلان وحدهما هزيمة الثورة العراقية فى الأهواز ، قدر ما يمثلان الأمل والقلق والحلم ، ثم الاغتراب ، أما الذى يمثل الهزيمة الكلية فهو عطشان ضيوى الإيزرجاوى ـ بحسب تصوير الرواية،كانت حياته وعقيدته الماركسية وبطولته الثورية تفوق التصور ، هكذا قال الراوى خطط للاستيلاء على الحكم بعد مقتل عبد الكريم قاسم كانت هذه المرحلة قد وصل فيها الحزب

الشيوعى العراقى إلى مرحلة القوة ، بحيث تصور أنه يستطيع أن يفرض فيها كلمته بالعراق ، لكن المكتب العسكرى للحزب الشيوعى العراقى رفض خطته، فأصيب بخيبة أمل وانكسار. » وهنا أصبح الحزب بين فكى الموت ، يجنى حصاد الصراع بين يمين كان مخدوعا بجمهورية وطنية ديمقراطية، يقودها عسكرى أحمق يبحث عن مجده الشخصى، وبين يسار منهك باحتدامات فكرية وتنظيمية يخطط لكفاح مسلح طريقا وحيدة للوصول إلى سلطة ديمقراطية ثورية » (ص ١١٩) .

كان هذا إحساس كل من مهدى جواد ومهيار الباهلى وعطشان ضيوى . فالعراق ضائع بين قوى متصارعة ، ولكن لأن عطشان ضيوى الإيزرجاوى كان أقوى من مهدى ومهيار لم يترك المعركة بالأهواز ويفر إلى الجزائر ، ولكنه اختلف مع خطة الحزب فى الكفاح المسلح ، فتم نقله بأمر من موسكو ، « وأبحرت به الباخرة السوفيتية من البصرة إلى شواطئ البحر الأحمر ،قذف به إلى هضاب أوزبكستان وسهوبها النائية ،لكى يعاد إعداده الحزبى بتثقيفه من جديد،لتطهير دماغه الملتاث بمرض الكفاح المسلح ، ومغامرات البرجوازيين الصغار » (ص ٤٨١) .

يقول المؤلف: « ومن الاتحاد السوفيتى نجح الإيزرجاوى فى الهرب، وفر إلى ألمانيا، وعاش فى بون فى حجرة فوق سطح فندق متهالك قديم ، وغرق فى سكره ، فلم يكن يكاد يفيق ، وذات يوم سقط من النافذة ميتا ، ولا أحد اهتم ليتحقق إن كانت نهايته بالموت أو بالانتحار ».

هكذا صور الكاتب هزيمة ثورة الحزب الشيوعى العراقى بالأهواز .

أما فى الجزائر فالهزيمة لم تكن هزيمة حزب أو هيئة تحرير ، كانت هزيمة الجزائر كلها صورها الكاتب فى عمر يحياوى وفلة بوعناب . عمر يحياوى جاهد وأبلى مع الثوار فى الجبل ، تحمل العذاب من جلاديه الفرنسيين ، كان مضرب الأمثال فى أثناء الكفاح المسلح ، أفقده التعذيب عقله ، وأعمى عينه اليسرى ، وانتهى أمره إلى أن صار أحد النكرات ينتقل من حانة إلى حانة ، ومن امرأة إلى امرأة ـ يعيش بلا هدف .

أما فلة بوعناب : التى ناضلت ضمن خلية سرية فى جيش التحرير ، وبعد التحرير تجاهلها الثوار فتحولت إلى مومس . كأن الكاتب الرجيم أراد أن يقول : هكذا صار حال الجزائر بلد المليون شهيد ـ صارت فلة بوعناب . قال على لسان فلة :« أنا كل نساء بونة التى تشتهى » (ص ٥٦٤)، « تسألنى عن الوطن ؟ بعت كل ما أملك بدءاً بالشرف . . . وانتهاء بالثورة ،واحتفظت بنفسى ، الوطن الذى صار سوقا ليس وطنى ،

وطنى هو الجسد » (ص ٤٥٧)، « اقتسم حكام الجزائر لحم الوطن وأفراحه ، ورموا للفقراء وأبناء الشهداء النفايات والعظام والقبح والمرارة » (ص ٢٧٢) .

« كل شىء يصدأ فى النهاية ، والحب أكثر الأوانى قابلية للصدأ » (٣٢٦) هكذا قالت فلة بوعناب .

(٥)

هل يمكن التسليم برأى مؤلف الرواية ؟

الرواية تحاول أن تثبت عدمية كل الأشياء ، وكل الأفكار فى العالم العربى المسلم ، وإن كانت الأحداث دائرة بين العراق والجزائر فى تلخيص العام فى الخاص ، سواء كان على لسان الأبطال ، أو فى سرد المؤلف الراوى .

يحاول المؤلف بسرده وبشخوصه أن يصور حالاً قاتمة للعالم العربى ، يصوره بلا إيجابيات ، يصور ما يعتمل داخله ، ويتصور إمكان تحويله من ذاتى إلى عام . والرواية بتغليب الأسلوب التقاريرى غير مقنعة؛ لأن الكاتب الذى يفرض رؤيته التقريرية لتكون موضوعا عاما يفقد مصداقيته مع القراء ، فالعالم العربى لا يخلو من صور جميلة ، تفوق ما كان عليه الاتحاد السوفيتى ، الذى يتشيع له الكاتب فى زمن كتابة الرواية ، سواء فى نظم الحكم أو فى المعيشة ، الأمة العربية أمة كريمة ، تحمل على كاهلها ثقافة ١٥ قرنا، والثقافة العربية من أعظم الثقافات ، ثقافة خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

ماذا يمكن أن يتصور إنسان ، إذا حكم الجزائر أو العراق ، أو أى بلد عربى حزب شيوعى . لقد اعترف جورباتشوف ـ بعملية إسعاف غير موفقة فى كتابه (البيرويسترويكا = إعادة البناء)، الذى لم يكن اجتهادا شخصيا ، بل بإقرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ـ بأن الاتحاد السوفيتى عانى كثيرا من أساليب الهدم المادى والمعنوى، ومن ثم كان من الضرورى إعادة البناء ، ولكن لأن الحزب الشيوعى كان لا يزال يحكم، لم يزد الأمر على أن يكون ترميما ، ولهذا انهار البناء من أساسه . وانتهى النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى ، ومنذ أيام قليلة اعترف الرئيس الروسى فلاديمير بوتين بأن روسيا فى العهدين القيصرى والشيوعى لم تر الديمقراطية ، وأنه يتمنى لو حلت الديمقراطية بروسيا فى أثناء حكمه [١] .

(١) الأهرام فى ٦ / ٧ / ٢٠٠٠م .

لو أن الكاتب أشار إلى السلبيات دون أن يهدم الأشياء والأفكار دون ما غاية أو هدف لأعطى الحق فى أن يقول كلامه ، ولكنه صور العالم العربى لا عقلانيا معطوبا منهوبا مستلبا فى حالة حصار من جهل أهله ، وقهر حكامه ، ولا يمكن أن يكون مصدقا ، ولا يحتمل الرفض المطلق .

الأسلوب التقاريرى (نماذج منه فى صفحات : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١١٩ ، ٢٤٣ ، ٢٦٣) هذا الأسلوب غالب على الرواية ، يظهر فى السرد الذى يوجهه الكاتب للعقل العربى ؛ ليبرهن به على أنه لا نجاة للعرب إلا بشيوعية لينينية « الشيوعية سفينة المضطهدين » (ص ٢٦٣)، و« إن مدرسة الحرب الأهلية لا تذهب سدى بالنسبة للشعوب ، إن هذه المدرسة تعلم الطبقات المظلومة شن الحرب الأهلية ، تعلمها الثورة الظافرة » (ص ٧٤) .

ويضفى الكاتب على أقوال لينين قدسية النصوص المقدسة ، بل يجعل منها كهنوتًا لدرجة أن الرواية بدت (منفستو) بيانا شيوعيا رديئا مطولاً لمنفستو ماركس / إنجلز المختصر .

لا يمكن أن نقول: إن الرواية تخضع لوجهة نظر مؤلفها ؛ لأنها هدامة، فضلا عن فشل الشيوعية النهائى فى العالم كله، الفشل الناتج عن تآكلها الذاتى لا عن « تحالف البرجوازية والقوى المعادية للبروليتاريا والاشتراكية العلمية ، والأحلاف الإمبريالية الرجعية » (ص ٧٥).

لأن هذه القوى المعادية التى يتحدث عنها الكاتب لم تكن موجودة فى الاتحاد السوفيتى من حكم لينين إلى حكم جورباتشوف، كما أن جورباتشوف كان لا يزال يتكلم بلسان الحزب الشيوعى السوفيتى ، كما أنها لم تكن موجودة فى الصين التى تتحول بهدوء إلى الإفادة من النظام العالمى فى الاقتصاد مع الاحتفاظ بروح الجماعية الكونفوشية ، لا الجماعية الشيوعية . ثم ما رأى حيدر ومن تشيع له بالباطل فى هذا الخبر الذى نشرته صحيفة الأهرام فى ١٥ / ٨ / ٢٠٠٠ فى صفحتها الأولى : بكين أ.ب . ف « تدعيما لسياسات الإصلاح الاقتصادى على النمط الغربى قررت الصين وضع حد لنظام التوظيف مدى الحياة ، والامتيازات المالية والعينية التى تمنح للعاملين وفقا لمستوياتهم الوظيفية ، وليس لكفاءاتهم ، ونسبت صحيفة (تشينا ديلى) إلى مسؤول أن اللوائح الجديدة سوف تعمل على التخلص من العمالة الزائدة والعاملين غير الأكفاء، وأكد أن نظام الدرجات الوظيفية سوف يلغى تدريجيا ، وكذا امتيازاتها المختلفة التى كانت تمنح

للعاملين وفقا لمستوى ولائهم للحزب الشيوعى الحاكم » .

أى حيدر ، هل تسللت القوى البرجوازية المعادية للبروليتاريا ، ومعها الأحلاف الإمبريالية الرجعية إلى الصين ، أو هل قفز إلى حكم الصين جنرال عربى متخف فى عبد الله بن ضبيعة الكلبى أحد الحلاليف الذى زعم حيدر أنهم يحكمون الشعوب العربية ؟!

إن حيدر حيدر بجنوحه إلى هذا الأسلوب سقط فى أعماق إسقاطاته ، وماتت حيويته الأدبية ، وقد لاحظ الدكتور على الراعى « أن الرواية إذا انتقلت إلى الأحداث فى العراق (يقصد الوصف التقاريرى) وجدنا الحيوية تنقص نقصا ملحوظا إزاء إصرار حيدر حيدر على أن يورد ثبتا تاريخيا بحقيقة ما حدث ، يكتبه فإذا هو أشبه ما يكون بالتقارير السياسية ، التى يدبجها أمناء الأحزاب ، أو قادة اللجان الرئيسية »(١) .

وثمة شاهد من رموز الماركسية العقيدة الأيديولوجية التى ينتمى إليها حيدر : محمود أمين العالم فقد لاحظ أن النسيج السردى (والكاتب مسؤول عنه مسؤولية كاملة) للرواية لايقف عند حدود التبنى الأيديولوجى (التقاريرى) بل يتورط فيسوق أقاويل باطلة ويلبسها ثوب الحقائق » (٢) .

من حق الكاتب أن يتبنى فكرة ما، وأن يؤلف فيها كتابا ، ولكن لا يفرضه على أنه رواية أدبية ، الكاتب يروج للماركسية اللينينية،كما قال الدكتور الراعى بتقارير سياسية وتبناها،ورفض أى عقيدة سواها،بل قابل بينها وبين ما أسماه البرجوازية العربية الناشئة. وبينما كان يتكلم بحماس ودعائية للماركسية باعتبارها المنقذ من ظلام الحكم فى العالم العربى ؛لأن « الشيوعية سفينة المضطهدين » كان يحلم « بضرورة التحطيم الذرى لهيولى الجنين الماركسى الثانى فى رحم الأرض العربية إلى أبد الآبدين » (ص ١٦١) .

أما البرجوازية العربية الناشئة ـ كما عبر عنها فى فصل (اللويتان) ، لم تكن مثل البرجوازية التى خرجت من الإقطاع فى أوربا فى القرن ١٧ . فبينما كان اللويتان رمز الملك فى إنجلترا الذى دعمه فكر توماس هوبز ، لدعم النظام البرجوازى ضد الإقطاع ، فأعطاه حق سحق كل من يقف أمامه بموجب العقد الاجتماعى المبرم بينه وبين الشعب ، فإن اللويتان العربى لم يكن كذلك،لم يكن كملك إنجلترا،إنما هو عبد الله بن أبى ضبيعة الكلبى = هو كل حاكم عربى فى كل بلد عربى . وكما هو معلوم فكل إنسان فى عرف

(١ ، ٢) أخبار الأدب فى ٧ / ٥ / ٢٠٠٠م .

الثقافة العربية عبد الله وبذلك يكون الكاتب قد سخر من الإنسان العربى المسلم ، أما (أبو ضبيعة والكلبى) فهما مشتقان من الضبع والكلب = حيوانان من فصيلة واحدة من أكلة الجيف بصفة خاصة ،أى أنهما من الحيوانات الخسيسة فى سفولها . قال حيدر حيدر معبرا عن فكرته الكلبية : « فى ذلك الزمن الغريب الخارج بلا معقولية عن تقاويم الفصول سيحدث ذلك الشىء الرهيب المخجل للعصور والبشر ، عندما سيسقط من غبار الريح ، وفى سياق هذر الصحراء النبوية المتعارف عليها داخل العقل الإهليلجى الذى استوطن الأساطير والخرافات البدائية ، ذلك المسخ الغريب الذى سيطلق عليه رمزيا عبد الله بن أبى ضبيعة الكلبى » (ص ٤١٤)، « وبطاقة تجديد الشرق لأساطيره وحكاياته السحرية بفاعلية أشعة الشمس الحادة والامتداد الصحراوى وتناسخ الديانات الغيبية ، ستبدأ أسطورة عبد الله (ابن أبى ضبيعة الكلبى) بالتكوين والتبلور والامتداد» (ص٤١٥)، « وكما أقام الله مملكته الوهمية فى فراغ السموات ليدخل فى خلود ذاته بذاته ، سيقيم ذلك الجنرال المعتوه مملكته داخل النسيج الأرجوانى للأرض التى طوبها باسمه » (ص٤٢٦) « عصر عبد الله الكلبى ومحمد بوخروبة ، وسائر السلالة المنحطة التى جاءت بها الصحراء وحروب القبائل والمرجع الدينى » (ص ٦٨٨) .

يصور حيدر الزمن العربى ، خارج التاريخ والعقل ، بأفراده وشعوبه وحكامه وأوضاعه الاجتماعية ، مستولدا من خرافات بدائية ، من الصحراء التى خرج منها الأنبياء بزعمه خرج ذلك المسخ المرموز له بالكلبى ، والذى ظل يطارد خيال الكاتب اللاهث وراء العبث حتى آخر صفحات الرواية ، ليحكم بلاد العرب . والكلبى بتصور حيدر لم يخلق بل نشأ بطريقة داروينية بفاعلية احتكام حرارة الشمس بالامتداد الصحراوى ، فنشأت هكذا خلية الكلبى الأولى ثم بدأت فى التكوين والتبلور والامتداد حتى عمت العالم العربى فى صورة الكلبى المساوى - إن لم يكن هو نفسه - أى جنرال معتوه يقيم حكم الكلبى ، وعصر الكلبى .

وهكذا وضع حيدر الماركسية اللينينية التى آمن بها فى مواجهة البرجوازية الكلبية ، العربية ، مستعينا بالداروينية الوضعية الأوجستية ، ليقيم عالم الرواية الفاسد .

(٧)
غير المسكوت عنه فى الرواية

الرواية تستنفر من يؤمنون بالعقائد السماوية ، فبينما يقدس الكاتب تعاليم ماركس

ولينين الإلحادية ، فهم أصحاب مقولة الدين مخدر الشعوب ، يزدرى العقائد الدينية : الله عز شأنه ، والأنبياء عليهم السلام، والقرآن وتعاليم الإسلام ، وتقاليد العرب ويرى أنها غير مقدسة ، يبرز هذا فى الرواية على طول صفحاتها السبعمائة من البداية إلى النهاية فى سرد الكاتب ، وعلى لسان شخصياتها على السواء . الرواية طويلة ولا تكاد تخلو صفحة من قذائفة الموجهة التى تحمل رؤوس البذاءات إلى المقدسات ، ولأن المجال لا يتسع لذكرها جميعا ،فإنا نضع أمام القارئ بعضا قليلا منها :

١ ـ يوم انتقاله (مهدى جواد والسرد لمؤلف الرواية) إلى غرفته الجديدة أحس بفرح رغم إرشادات الحاج محمد الذى زار بيت الله ثلاث مرات (وهذه زيادة من أجل السخرية) : لا خمرة ، احذر النساء ، نحن قوم شرفاء لا نؤجر إلا للشرفاء .

« مهدى جواد غفا على ترنيمات الشيخ المأخوذ بوهج دينه . . . عندما استيقظ (يقصد أفاق من غفوته) كان الحاج محمد قد خرج مع رسله وتقواه » .

قال متجهما متوجها نحو الشرفة (الكلام للشخصية) لا بد أن بلاد المسلمين نسخة طبق الأصل من جميع مدن العرب، تحمل اسما حركيا للسيدة المقدسة مكة المكرمة»(ص٢٥).

هل أخطأ الحاج محمد الذى رمز به المؤلف لكل مسلم فى المجتمع العربى المسلم ، الذى أعلن ـ بحسب دينه وشريعته الإسلامية التى تحرم الخمر والزنا ـ شرطه على من يسكن فى بيته ـ والناس عند شروطهم . ولا نقول : (المؤمنون) ، حتى لا نتهم بالجمود والأصولية .

يسخر الكاتب من الحاج محمد المسلم المأخوذ بوهج دينه وتقواه ، كما يسخر من البلد التى آوته ويزدريها ، بل ليجد مبررا للسخرية من مكة المكرمة ؛ لأنها بلد مقدسة عند كل المسلمين لوجود بيت الله الحرام بها وقبلة المسلمين فى صلاتهم ، ووجهتهم فى حجهم واعتمارهم .

٢ ـ « سألت: ما الفرق بين العرب والإسلام ؟ هل الأنبياء مرسلون حقا ؟ من الآلهة، أم خرجوا من الأرض ؟ كيف كلم الله موسى ؟ هل عرج محمد فعلا إلى السماء كما تقول كتب الدين ؟ وإذا ما صعد الإنسان إلى القمر ما الذى يبقى من الأديان والآلهة ؟ » .

يفتعل المؤلف حوارًا ينفث فيه سموم فكره ، ويثير الشكوك فى ثوابت دينية ،ولا أحد يدرى : كيف صب هذه الشكوك فى قالب الرواية ؟ وهل كانت الرواية تحتاج إلى

التشكيك ، أو أن التركيب اللغوى أو التعبيرى يحتاج إليها ، هل حذفها يهدم البناء الفنى للرواية ؟! ثم لماذا قال : الآلهة ولم يقل: الله ، أو الإله ، أيريد أن يشكك الناس فى الله عز شأنه ، ويحوله إلى رمز كأى إله فرعونى أو بابلى أو إغريقى ؟!!

٣ ـ « لكن الزمن يبدو غادرا ورماديا وملعونا على سطح هذا الكوكب المعتم الذى خرج من ذاكرة الخالق » (ص ٨٥) قال أيضا : « داخل الأهواز التى خلقها الرب فى الأزمنة الموغرة فى القدم ثم نسيها فيما بعد لتراكم مشاغله التى لا تحد فى بلاد العرب » (ص ٢٥٧) .

جلسوا فى مقهى (مهدى ومهيار وفلة بوعناب) « وطلبوا قهوة وعصيرا وبيرة . خلال ساعة ونصف تناثر الحديث بينهم دونما ضبط أو تركيز ، شتات مبعثر قذفته الذاكرة والحضور الجماعى لأشخاص جلسوا حول مائدة ، بدا وكأنهم يهوون اللغط (الجدل) أكثر مما ينشدون الراحة والصمت ، مهيار الباهلى استأثر بالنصيب الأوفى للتنظير حول صدمة الحلم لأرض اليوتوبيا الثورية التى لم تنجز ثورتها الديمقراطية لحظة قطع العسكر سياق نموها الشعبى فقدموها لقمة سائغة لهم وللتجار والبيروقراطية والنهب الإمبريالى . وإذ حاولت (العنابية) ـ وهى ترشف العصير ـ الإشارة لأول مرة بروح إيجابية إلى التقدم الاقتصادى ومزارع الكولون التى أممت فى البنوك،والبترول والثورة الزراعية والتعريب . علا صوت مهيار بأن المهم هو الإنسان ، التأميم ليس الاشتراكية ، وهذا الذى يحدث ليس أكثر من ترقيع مزيف لا يمحو الاستلاب الجوهرى للإنسان،إشتراكية بروح العلم ، لا بروح الدين ، هذا ما ينبغى أن يكون ، كل هذا البنيان الاقتصادى ينهض على الرمل ؛ لأن الإنسان الجديد غائب ، والبلاد ما تزال تدور فى مدار سوق (الكولون = الاستعمار)» .

« وعلى نحو احتفالى ختم محاضرته : القانون الأيديولوجى أعلى من القانون الاقتصادى عندما تكون المقدمات خطأ فالنتائج خطأ ، والوعى العميق بالتاريخ غائب ، وهؤلاء يهمشون التاريخ ويعيدونه مليون سنة إلى الوراء ، فى عصر الذرة والعقل المتفجر ، يحكموننا بقوانين آلهة البدو وتعاليم القرآن . خراء » (ص ١٢٨ ـ ١٢٩) .

كيف يخرج الخلق من ذاكرة الخالق ؟! وهل يتخلى الله سبحانه وتعالى عن تدبير الكون لتراكم مشاغله فى بلاد العرب ؟! وهل حكم الإسلام هو حكم قوانين البدو ؟ وهل هذا الذى قدمه هوارى بومدين للجزائر استلاب جوهرى للإنسان ؛ لأنه فعل ذلك

طبقا لتعاليم الإسلام وليس بروح الاشتراكية العلمية « اشتراكية بروح العلم ، لا بروح الدين ، هذا ما ينبغى أن يكون » . ثم هل تعاليم القرآن خراء ؟! كما قال مؤلف الرواية .

نحن لم نجتز عبارة أو عبارات ، ونخرجها عن سياقها ، كما زعم الزاعمون ، ولكنا أوردنا الحدث كله من أول كلمة لآخر كلمة ، الكاتب يرفض إنجازات (بومدين) لأنه صاحب اتجاه إسلامى ،لا اشتراكى علمى (ماركسى) فما الذى يضيره أن يعبر عن رأيه دون افتعال عبارات الإساءة إلى المقدسات،عند ذلك سيقتنع القارئ برأيه ، أو على الأقل سيعطيه حق التعبير عن رأيه ما دام لا يسىء إلى معتقدات الآخرين ، لكنه فعل الضد مثل استنكار الحكم بتعاليم القرآن حتى لو لم يلحق به لفظ الخراء والعياذ بالله ؛ لأن استنكار الحكم بتعاليم القرآن فى حد ذاته يعد خروجا على ما يقدسه المسلمون عامة والأمة العربية التى تخاطبها الرواية بلغتها .

لقد بدت هذه الفقرة مفتعلة افتعالا شديدا فى بناء الرواية وسردها ، وكأن الكاتب أوردها متعمدا لكى يسىء إلى شأن إسلامى يقدسه المسلمون .

٤ ـ « تجذبه آسيا من شعره فيلتقى بصراهما : أنت لى ، عليك أن تفهم ذلك منذ الليلة . ويضحك . أنفها الكبير المفلطح يواجهه ، يقرص أنفها . لكن أنفك هذا سيعترض مستقبلنا . قالت : هو من صنع ربى لماذا تسخر منه ؟

قال : لا بد أن ربك فنان فاشل » (ص ٢١٩ ، ٢٢٠) .

قال الوزير فى التليفزيون تعليقا على هذه العبارة الأخيرة:« إن رب فى اللغة السورية العامة الدارجة تعنى : سيد وأب ، ورب العمل » . ولكن هل خلق واحد من هؤلاء أنفا ؟! وقالت لجنة الحكم على الرواية تعليقا على العبارة نفسها : نلاحظ على هذا المشهد ثلاثة أمور :

أولها : أنه يأتى على سبيل الدعابة وروح الفكاهة فى لحظة غزلية بعيدة عن الجد ، ومن شأن الأدب فى هذه المواقف أن يتظرف بعبارات غير لائقة ، تأتى على لسان الشخصيات الملائمة لها .

ثانيها : أن الفتاة تحاول التخلص من عيبها الخلقى بنسبته إلى ربها على الطريقة الجزائرية الدارجة ، وهو يلتقط منها الخيط ليدين تصورها لربها ، لا ربه هو ولاالذات

الإلهية »[1] .

ثالثها : (لا حاجة لنا بذكره) .

ولكن هل يعقل هذا من لجنة حكماء ! وهل غبى عليها أو جهلت ، وصف مهدى جواد محاورها لنفسه فى الرواية بأنه ملحد ، قد قال لآسيا ذات مرة وهو يرمم جثة البدوى فيه : « لكننى ملحد كما تعرفين ، الشرف والبكاء ، وأخلاق المسلمين فى مؤخرتى » (ص ٥١٠) ، فكيف يكون ملحدا بإقراره ، مؤمنا بشهادة اللجنة ؟!

ماذا بعد الإقرار يا لجنة الحكماء ؟!

ويسخر مؤلف رواية (وليمة لأعشاب البحر) من الرسول ﷺ، وهو يصور مشهدا جنسيا بين مهدى جواد وآسيا الأخضر، وقد افتعله لكى يسقط سواد نفسه على الرسول ﷺ.

« قالت آسيا : هل نمت مع فلة ؟

كان يلاعب تلال المؤخرة الحريرية وحلمة الثدى ، للتنويع ، ضحك وهو يجمعها إلى جسده ـ صح والله صح خلق الرجل للمبيت فى أكثر من عش، تلك رغبة ربنا ونبينا محمد أول المرسلين ».

وعلق السارد بهذا الكلام : « كان يتأكدها وهما على أبواب هبوب الجسد، أى عش يفضل وريث الأنبياء، الدافئ العتيق، الذى يغطيه بالأعشاب الندية، فى أوقات الحمى وهبوط الوحى » (ص ٦٠٩) .

ومثل هذا التجديف أصاب الديانات الأخرى ، المسيحية واليهودية ـ مثل :

١ ـ « أبانا الذى فى الآبار ، أبانا المذهب كنوز الشمس ، ليتمجد اسمك ، وليخلد نور بهائك الخاطف للأبصار ، وكالخشخاش (نبات الأفيون) السحرى لتترسخ بذور سلالتك المقدسة فى أعماق الأرض ، أيها القدوس الأبدى آمين » .

« ربى خذ بيدى فى مملكتى لآخذ بيدك فى مملكتك، ربى زدنى أرصدة فى الدنيا والمصارف لأزيدك ابتهالا فى الآخرة ، ربى لتكن منافعنا متبادلة ، وليتحقق القصد الذى من أجله ولدتنى ، فأكون طفلك البار على هذه الأرض الفانية » (ص ٤٢٧) .

٢ ـ « فلة التى أشعلت النيران فى العراءات تحت الزمهرير ، فلة المساوية لروح الله الجامعة هبطت كالروح القدسى فجمعت الجسد إلى النفس ، وأعادت تناسق التكوين

---

(١) نشر تقرير اللجنة (بأخبار الأدب فى ١٤ / ٥ / ٢٠٠٠ م) .

الأول بعد اختلاله » (ص ٥٩٣) .

٣ ـ « هاهما (مهدى جواد وآسيا) يخلعان القماط الأول للمهد ، إنهما يتطهران من دنس التربية المقدسة والعائلة المقدسة فى أملاح البحر » (ص ٦٣٢) .

يسخر من معتقدات مسيحية مقدسة ، ويربط بينها وبين نفط الخليج ، ويصوغ مقولة ماركس: (الدين أفيون الشعوب) فى سرده الروائى (الخشخاش هو الأفيون). كما يصوغ مقولة كارل ماركس فى أن رجال الدين الكنسى الذين مثلوا اللاهوت المسيحى تآمروا باسم الدين ضد الشعوب فقد تآمرت الكاثوليكية على الشعوب لمصلحة الإقطاع ، كما تآمرت البروتستانتية على الشعوب نفسها لمصلحة البرجوازية ، فهم يتعاملون مع الله بزعم ماركس بحسب ما يأخذون من الإقطاع ثم من البرجوازية .

٤ ـ ولم تسلم منه اليهودية فى سخريته من موسى عليه السلام . قال : « فلة بوعناب كانت نارا شخصية تراءت له بغتة فى وقت الضيق ، كما تراءت العليقة الملتهبة لموسى فى الوادى المقدس طوى . خاطبته : أنت فى الوادى المقدس فاخلع ثيابك وتقدم بغتة خلع أستاره كلها وتعرى ، اندفع فى اللهب فاكتشف الله فى جسد فلة بوعناب العاهرة المقدسة التى وطئها الثوريون والمنفيون والسفلة والخنازير ثم لفظوها » (ص ٥٩٤) .

٥ ـ « يقف على منعطف بين المرآتين وبينك ، كموسى يشق البحر مستوهما أن يقود قوما موهومين عن الموت » (ص ٥٦٥) .

ربط النبى موسى عليه السلام بعاهرة ، وقد يكون ربط الأنبياء الإسرائيليين بالعواهر موجودا فى الأدب التوراتى، ولكن عقيدة الإسلام تنزه الأنبياء عن ذلك، فهم معصومون.

ثم إنه يندفع إلى فلسفة وحدة الوجود حيث يتوحد الله فى جسد العاهرة ، وهو ما ترفضه عقيدة المسلمين .

كذلك يسخر مما ورد فى القرآن الكريم فى حرب موسى عليه السلام لفرعون ومساعدة الله عز شأنه لنبيه موسى عليه السلام فى معجزة شق البحر. ويزعم أنها كانت وهما توهمه موسى لا حقيقة ، هل هناك ذنب بعد سخريته من المقدسات الدينية عند الأديان الكبرى؟!

(٨)

الجنس فى الرواية وصورة العرب فيها

ما العرب ؟ وما الإسلام ؟:

هذا السؤال طرحه حيدر بصيغة أخرى فقال : « ما الفرق بين العرب والإسلام ؟ » (ص ٣٥) ثم أجاب عليه إجابات تروق له فى الصفحات التالية فى مواضع متفرقة من الرواية . فى مثل العبارات الآتية :

١ ـ « الإسلام وحد العرب ، لكن لم ينشد الاشتراكية » (ص ٥٤٩)، وكأنه يزعم أن الإسلام وحد أقواما بلا جدوى ؛ لأنه لم يحقق لهم الاشتراكية .

٢ ـ « رسمت الخرائط والخطوط السرية لتحركات الجيوش والخلفاء ، والجنرالات للحفاظ على هيكل ذلك العالم المقدس ، هيكل الوحش الصحراوى العائم فوق بحار البترول ، والتعازيم الخرافية للدين الحنيف » (ص ١٦١) فكأن الدين ، وكل الفكر العربى من أجل الحفاظ على ثروات تنعم بها طبقة الحكام دون شعوبها .

٣ ـ « فى ذلك الزمن الغريب الخارج بلا معقولية عند تقاويم الفصول ، سيحدث ذلك الشيء الرهيب المخجل للعصور والبشر،عندما سيسقط من غبار الريح ، وفى سياق هذر الصحراء النبوية المتعارف عليه داخل العقل الإهليلجى الذى استوطنته الأساطير والخرافات البدائية ، وذلك المسخ الغريب الذى سيطلق عليه رمزيا عبد الله بن أبى ضبيعة الكلبى » (ص ٤١٤) .

٤ ـ « العرب ليسوا شيئا فى حساب العالم » (ص ٥٤٣) .

هذه صورة الإسلام والعرب ، والحكومات العربية ، والحكام العرب كما صورتها الرواية وفى مقابلة هذا التصور يضع تصوره للغرب .

يبدأ بالرغبة فى إفناء الماضى إفناء ضرورة . قال على لسان مهدى جواد : « فى تلك الليلة تحدث عن تحطيم الأوثان التى بناها الآباء والأجداد ، وضرورة الانفصال عن الدين والله والأخلاق ، والتقاليد والأزمنة الموحلة ، والجنة والجحيم الخرافيين ، وطاعة أولى الأمر والوالدين والزواج المبارك بالشرع وسائر الأكاذيب ، والطقوس التى رسمتها دهور الكذب » (ص ٣٤٨)، فهل سمع حيدر عن حضارة أو ثقافة ، أو نهضة قامت بلا جذور ،ألم يعلم أن لا شيء يؤرق الولايات المتحدة أكثر من أنها بلا جذور؟!

بقدر ما تتباهى بلد كمصر بأرومتها ، وكرم محتدها . إذا تخلص العرب من تراثهم فماذا يبقى لهم ؟ ولم لا نجعل هذا التراث أساسا قويا وقاعدة راسخة لبناء عظيم الأركان ؟ !

ويضع حيدر - على لسان آسيا الأخضر وأختها منار - العربى الذى تربى على قيم عربية فى مرتبة دون نظيره الذى تربى على قيم فرنسية مثل مجيد بلقاسم ،وكانتا تعرفانه قبل مهدى جواد . مجيد بلقاسم صنو الحرية ، والحضارة الساطعة؛لذلك تهتف الفتاة : « يحيا الحب والحرية، تحيا الحضارة الغربية الساطعة كالشمس ، العرب ليسوا شيئا فى حساب العالم » (ص٥٤٣)، « العرب منغلقون كالسلاحف » (ص ٥٤٢)، و« بلاد العرب حظيرة الخنازير » (ص ٦٢٧) .

الكاتب يسخر من الأخلاقيات العربية والإسلامية ، ومن عادات العرب المنبعثة من تعاليم دينهم ، يقول على لسان الفتاة عن لقائها لأول مرة بمجيد بلقاسم : « مرة واحدة التقينا ، ورغب فى أن ينام معى . هزئ منى لأننى مازلت عذراء ، قال مجيد بلقاسم الجزائرى المتفرنس : الفتاة الفرنسية تخجل من عبء الغشاء (غشاء البكارة) ترى فيه رمز غبائها وتقدمه بنشوة لأول صديق ينام معها ، أما الطفلة الخرقاء (الفتاة العربية) ما تزال تغتسل بحليب أمها الأول وتنام بين ذراعيها الحميمين . . . المهم أن تخرج من حظيرة الحلاليف الحرية الحرية هذا هو ربى » (٥٤٦) .

يبدو أنه يجهل الكاثوليكية والتزامها ويتخيل الكاثوليكيات فى فرنسا وإسبانيا وإيطاليا مثلا وقد تحولن إلى عاهرات إنه لا يعرف أنهن لا يزلن يحتفظن بتعاليم الكاثوليكية ، وما تخاطب به المرأة،ولا يخرج عن تعاليمها إلا الخرقاوات المنحرفات .ثم هل الخرقاء ، هى التى تتمسك بأهداب الفضيلة وتعاليم دينها تصون نفسها أم التى تغرق فى عهرها ؟ هل المجتمع الإسلامى حظيرة الخنازير (الحلاليف) ومجتمع العهر والشذوذ ؟ يبدو أن الكاتب يجهل طباع الحيوان ، ويجهل أن الحلوف (الخنزير) الذى يعايش الكاتب حظائره ، هو الحيوان الوحيد فيما نعلم الذى لا يغار على أنثاه ، إذا اعتلاها حلوف مثله أمام ناظريه ، وهكذا كل الحلاليف .

المسألة لا تقف عند حدود الدياثة ، بل تتعداها إلى محو الوطنية ، وكأنه تشبع بغريزة حلوف فى هذه الناحية أيضا : « فبينما مجيد بلقاسم ينام طى أفكاره اللاوطنية ، يكون مهدى جواد فى السطح المقابل ويتقدم الجسد » (ص ٥٤٦) .

فإذا كان الحديث حول الثقافة والحضارة فهذه رؤية حيدر للثقافة العربية ، التى يبغضها حين يقول على لسان منار الأخضر : « إن الأوربيين عفويون وأكثر صدقا مع

الحياة منا ، وأقل تعقيدا ، يعبرون عن أحاسيسهم ببساطة وحرية ،أما العرب فمتعصبون محكومون بشروط التقاليد الموروثة ، إنهم ليسوا أحراراً من الداخل » (ص ١٥١) .

وتبدو العنصرية فى ذروتها عندما تصطحب آسيا الأخضر مهدى جواد إلى مطعم « كان خصوصيا وأنيقا ، ومحرّما على الرعاع العرب » (ص ٥١٢) .

كانت عندما تدخله لا تتكلم العربية ، تتكلم الفرنسية فقط لتبدو للنادل فرنسية . وحينما كانت آسيا تقول بحدة : « لماذا يكون الفرنسى من جنس الملائكة، والعربى من جنس الشياطين ؟ كانت منار شقيقتها ترد بثقة : لأن الأمور هكذا فى الواقع . ألا ترين الجزائريين الحلاليف كيف يفكرون ويعيشون،العرب كلهم خماج رؤوسهم بين أفخاذهم» (ص ٦٢٨) .

صورت الرواية العرب القادمين للجزائر من أقاصى بلادهم « لهتك الأعراض ، وتفريغ الشهوة ، بدلا من تربية الأجيال الصاعدة » (ص ٦٦١) .

لقد أوجز دكتور جابر قميحة تصوير حيدر لمثالب العرب فى روايته فى « النهم الجنسى والسكر والعربدة ، وإهدار الوقت والاستهانة بقيمته ، والغباء والانغلاق ، والنهم المادى الذى يدفعهم إلى النهب والقتل والأكاذيب ، وضياع المكانة العالمية » (١) . ويتساءل د . جابر قميحة: ما الفرق إذن بين ما كتبه حيدر فى وليمته عن العرب ، وما كتبه الكاتب الصهيونى (سى يزهار) عن العرب فى قصته (خربة جزعة) قال:« العرب القذرون المتسللون لإحياء نفوسهم القاحلة فى قراهم المهجورة ، أى دخل لنا ولشبابنا وأيامنا بقراهم المقملة المبققة والمقفرة والخانقة ؟ هذه القرى الخاوية سيأتى اليوم الذى تبدأ فيه الصراخ » (٢) .

« ومن حقنا أن نسأل: هذه النصوص التى جاءت على ألسنة شخصيات خيالية أو مخترعة فى تضاعيف السرد ، ألا تعكس مذهبية المبدع الصهيونى ؟ ثم هل تختلف مضامين نصوصه عما جاء فى نصوص الوليمة » (٣) .

المصريون :

وللمصريين عند حيدر مقام غير رفيع،بدأ من تصويره للحكام إلى المواطن العادى.

(١ـ ٣) د . جابر قميحة ـ صحيفة آفاق عربية فى ٢٥ / ٥ / ٢٠٠٠م ـ أيضا بحث د . محمود حميدة : الشخصية العربية فى القصة العبرية المعاصرة ـ مجلة عالم الفكر ـ الكويت مجلد ٢٤ العدد ٣ يناير ١٩٩٦م.

١ ـ يقول : « فى العراق وسوريا ومصر وسائر بلاد العرب لا يوجد غير السلب والنهب والقتل والأكاذيب. الحكام العرب حلاليف وطغاة وأعداء لشعوبهم » (ص١٥٣).

٢ ـ مرسى المدرس المصرى بالجزائر قالت عنه فلة بوعناب : « بعد أن يشرب النبيذ والحشيش كان يتحول إلى منشد شعبى ، وهو يضاجعنى حتى الصباح » (ص ٢٠٦) .

« كانت فلة بوعناب فى غمرة نشوتها تروى للمرة الألف كيف بكى مرسى الولد المصرى فى فراشها ، ثم كيف لعق بظرها بطريقة صبيانية تشبه امتصاص الثدى، بعد أن بكى نام بين ساقيها أنهضته وطوقته بذراعيها ، طول الليل كان يهذى بأنه إنسان ضائع فى الدنيا، تافه ومنبوذ » (ص ٤٥٤)، « أخذت شيئا من دمه وأعطيته حنانا » (٤٥٥) .

حتى فى عالم الدعارة ينفث كراهيته للمصرى ، ويصوره مريضا فى نفسه . وهنا تظهر إسقاطاته؛ لأن المصرى متفوق على نظرائه فى العلم والفكر والعمل ، وأمثال حيدر لا يتفوقون إلا فى مجالات التزلف والنفاق ،والالتفاف . ومن هنا كانت إسقاطاته فالمصرى يتفوق عليه فى الواقع ، ولقد شهدت بذلك كل بلاد العالم العربى ، بأن المدرس المصرى يعلو على كل نظرائه . وبالتأكيد كان مرسى المدرس المصرى يفوقه فاتهمه وكل المصريين بالبخل قال : « المصريون البخلاء الذين يعيشون على الفول والطعمية يجمعون الدينار فوق الدينار ليشتروا السيارات » (ص ٦٣٤) .

حتى صوت أم كلثوم كان يشعره بالضيق لأنه آت من أعماق النيل قال فيه: « صوت عجيب لمغنية جهيرة الصوت آت من أعماق النيل ، صوت يكثف الصمت الثقيل، وأذان بطىء يرتفع داعيا للصلاة يمازجه ضجيج الأحذية العسكرية الأصم ، ويقطعه ذهاب سجانين مستوفزى الأعصاب » (ص ٣٢٢) .

ما رأى لجنة الحكماء ، فى هذا الإبداع الذى شتم مصر من الحاكم إلى مرسى لاعق بظر فلة بوعناب ، وصوت أم كلثوم الممتزج بصوت الأذان ، الذى يمثل فى مسامع أمثاله أنكر الأصوات لأنه ينادى إلى الصلاة ، والوقوف بخشوع بين يدى الخالق سبحانه وصوت أحذية العسكر بشوارع بونة الجزائرية .

ما رأى لجنة الحكماء التى زعمت أنها وحدها التى فهمت الرواية دون العالمين ، وأوصت بإعادة نشرها قائلة: « إن إعادة نشر هذه الرواية لا يمكن أن يعد مساسا بالدين ، ولا يجوز محاكمتها من منظور غير أدبى ، وما قيل عنها فيه تجن كبير عليها ، وتحريف

لمواضعها ، وتجاهل لقيمتها الفنية المتميزة » [١] .

وقديما قالوا : إذا لم تستح فاصنع ما شئت . شفى الله اللجنة ، آمين .

يبدو أن اللجنة تورطت ، ولم تقدر على التراجع ، أو الاعتراف بالخطأ فتعتذر ، ولكن كبر الخطأ فى رأسها ؛ ولأنهم يزعمون أنهم علماء أفذاذ سارعوا فاتهموا غيرهم بالجهل بالأدب السوقى وعدم فهمه ، وكانوا على شىء من الحق فهم أقدر الناس على فهم هذا النوع الأدبى الحيدرى الحيدرى مرتين .

الأمر جد مختلف عما كان عليه فى عصور الحرية الفكرية ، يوم لم تكن الثقافة مؤسسة حكومية ، « يوم لم تكن هناك مؤسسات حكومية وغير حكومية تضبط البوصلة الثقافية على اتجاه بعينه » [٢] .

كانت الحياة الثقافية فى مصر تظلها الحرية ، فى ظل تعددية ثقافية ملتزمة ، يوم أن كان لكافة التيارات الثقافية صوت يميزها ، وفى الوقت نفسه يحترم الأصوات الأخرى يوم لم يكن صوت ينبذ صوتا آخر ، أو يسخر منه أو يحجر عليه ، أو يعتدى على ثوابت الدين والأخلاق ومثل المجتمع العليا ، مما أثمر ازدهارا للحياة الثقافية ، وانعكس ازدهارها على الحياة السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية بصفة عامة .

(٩)

لغة الرواية

اللغة العربية لغة رفيعة المقام بين لغات العالم ، ارتبطت منذ نزول الوحى بالقرآن الكريم ، والدين الإسلامى ، وثقافة المسلمين . ولكنها لم تجد من كاتب رواية (وليمة لأعشاب البحر) إلا الازدراء والإهانة،حتى بدت فى الرواية وكأنها مسخ لغوى متعمد .

لقد اعترف العالم كله بأهمية اللغة العربية لغة ثقافة وحضارة من أهم حضارات العالم وثقافاته ، فدرسوها فى أهم الجامعات فى العالم المتمدن ، وتم اعتمادها لغة من لغات الأمم المتحدة ـ مثل الإنجليزية والفرنسية ولكن الكاتب مع هذا لم يقدم لغة عربية راقية ، بل قدم أنماطا من السباب والبذاء غير المسبوق فى اللغة العربية ، وغاب عنه الاستخدام الراقى لها ، ذلك الاستخدام المبنى على العلم والخلق القويم والسعى إلى

---

(١) نشر تقرير اللجنة بأخبار الأدب فى ١٤ / ٥ / ٢٠٠٠م.

(٢) جمال بدوى ـ صحيفة صوت الأزهر فى ١٤ / ٧ / ٢٠٠٠ م .

المعانى النبيلة التى ترقى بالأخلاق العامة للمجتمع . ولقد بانت المأساة فى استخدام الكاتب حيدر حيدر للغة سوقية لا تصلح نمطا للتفكير الصحيح ، الذى ترقى به اللغة العربية ، فى السرد أو إدارة الحوار بطرق إيجابية بناءة .

ولقد ألحق الكاتب بلغة الرواية أكبر إساءة للغة العربية ، فلم يعر عفتها اهتماما وحولها إلى لغة سوقية مقززة حافلة بالبذاءات . ومن ثم يجب تنبيهه إلى أن اللغة يجب أن تكون أداة لإظهار الأمة فى ذروة ارتقائها الثقافى والحضارى ،وأن يدرك دورها فى صنع رقى الأمة وحضارتها . ولكن مما يدعو للأسف فإن حيدر حيدر ألحق بالسرد الروائى ، وحوار الشخصيات ، ما يذكرنا بالخطاب الشمولى التقاريرى الحزبى ، بكل فجاجاته ، وتسلطه ، وكأنه يريد أن يدفع الناس دفعا إلى الخروج على نظمهم السياسية والاجتماعية ، كما يدفعهم إلى البطش والتسلط وقتل القيم .

لقد قدم لغة مهدرة بلا ضوابط ، يخرج أداؤها على النظام العام للغة الراقية ، كما يخرج على قيم المجتمع العربى الإسلامى .

الفصل الثانى
الثقافة والصحافة والقراءة والنقد
وصك البراءة والأزهر الشريف والزيتون

الثقافة والصحافة والقراءة والنقد وصك البراءة والأزهر الشريف والزيتون

(١)

لقد صارت الثقافة وزارة ، فيها مجلس أعلى يطلق عليه المجلس الأعلى للثقافة ، وصارت ثقافة وزارة الثقافة ومجلسها الأعلى كالكابوس ، الذى جثم على صدور الناس فقطع أنفاسهم ، ثم إنه لم يبدع نوعا من الإبداع ، ولا يكاد يفعل إلا ترديد عبارات غير مفهومة حول لفظ إبداع ومبدعين ، ولفظ ثقافة ومثقفين دون ما إبداع أو بيان ، حتى أصابوا منابع الإبداع بالجفاف ، وكأن من افترض فيهم أن يكونوا مبدعين قد أصيبوا بالعقم ، وانقلبت الهيئة التنويرية العصفورية إلى جلبة ببغائية ، اقتصر دورها على التكرار الببغائى تارة باسم الحداثة ، وتارة باسم التجريب ، وتارة باسم التنوير ، واختلطت الأمور اختلاط الحابل بالنابل ، ولم يعد أحد يعرف ماذا يقصد بالحداثة أو التنوير الذى يدور دوران الخذروف على كف الصبيان . ولم يعد أحد يعرف ما يقصدون بالتنوير أو الحداثة.

إن مثقفى الشعوب يسيرون بشعوبهم إلى الأمام ، ولكن هؤلاء لا يعرفون طريقا مستقيما يسيرون فيه ، والويل كل الويل لمن لا يتبعهم فى التيه العظيم ، فهو يواجه الاتهام بالجمود والتخلف والإظلامية والإرهاب ، والخلاصة إما أن تكون معهم فى مسيرة الهباء ،حيث (وليمة أعشاب البحر العفنة)،وإلا تتحول الثقافة إلى تحريض تكال فيه كل التهم الممكنة أو غير المعقولة .

لقد ازدهرت الثقافة عندما كانت ثقافة بدون وزارة ومجلس أعلى يضبط بوصلتها على اتجاه محدد لا تحيد عنه ـ منذ القرن ١٩ إلى سنة ١٩٥٢ وكان من ثمارها : رفاعة الطهطاوى ،وعلى مبارك ،ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ،وأحمد شوقى ،وحافظ إبراهيم ، وخليل مطران ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، ومصطفى صادق الرافعى، ومحمد حسين هيكل ،وعباس محمود العقاد ، وطه حسين ، وأحمد حسن الزيات ، وأحمد أمين ،وحسن البنا ، ومن المخضرمين : زكى نجيب محمود ، وعبد الرحمن

بدوى ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، ونجيب محفوظ ، وشوقى ضيف . ومع تباين منابعهم الثقافية من الأزهر الشريف ، والجامعة المصرية ، والاجتهاد الشخصى ، فى مجالات الأدب والفلسفة والإصلاح والسياسة ، فقد أثروا الحياة الثقافية ، وتضافرت جهودهم فى إعلاء صوت مصر والعرب والإسلام واللغة العربية .

إن توجيه البوصلة إلى اتجاه محدد وحيد ، وعدم قبول غيره ، وقتل ما يضاده لا يساعد على التقدم الإبداعى والثقافى. بل إن قتل الضد يؤدى إلى إضعاف التيار السائد نفسه ؛ لأن قتل الضد يجعل التيار الموجّه تيارا ضعيفا ينمو نمو الطفيليات غير القادرة على الحياة السوية .

لكن دعنا من ذلك لنطرح السؤال التالى : من الذى لفت الأنظار إلى تهافت رواية (وليمة لأعشاب البحر)،ومن الذى أثار الضجة حولها ؟ كان السبق فى إعلان خبر (وليمة الشيطان) لصحيفة الأسبوع لصاحبها ومديرها ومحررها مصطفى بكرى الهمام . كانت صحيفة الأسبوع أول من أعلن خبر (الوليمة الفاسدة) وما احتوت عليه من سفول فكرى،وتدن أخلاقى،بدون قيمة إبداعية . ولأن مصطفى بكرى صحافى حر ، ومثقف غير مزيف ، فقد أعطى لأنصار حيدر صاحب (الوليمة) حق الرد فى صحيفة الأسبوع نفسها ، وكان ردًا قاسيا بعيدا عن قواعد الأدب والنقد المتعارف عليها .

كان من الممكن أن تنتهى إشكالية (وليمة فاسدة) عند هذا الحد ، فلا تتجاوز صفحات صحيفة الأسبوع ، ويقضى على الزوبعة فى بدايتها قبل أن تعصف عاصفتها، لكن الدكتور محمد عباس رأى غير ما رأى الناس فأثار العاصفة من جديد،وأشعل نارا، وهيج مجتمعا وصارت(الوليمة) ، قضية ،ثم تحولت إلى أزمة كادت تحدث فتنة ، لولا حصافة مجلس الشعب الذى عالجها بفطنة وكياسة عن طريق لجنته الدينية ، ثم برفعها إلى الأزهر الشريف مرجع الأمة الدينى ، والحكم فى الشأن الإسلامى .

ومن البداية كان من الممكن أن يتعامل معها الدكتور محمد عباس بالحسنى ، ولكنه بأسلوبه التهييجى نشر فى صحيفة الشعب فى يوم الجمعة (٢٨ / ٤ / ٢٠٠٠) مقالا صاخبا بعنوان : « لا إله إلا الله من يبايعنى على الموت ـ تبت أيديكم ـ لم يبق إلا القرآن ، ماذا لو قلنا : إن رئيس الوزراء خراء » ، فى مقال طويل صاخب استغرق الصفحة الأخيرة كلها من الصحيفة ، وقسما كبيرا من الصفحة العاشرة .

وكان العنوان الرئيسى للصحيفة نفسها : « يا شعب مصر اغضب فى الله ، شتائم

سافلة لله والقرآن ، والرسول ﷺ فى كتاب أصدرته وزارة الثقافة ، الكتاب يصف القرآن بـ (الخرا)، والله بـ (الفنان الفاشل)، والرسول بـ (المزواج) ـ ما رأى شيخ الأزهر والمفتى وعلماء المسلمين فى نشر الكفر البواح بأموال الشعب » .

وهكذا وقعت الواقعة ، وما أدراك ما الواقعة ، التى عصفت بكل شىء ، وأظهرت الرجال الجوف من كل التيارات ، بما يكنه كل تيار من رغبات شريرة مكبوتة للآخر ، ومدى ما أفرزه الكبت المذهبى (الأيديولوجى) فى صدور من امتهنوا الفكر غير الناضج ، وتعاطوا الثقافة المريضة ـ الكبت الذى بثوه سموما وعللا وصديدا على صفحات الصحف والمجلات المصرية .

كان على الدكتور محمد عباس ألا يتجاوز حدود سوءات (الوليمة العفنة) وتبعاتها، ولكنه هاجم الشخصيات ، وشأن الشخصيات مصون فى العرف العربى ، ولهذا خسر القضية وخسر محبى الحقيقة . فقد هاجم ـ بحسب قوله ـ أولئك الذين تستنبتهم وزارة الثقافة فى صوباتها ، كما تستنبت وزارة الزراعة الخيار المسموم ، واحد من أولئك المصنعين سابقى التجهيز تستنبتهم من العدم وإلى العدم ، ولكن جوائز وزارة الثقافة تقتصر على أمثالهم « . . . إن الوزارة التى سمحت لمثل هذا الكتاب أن يصدر لابد أن تنسف نسفا ، بكل هيئاتها ومؤسساتها » [1] .

ثم كان رد وزارة الثقافة بكل أجهزتها المعاونة من مجالس وصحف ومجلات ، وابتعد الجميع عن الموضوع الأساسى (الوليمة الشيطانية) التى وسوست فى صدور الناس جميعا ، وانتهى الأمر بإعلان حرب صريحة على ما أطلق عليه « التيارات المتجمدة » التى لا تفهم قراءة الإبداع ، وقد بدأت من جانب هؤلاء قلقة بغير اتزان ، كما بدأها محمد عباس وصحيفة الشعب بغير اتزان ، وكان على جميع الأطراف أن يتعاهدوا على كلمة سواء ، تنير لهم الطريق ، وتوصلهم إلى الحقيقة .

كان على أبو شادى رئيس هيئة قصور الثقافة ناشرة الرواية أول فرسان الحلبة قال : نشرت الرواية فى « إحدى السلاسل المهمة التى تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة ، تختص بإعادة نشر الكتب المتميزة لمؤلفين عرب ، يتمتعون بقيمة إبداعية عالية فى المحيط العربى والعالمى» [2] ،وهذا تصريح صريح بأن مؤلف الرواية مؤلف متميز ،وأن الرواية

---

(١) صحيفة الشعب فى ٢٨ / ٤ / ٢٠٠٠ م .   (٢) صحيفة الشعب فى ٢ / ٥ / ٢٠٠٠ م .

قيمة إبداعية عالية .

كانت صحيفة الشعب نشرت مقالا لأبى شادى دفاعا عن الرواية ومؤلفها فى (٢ / ٥ / ٢٠٠٠) وفى اليوم نفسه أصدر وزير الثقافة بيانا ، استبان منه أنه لم ينسق مع أبى شادى قبل إصداره ، ومن ثم فقد تضاربت تصريحات مسؤولى وزارة الثقافة ، حدث هذا فى البداية قبل تنظيم الصفوف وإعداد العدة والتنسيق بين الأجهزة قبل توجيه الضربة إلى كل التيارات التى وصفوها بالجمود والردة الثقافية ، والجهل بالإبداع .

أصدر وزير الثقافة بيانا (فى صحيفة الشعب ٢ / ٥ / ٢٠٠٠) و(الأهرام ٥/٥/ ٢٠٠٠) وجاء فيه أن الوزير شكل لجنة برياسة (شيخ النقاد المصريين) الدكتور عبد القادر القط لمعرفة رأيه فى الرواية ، كما صرح الوزير فى البيان نفسه بأن الرواية مسحوبة من الأسواق المصرية من منتصف نوفمبر ١٩٩٩م ؛ أى بمجرد صدورها عن إحدى مؤسسات وزارة الثقافة .

وفى مساء الاثنين (٨ / ٥ / ٢٠٠٠) فى أثناء قراءة نشرة أخبار الساعة التاسعة ، ظهر الوزير فى بث مباشر على شاشة التليفزيون بالقناة الأولى ليصرح بتصريح شفى صدور الناس ومما جاء فيه :« إن الرواية تصدر من سنة ١٩٨٣ فى طبعات عربية ، وفى مصر الآن لا توجد نسخ منها فى السوق ، لقد سحبت من السوق ، وستشكل لجنة من علماء ونقاد ، وعلماء دين تدرس الرواية من كل جوانبها خاصة الجانب الإبداعى ، وما يتصل بالدين ، وستكتب تقارير مفصلة تساق بتقرير عام . نحن لا نقبل التطاول على الدين ، أو خدش المجتمع ، وسيتحدد موقف نحو الرواية بعد تقرير اللجنة » .

لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، ولو أنه انتهى بحسب ما خطط الوزير لانتهى بسلام وكانت وزارة الثقافة قد أدت ما عليها ، وأغنت الناس عن كل ضوضاء ثارت فيما بعد حول الرواية ، فقد أخذت أجهزة الوزارة تعزز رأى أبى شادى ، وتجزم بأن الرواية من الأعمال الإبداعية المهمة فى الرواية العربية الحديثة . قال أبو شادى : « الكاتب (حيدر) قد نيف عمره على الستين سنة ، ومازال يكتب حتى الآن ، ولم تصادر مقالاته أو كتاباته أو رواياته خاصة (وليمة لأعشاب البحر) فقد صدرت لها طبعات عديدة فى العالم العربى ، ويتم توزيعها حاليا فى طبعتها السورية ، وطبعتها اللبنانية فى مصر توزع من خلال دار روز اليوسف وغيرها من المكتبات » .

لا يملك أحد أن يتهم أبا شادى بالكذب ، ولكن ما القول فى إقرار مؤلف الرواية

نفسه حيدر حيدر ردا على سؤال وجه إليه من محررة أخبار الأدب فى (٧ / ٥ / ٢٠٠٠) .

قالت : أنت مشهور بجرأتك على الاقتراب من المحرمات الثلاث : الدين والسياسة والجنس ،هل أدى ذلك إلى المعاناة من رفض المجتمع ومحاربته لك ؟

قال: « لقد دفعت ثمن هذا كثيرا فقد تم منع قصصى وروایاتی وعلى رأسها (وليمة لأعشاب البحر) التى تم منعها من الدخول إلى معظم البلاد العربية لمدة ١٢ سنة . وروايات أخرى سببت لى حساسيات مع المؤسسات الاجتماعية ، وانعكاسات وانتقادات قاسية ، ووصلت المسألة إلى حدود التهديد حيث كانوا ينذروننى قائلين : لو عدت إلى الاقتراب من المقدسات فسوف تكون هناك عقوبة بانتظارك . لقد عشت فى بيئة تحاربنى على المستوى الدينى، ولا يقولون: إننى علمانى وعقلانى وتنويرى، بل يقولون: ملحد».

وهكذا تفجرت التناقضات: الوزير يظهر مدافعا عن الدين،وعن التقاليد الاجتماعية الراسخة، والمسؤول عن نشر الرواية على أبو شادى يدافع عنها وعن مؤلفها، والمؤلف لا يخفى اتهامه بالإلحاد لجراءته على المقدسات الثلاث : الدين والسياسة والجنس . كما اعترف بأنه « محل شبهة فى كل بلاد العالم العربى » [1].

وصدر بيان الوزير ، بيان مهم لأنه صادر من مكتبه ، يتضمن أربع نقاط :

١ ـ إن الوزارة ستشكل لجنة للتحقيق فى ملابسات ما نشر حول رواية (وليمة لأعشاب البحر) وصحته .

٢ ـ إن اللجنة ستكون من خمسة من أعضاء المجلس الأعلى للثقافة .

٣ ـ إن الرواية مسحوبة من الأسواق المصرية من منتصف نوفمبر ١٩٩٩م.

٤ ـ إن الرواية توزع عن طريق المكتبات منذ عشر سنوات فى طبعاتها السورية واللبنانية.

وهكذا بدأ الوزير ـ بعد التنسيق مع أجهزة الوزارة ـ يقترب من رؤية الأجهزة، ويشارك فى رؤية عامة موحدة لموقف الوزارة بكل أجهزتها من الرواية . حتى بدا الأمر يتلخص فى اتفاق وزارة الثقافة بجميع مؤسساتها على إصدار « صك براءة » يبين أن الوزارة لم تجنح إلى الباطل بنشر رواية (وليمة لأعشاب البحر) ،ولكن العيب فيمن لم

---

(١) أخبار الأدب فى ٧ / ٥ / ٢٠٠٠م ، وصحيفة الأيام فى ٤ / ٦ / ٢٠٠٠م .

يتعلموا قراءة الإبداع .

وصك البراءة يحتم أن يكون الآخرون هم الخطاؤون غير التوابين ،غير المتطهرين من دم الثقافة والتنوير المفترى عليهما . وهذا الاتهام الموجه إلى هؤلاء الخطائين - فى شكل تقرير لجنة علمية تفهم وحدها دون العالمين كيف تقرأ الأدب وتقيم الإبداع - يحتم على اللجنة أن تملأه بالافتراءات والمغالطات مثل قولهم: إن حيدر مبدع كبير ،وأن الوليمة ليست عفنة ، بل من الأعمال ذات القيمة الإبداعية الراقية . والزعم بأن رواية الوليمة تنتشر فى كل بلاد العالم العربى ،وأنها وجدت قبولا من القراء الذين يفهمون الإبداع ، سرى فى أبدانهم ونفوسهم ، سريان النار فى الهشيم ، أو كأن الشيطان مسهم بمس وليمة حيدر الشيطانية التى فاقت فى إبداعها (أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ ، و(آيات شيطانية) لسلمان رشدى .

ولكن هل يعقل عاقل أنها وجدت قبولا فى المملكة العربية السعودية ، البلد التى تضم مكة المكرمة وفيها بيت الله الحرام الذى كال له حيدر صنوف الشتم والاستهزاء ، أو الجزائر التى صورها حيدر مثل ماخور بغاء سفلى ، أو العراق الذى نال حكامه من السب ما لم ينله غيرهم من حيدر حيدر ، أو سوريا نفسها التى وصف حيدر حاكمها زمن كتابة الرواية بأنه أحد الحلاليف الذين يحكمون العرب ، والذين لا هم لهم إلا القتل والسلب والنهب وإذلال شعوبهم ؟! وقل الشىء نفسه فى أغلب البلاد العربية ، ولو أن التقرير قال : إن الوليمة تنتشر من قبرص مثلا لصدق الناس التقرير أو حتى من إسرائيل ؛ لأن كل شىء مباح فى مثل هذه الأماكن بدءًا من الدعارة إلى المخدرات ، دون أن تشغل بالها بقضايا العرب ، وتوجهاتهم العقدية والأخلاقية . أما حيدر حيدر نفسه كمبدع فهو معروف فى نطاق ضيق ، ويكاد يكون غير معروف بالمرة ، ولولا وزارة الثقافة المصرية ما شعر به أحد ، مع أن أبا شادى عفا الله عنه وغفر له قال فى دفاعه عنه : « إن الكاتب يصور شخصيات متدينة وملحدة ، ويصور هذه الشخصيات بكل الصراحة ، ولو كانت مدانة أو مرفوضة ، وتلك هى طبيعة عملية الإبداع الفنى ، والكاتب يقوم بتصوير الواقع ، ولو كان الواقع لا يعبر عن رؤاه الشخصية » .

وهى تعلة تعلل بها المدافعون عن حيدر بعد أبى شادى ، فزعموا أن المبدع ترك الشخصيات تتحدث عن نفسها ، ونسوا قضية الالتزام - التزام الكاتب بالعمل المبدع . وقضية الالتزام كانت قضيتهم كما كانت هدفا لهم يوما ما ، يوم حملوا راية أدب

الواقعية الاشتراكية ، هم أنفسهم ولا أحد غيرهم، وبذلك أكدوا أنهم مبدعون لكل العصور والمراحل الاشتراكية والحداثية من سنة ١٩٥٢ حتى زمن حيدر فهم مبدعو الاشتراكية ، ومبدعو الانفتاح ، ومبدعو الحداثة. إنهم تناسوا على حين غفلة أن الكاتب هو الذى يأتى بالشخصيات ، ويصنعها على عينه ويوظفها فى أدوار بعينها لأنه أراد أن تمثل شيئا وواقعا،وأنطقها من مخزونه الفكرى والعصبى والنفسى،ومن تجاربه الحياتية ، ومن توجهه العقدى الذاتى .

وأغرب ما قاله على أبو شادى فى دفاعه : « وفى التوراة دائما ما يتم تشخيص الله على صورة إنسان يمشى بين البشر ، بل يتصارع (صراع الله مع يعقوب)». وهل كنت تنتظر يا أبا شادى أن يصور الله ،كما صوره مزيفو الأدب التوراتى يصارع يعقوب (إسرائيل) وأن يقول حيدر ما قاله اليهود فى نصهم المزيف أن إسرائيل انتصر على الرب ، وهل هذا مثال تدعو لحذوه يا على ؟ وهل تقبل أن تزيف نصا دينيا إسلاميا ؟ وما قولك فى قول حيدر :« أقام الله مملكته الوهمية فى فراغ السموات » (ص ٤٢٦) والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٨٩] وماذا تقول فى قول حيدر : « وخلع الجلد المتخلف البالى الذى خاطه الإسلام فوق جلودنا القديمة » (ص ٥٤٠) .

كبرت فرية أن يقول الدفاع : « إنما هى بمقياس الإبداع لا تعتبر إلحادا . . . ولم ترد كلمة واحدة على لسان المؤلف تدل على موقف معاد للدين الحنيف» .

أما الحكم عليه بالإلحاد، فيقضى به قضاة عدول من هذه الأمة، أما إنها غير معادية للدين الحنيف ، فقولك مردود بقول الأزهر الشريف : « إن كل ما جاء بها يعد خروجا على معلوم من الدين بالضرورة » .

ثم شكلت لجنة الحكماء الخمسة لتقول رأيها فى الرواية ، وليتها سكتت عن الكلام غير المباح، فقد جاءت فكرة للجنة ورأت أن تعلنها لعلها تخرجها من مأزقها ،وهذه الفكرة تخترع تقسيم القراء إلى نوعين: القارئ المتمرس بقراءة الأعمال الإبداعية، وقارئ غير متمرس. الأول: يفهم مرامى الإبداع ،والآخر: توصد عليه أبواب مدارك الإبداع فتنغلق دونه. « القارئ المتمرس بقراءة الأعمال الإبداعية عندما يستحضر المواقف يتبين أنها تعبر عن لحظة بعينها ، وتصبح ضرورية من الوجهة الفنية لتصوير الموقف » ؟

وهكذا استخفت اللجنة بالقراء ،أو كأن الرواية كتبت لكى يقرأها أعضاء اللجنة

المتمرسون من دون العالمين ،أما بقية القراء فيكفيهم الكلأ والماء ، واستنشاق الهواء كالسائمة !

كان قرار اللجنة بأن الرواية إبداع ليس له نظير ،وأنه لا يفهمها إلا المتمرسون فى قراءة الإبداع الراسخون فيه إيذانا بشن الحملة الشرسة على الرافضين للرواية ومضامينها، ومؤلفها ؛ لأنهم غير قادرين على فهم الإبداع ، ولأنهم لم يجدوا من يعلمهم القراءة الرشيدة . ومن هنا انبرى آكلو الزقوم بحملة كلامية لا تبقى ولا تذر، بلا وسيلة أو غاية اللهم إلا إلقاء خصومهم فى نار حقدهم .

برز فى صحيفة الأهرام رأس ببغاء ليعلن أولا أنه لم يقرأ الرواية ، ولكنه أبدى تعجبا من الضَّجة التى وصفها بأنها مفتعلة ، مع أنه أعلن أنه لا يدرى ما الحدث ولا علام تدور الضجة المفتعلة ؟! كل ما عرفه أنه خرج إلى الشارع فوجد الناس يصيحون ويرددون كلاما ، فقرر أن يندس فيهم ويقول كلاما مثلهم حتى لا يتهم بأنه أطرش فى الزفة ،وهو فى الوقت نفسه لا يدرى أنه بفعله هذا كاد أن يصبح (كداب الزفة) قال : « تابعت جانبا من الضجة التى أثيرت فى الأيام الأخيرة اعتراضا على رواية أصدرتها الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ،وتضمنت كما يقول المعترضون عبارات غير مهذبة تصدم الذوق ، وتخدش الحياء »، « وأنا لم أقرأ الرواية حتى يكون لى رأى فيها ، لكنى أعرف صاحبها ، وهو الروائى السورى المبدع حيدر حيدر الذى يعد واحدا من ألمع الروائيين العرب ، وأكثرهم امتلاكا لفن الرواية ، واحتراما لرسالة الكاتب ».

ثم يوجه خطابه إلى من رفضوا الرواية قائلا : « إن الآداب والفنون ليست ألعابا تلقائية ،أو ممارسات عفوية يجوز لكل من هب ودب أن يدلى فيها بدلوه ،ويقول برأيه، ويحكم بمزاجه ،بل هى فنون وعلوم فى الوقت ذاته؛ لأنها خبرات متراكمة لها أصولها النظرية وأدواتها ومناهجها ومدارسها النقدية والفلسفية التى تخصص فيها المتخصصون من النقاد والمفكرين والباحثين والأساتذة » .

« ليرفع هؤلاء أيديهم عن الثقافة المصرية » (١) .

أليس هذا الأمر من عجائب الدنيا ، وعلامات الساعة ، آدمى يقر بأنه لم يقرأ شيئا ولم ير شيئا ، ولم يسمع شيئا ثم يحكم . إنه كشاهد عادل إمام الذى لم ير شيئا ،

---

(١) صحيفة الأهرام فى ٣ / ٥ / ٢٠٠٠ م .

ولكن شاهد عادل إمام جدير بالاحترام ؛ لأنه لم يدع المشاهدة ليروى شهادة عما لم يحصل. إن هذه الحكاية تذكرنا بحمار الحكيم الذى قال لصاحبه : إنى جاهل بسيط ، ولكنك جاهل مركب ؛ لأنى أعترف بجهلى وأنت لا تعترف بجهلك .

إن هذا الكاتب يقر بأنه لم يقرأ الرواية ، ولكن عقدة ادعاء المعرفة تطارده ـ منذ أن حصل على دبلوم المعلمين الأولى ـ وشاءت الأقدار أن يكون له مكان لا يحلم به قرناؤه فظن أنه أعلم العالمين ، وأن من حقه أن يضع أنفه فيما لا يعلم ، وينصب نفسه واحدا من أعمدة الثقافة السبع: هو وعصفور وأعضاء اللجنة الخمسة .

هل سمع الناس بقاضٍ يحكم فى قضية لم يقرأ عنها شيئا ، ودون أن يتعلم من التشريعات والقوانين ما يجعله أهلا للجلوس على منصة القضاء والحكم . إنه حقا جهل يزعمون أنه معرفة ، إنه يذكرنا بمدرِّسَة يونيسكو الصلعاء التى استغرقت فى اللامعقول ، وهى تخاطب مقاعد خالية من التلاميذ فى فصل دراسى بغير تلاميذ فى مدرسة عبثية.

هل يكفى للحكم على نتاج إنسان أنه يعرف شخصه ، دون أن يعرف ماذا قال هذا الشخص أو فعل ؟!

هكذا أخذ أمثال هذا الكاتب تنصيب أنفسهم سدنة للثقافة ، وأعطوا لأنفسهم صك المعرفة ، ونعتوا أنفسهم بالمثقفين ، وبالتنويريين وبالحداثيين وأن غيرهم جاهلون إظلاميون ، لا خبرة لهم بأصول ألعابهم الساذجة .

ومثله ليس من أهل الصنعة حتى يؤخذ عنه فلا هو بالروائى ، ولا بالناقد الذى يعتد بنقده ، إنما مثله مثل كويتب ظهر فجأة فى صحيفة من الصحف ،وهذا ليس بغريب فى زماننا ، لا يملك من الثقافة إلا بقدر الإساءة إلى الناس بالشتائم وبذو الكلام، ولا قيمة فنية لرأيه . وفى هذا المقام يمكن أن نحتكم لكاتب روائى له وزنه فى ميدان الأدب الروائى مثل الأستاذ كامل زهيرى : فماذا قال فى الرواية مع العلم بأنه عضو اللجنة العصفورية لجنة (القراءة الرشيدة) والبت فى الرواية فى أثناء ندوة بأحد أروقة وزارة الثقافة حضرها الأستاذ حسنين هيكل ود.رضوى عاشور قال كامل زهيرى: « توجد أزمة سيولة وركود فى السياسة ، وليس فى الاقتصاد فقط ، فنحن نعيش فترة كفاف ديمقراطى لا يسمح بالازدهار ، ومن الناحية الفنية قد قرأت الرواية خمس مرات ، أصابتنى بالملل لأن بها تكراراً كثيرا فهى تقع فى سبعمائة صفحة إلا ثلاثا ، ولو أن صاحبها اختصر الأوصاف الجنسية فى ثلاثين صفحة لكان أفضل لها ، نحن لا نستطيع

أن نرفع كاتبها إلى مرتبة كبار الأدباء » [1] .

وهذا الرأى كان خارج التقرير الذى وقعه من قبل ، مما يوحى بل يؤكد أنه تعرض لضغط لكى يوقع على التقرير الذى رفع من قيمة الرواية ، وقيمة كاتبها الإبداعية .

وعلقت الدكتورة رضوى عاشور - وهى من فيلق المدافعين عن حيدر والوليمة ، والساخرة من قرائها (غير المتمرسين) - بمقال : من علمكم القراءة أيها السادة ؟(أخبار الأدب فى ٢١ / ٥ / ٢٠٠٠) قالت الدكتورة رضوى عاشور : « إننى أقدم ملاحظات امرأة قلقة باحثة ، فالمسألة فى رأيى وتقديرى ليست مسألة الرواية ، ما يقلق هو أسلوب الحوار الذى بدا مفزعا ، حيث ظهر ببذاءة سفلة فى الأسلوب ». وسواء كانت تقصد أسلوب الحوار فى الرواية وبذاءته ، أو أسلوب الحوار بين تيارات المثقفين حول الرواية وهمجيته أو تقصد هذا وذاك ، فإن كل جميل كان غائبا والوضع الثقافى نفسه بدا متهرئا، ولم يكن أحد فى كياسة الأستاذ محمد حسنين هيكل، فقد رأى أن الوقت (وقت الصخب) لم يكن مناسبا لإصدار حكم على الرواية؛ لأن مصر كما قال: « تواجه أزمتين تسيطران على الشارع المصرى، أولاهما: ما أثارته رواية (وليمة لأعشاب البحر)، وثانيتهما: الأزمة الاقتصادية الخاصة بموضوع السيولة ، وأشار هيكل إلى أن المصريين دخلوا معركة فى الوقت الغلط، على أرض غلط، بالأسلوب الغلط»، ثم قال: «أنا شخصيا سوف أحتفظ لنفسى برأيى فى موضوع الرواية؛ لأننى أرى أنه ليس هناك ما يلزم بالحديث فيها؛ لأن هذا المكان تابع لوزارة الثقافة ، والدخول فيه قد يسبب حرجا » [2].

ولقد برّ محمد حسنين هيكل بوعده فقد كتب رأيه فى الرواية متمهلا متمكنا بعد هذا التصريح بنحو من شهر فى مجلة وجهات نظر(الصادرة فى يوليو ٢٠٠٠) بمقال قيم بعنوان : (على أطراف الدين والسياسة والأدب) .

بدأت الحملة المضادة على محمد عباس وصحيفة الشعب ، على اعتبار أن محمد عباس أول من فجر حملة على الرواية على صفحات الشعب ، ومن أمثلة الحملة المضادة صدور عدد خاص بالهجوم على محمد عباس لأخبار الأدب (العدد ٣٥٦ فى يوم الأحد ٧ / ٥ / ٢٠٠٠) فى أربعين صفحة . وكان عنوان الغلاف : لا للتحريض على قتل المثقفين ، وتحته عنوان آخر : ضجة مفتعلة بسبب رواية (وليمة لأعشاب البحر) ، وعنوان ثالث : الخطر يستهدف الوطن .

(١، ٢) أخبار الأدب فى ٢٨ / ٥ / ٢٠٠٠ م .

ومن عناوين المقالات بالعدد نفسه (٣٥٦) :

١ ـ لا لمحاكم التفتيش فى القرن العشرين (عنوان مقال لمؤلف الرواية حيدر حيدر).

٢ ـ الفاشية تطارد الأدب ـ هل تذهب رواية حيدر حيدر ضحية لعبة سياسية ؟

٣ ـ التحريض على العنف تهديد للوطن كله .

ومن عناوين العدد ٣٥٧ (فى ١٤ / ٥ / ٢٠٠٠) :

١ ـ حملة الإرهاب تواصل التحريض على تصفية المثقفين .

٢ ـ المحرضون سياسيون مهزومون وطلاب شهرة وأحزاب بلا أفكار .

٣ ـ المجانين وفقهاء السلاطين .

٤ ـ القراءة العمياء .

٥ ـ فى سنوات المقتلة ، الكتابة بين سلطان السياسة وتجار الدين .

٦ ـ مقاربة لصورة المثقف العربى فى زمن الردة .

وهكذا توالت العناوين على هذه الوتيرة فى أعداد أخبار الأدب (٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠) ، وإلى الأعداد التالية حتى العدد ٣٦٤ فى ٢ يوليو ٢٠٠٠ .

والخلاصة : فإن من نعتوا أنفسهم بالمثقفين ، ونصبوا أنفسهم دون غيرهم سدنة للثقافة ، اتهموا الآخرين بعدم فهم الرواية وأعلنوا : « من الخطر إثارة المشاعر بالقراءة الخاطئة للنص الإبداعى ، والتعسف فى تفسيره »(أخبار الأدب فى ٧ / ٥/ ٢٠٠٠). لكن اللافت للنظر اختلاط الأمور ، وتحول القضية من رواية مرفوضة من بعض ، ونقد الرفض ونقضه من بعض آخر ، ورد الرد وهكذا إلى مساجلات غير أدبية إن لم تكن غير أخلاقية ، أقرب إلى مواجهات سب وشتائم كتلك التى تجرى على ألسنة سفلة الغوغاء . وهكذا تحول المنعوتون بالمثقفين إلى شتامين بذائين .

(٢)
موقف علماء الأزهر الشريف

ولأن رأى الأزهر الشريف لا يعامل معاملة المقالات الصحافية التى عرضت الآراء حول الوليمة ،بل شأنه شأن القوانين والفتاوى التى تمثل مرجعية تشريعية لجهات القضاء والحكم، وللجهات التنفيذية أيضا. فلا مناص من ذكر بيان مجمع البحوث الإسلامية بنصه.

بيان مجمع البحوث الإسلامية : حول رواية (وليمة لأعشاب البحر) :

« وردت هذه الرواية إلى مجمع البحوث الإسلامية من مباحث أمن الدولة بتاريخ ٦ / ٥ / ٢٠٠٠ ، لبيان ما بها من مخالفات شرعية ، وإبداء الرأى نحوها .

كما ورد كتاب من السيد الأستاذ الدكتور رئيس مجلس الشعب بهذا المعنى بتاريخ ١٣ / ٥ / ٢٠٠٠ وقد تم عرض الموضوع على لجنة البحوث الفقهية فكلفت اثنين من أعضائها المتخصصين بكتابة تقريرين منفصلين عن الرواية لعرضهما فى جلسة استثنائية لمجمع البحوث الإسلامية حدد لها يوم الأربعاء ١٧ / ٥ / ٢٠٠٠ وقد تم عرض هذين التقريرين والرواية على المجمع فى جلسته الاستثنائية وتبين ما يلى :

أولا : أن وزارة الثقافة التى نشرت هذه الرواية لم تستطلع رأى الأزهر أو مجمع البحوث الإسلامية مع ما ورد فيها من أمور كثيرة تتصل بالإسلام والعقيدة والشريعة، وذلك على خلاف ما يقضى به القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١م بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها ولائحته التنفيذية ، والقوانين المتصلة بحماية حق المؤلف ، وتنظيم وزارة الثقافة مما قطعت فيه الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع بمجلس الدولة بفتواها الصادرة بجلسة ٢ / ٢ / ١٩٩٤م ملف رقم ٥٨ / ١ ـ ٦١ من أن الأزهر الشريف هو وحده صاحب الرأى الملزم لوزارة الثقافة فى تقدير الشأن الإسلامى للترخيص أو رفض الترخيص بالمصنفات، وأن شيخ الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية ، وما يتبعه من إدارات هو صاحب الولاية فى فحص المؤلفات والمصنفات التى تتعرض للإسلام لإبداء الرأى فيها .

ثانيا : إن الرواية مليئة بالألفاظ والعبارات التى تحقر وتهين جميع المقدسات الدينية بما فى ذلك ذات الله سبحانه وتعالى ، والرسول ﷺ ، والقرآن الكريم ، واليوم الآخر، والقيم الدينية. ومن ذلك أنها تستهزئ بذات الله مثل وصفه بأنه «فنان فاشل» (ص٢١٩) و « أنه نسى بعض مخلوقاته من تراكم مشاغله التى لا تحد فى بلاد العرب» (ص ٣٥) و«أنه أقام مملكته الوهمية فى فراغ السموات ليدخل فى خلود ذاته بذاته» (ص ٤٢٦) .

كما يفترى على الرسول ﷺ بأنه « تزوج بأكثر من عشرين ما بين شرعية وخليلة ومتعة » (ص ١٤٨) ، و« أنه كان يتزوج من القبائل بغية توحيدها » (ص ٤٢٦، ٤٢٧) وأنه حرف فى آيات القرآن الكريم ونسب إليه ما ليس منه كقوله :« والله قال فى كتابه العزيز : إذا بليتم بالمعاصى فاستتروا » (ص ١٤٨) .

كما أن الرواية تحرض على الخروج عن الشريعة الإسلامية، وعدم التمسك بأحكامها

بالدعوة إلى ضرورة الانفصال عن « الدين والله والأخلاق والتقاليد والأزمنة الموحلة ، والجنة والجحيم الخرافيين ، وطاعة أولى الأمر والوالدين ، والزواج المبارك بالشرع ، وسائر الأكاذيب والطقوس التى رسمتها دهور الكذب» (ص ٣٤٨) .

ثالثا : إن الرواية خرجت عن الآداب العامة خروجا فادحا بالدعوة إلى الجنس غير المشروع (الزنا) ، واستعمال الألفاظ (البذيئة) فى الوقاع وأعضائه الجنسية للذكر والأنثى بلا حياء مما يعف اللسان عن ذكرها وكتابة نصها حفاظا على الحياء العام الذى انتهكته الرواية .

رابعا : إن الرواية لم تكتف بذلك ، بل حرضت صراحة على إهانة جميع الحكام العرب ووصفتهم بأقبح الأوصاف وأقذعها ، مما يعف المقام عن ذكرها ، وطالبت بالخروج عليهم والثورة ، ولو بإراقة الدماء .

خامسا : اتضح لمجمع البحوث الإسلامية من كل ما سبق أن ما ورد فى رواية (وليمة لأعشاب البحر) لمؤلفها حيدر حيدر خروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة وينتهك المقدسات الدينية والشرائع السماوية ، والآداب العامة ، والقيم القومية ، ويثير الفتن ، ويزعزع تماسك وحدة الأمة التى هى الركيزة الأساسية لبناء الدولة ، ويضع على عاتق من نشر هذه الرواية دون استطلاع رأى أهل الاختصاص المسؤولية الكاملة عن هذا التجاوز والآثار المترتبة عليه دينيا واجتماعيا ، على النحو الموضح تفصيلا بالتقريرين المقدمين من عضوى مجمع البحوث المشار إليهما » .

والله ولى التوفيق .

شيخ الأزهر

أ . د محمد سيد طنطاوى

تحريرا فى ١٣ من صفر ١٤٢١ هـ ـ ١٧ / ٥/ ٢٠٠٠م

هذا البيان بيان للناس وللمسؤولين ، حرص فيه أصحاب الفضيلة علماء الأزهر الشريف وشيوخه الأجلاء على أن يكون مختصرا وجيزا ، جامعا مانعا فى الوقت نفسه لما يراد بيانه للأمة الإسلامية وللمسلمين . حرص البيان على الإشارة إلى مواطن الداء، وإن لم يذكرها بصريح العبارات والألفاظ النابية، كما وردت فى نصوص الرواية ، حتى لا يصدم الناس بما يحبون ويعتقدون ، أو بما يسيء إلى مشاعرهم ومن ثم كان أسلوب البيان عفًا يليق بأصحاب الفضيلة من علماء دين يحافظون على هيبة العلم ووقاره .

ولم يفت البيان مع إيجازه وتوازنه أن يسكت عما يجب السكوت عنه من رفث

وفاحشة مما امتلأت به رواية (وليمة لأعشاب البحر) ؛لأن ألسنتهم وأقلامهم أعف من أن تذكرها ، ثم كانوا فى غاية الكياسة واللباقة ، فلم يرد لفظ التكفير فى البيان ، مع أن المعلوم لكافة أهل العلم أن الخروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة كفر . وأن كل ما جاء بالرواية تنطبق عليه هذه القاعدة الشرعية .

ولم يترك البيان مع وجازته شاردة ولا واردة من شأنها إدانة الرواية فى تحقيرها للمقدسات ،وإهانة الأنبياء،والتحريض على الخروج على الشريعة الإسلامية والتحريض على الخروج على الحكام العرب ولو كان ذلك بإراقة الدماء . وكذلك خروج الرواية على الآداب العامة ، واستخدام الألفاظ التى يعف اللسان عن ذكرها .

وحق للبيان أن يحمل مسؤولية هذه التجاوزات الشرعية والأخلاقية والسياسية على عاتق من نشروا هذه الرواية بوزارة الثقافة، وإلقاء المسؤولية بهذا الشكل التعيينى ، يوحى بواحد من اثنين :

أولهما : جهل المسؤولين عن النشر بما يجب أن ينشر ليقرأه الناس ـ ونقول: الناس؛ حتى لا تكون القراءة للأعمال التى تنشرها وزارة الثقافة،خاصة بالفئة المتمرسة فى قراءة الأعمال الإبداعية،كما ترى لجنة الحكم على الرواية ـ وما يجب أن يحجب عنهم.

الثانى : أن المسؤولين عن النشر يعلمون مسبقا كل ما تدعو إليه الرواية من خروج على الله والرسالات السماوية ، وتقاليد العرب ،وثقافتهم ،وكذا التحريض على الخروج على الحكام العرب،ولو كان ذلك بإراقة الدماء . ويريدون تطبيقه ضمن خطة ثقافية مرسومة .

وسواء كان هذا أو ذاك، فإن تحميل بيان أصحاب الفضيلة علماء الأزهر الشريف المسؤولية كاملة لمن قام بنشر هذه الرواية بوزارة الثقافة؛لما احتوت عليه من تجاوزات تترتب عليها آثار ضارة فى شتى الاتجاهات الدينية والاجتماعية والسياسية،أصاب كبد الحقيقة .

(٣)

ولم يسلم علماء الأزهر الشريف من ألسنة (المثقفين) الحداد كما لو كان يجب عليهم أن يصدعوا لرأيهم أو يحاوروهم بما يحبون ، ولكنهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك . فكان مما جاء فى ردهم:

أولا : تقييم الأعمال الأدبية يجب أن يتم من خلال منهج أدبى ورؤية نقدية وليس من خلال مؤسسات سياسية أو دينية . هذه حقيقة إذا ضلت عنا فسوف نفقد كل ما يتصل بالأدب والثقافة .

ثانيا : لا يجوز قراءة جزء من الرواية منفصلا عن السياق العام لأى نص كان أدبيا أو علميا ، أو حتى خطابا سياسيا ، إنما يجب أن يؤخذ العمل ككل بما فى ذلك رؤية الكاتب المتضمنة . ونلاحظ أن تقريرى العضوين المشار إليهما متأثران برؤية جريدة الشعب التحريضية .

ثالثا : ننبه إلى العواقب بعيدة المدى لهذا المنهج فى التعامل مع الإبداع الأدبى الذى سيؤدى إلى نتائج سلبية جسيمة ستعانى منها حياتنا الثقافية والفكرية .

رابعًا : إذا طبقت المعايير التى وردت فى التقرير على النصوص الأدبية القديمة والحديثة فسوف تؤدى إلى مصادرة الأدب العربى كله ؛ لأن أى نص أدبى يتم التعامل معه من خلال رؤية دينية أو سياسية يمكن تأويله فى أى وجهة [(١)].

وبأسلوب المغالطة نفسه ، الذى يفرض معايير اخترعوها ضموا علماء الأزهر الشريف وشيوخه إلى طوائف الذين لا يحسنون قراءة النص الأدبى ؛ لأن القراءة المتخصصة للنص الإبداعى بزعمهم وقف عليهم وحدهم. فإذا كان هذا الزعم صحيحا ، فَلِمَ طبعوا الرواية ونشروها بين الناس؛أكانوا يقصدون خواص القراء بذلك أم عامتهم ؟ وإذا كانوا يقصدون خاصتهم فلم لم يطبعوها بعددهم ويوزعوها عليهم فى بيوتهم حتى يضمنوا عدم وصولها إلى عامة القراء ومنهم علماء الأزهر وأساتذة جامعته لأنهم لا يحسنون قراءة النص الإبداعى ؟!

وهكذا يقول سفيه أو أحمق ضُم شيوخ الأزهر الشريف وعلمائه إلى من لا يحسنون القراءة ؛ لأنهم لا يفهمون خصائص الإبداع . وفيهم شيخ الأزهر نفسه أكبر مرجعية دينية فى العالم الإسلامى ، ومعه شيوخ الأزهر وعلماؤه بمجمع البحوث الإسلامية الأغر ، ورئيس جامعة الأزهر ، والأديب الكبير الدكتور محمد رجب البيومى .

أما ثالثة الأثافى فزعمهم بأن علماء الأزهر الشريف ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه ـ فوق ما سبق ذكره ـ بتحريض من جريدة الشعب التحريضية . وكأن الأزهر الشريف الذى قاد الأمة الإسلامية فى أعظم ملاحمها التاريخية منذ ألف عام يتنازل عن أمجاده من أجل رواية ساقطة بتحريض من جريدة حزبية ، ألم تسمعوا عن حمار شيخ الإسلام العز بن

---

(١) أخبار الأدب فى ٢١ / ٥ / ٢٠٠٠ م .

عبد السلام ؟ إذا لم تكونوا قد سمعتم عنه، ولم تعرفوا شيئا عن مواقفه المشرفة، اسألوا أنيس منصور ، فهو من أخبر الناس بالشيخ العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ وحماره .

لقد رفضوا الأزهر كله بالمغالطة لا بالغلط ؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أن الأزهر الشريف لا يعنيه الجانب الأدبى فى الرواية، فليذهب الأديب مذاهبه إذا كان أديبا وعلى الأزهر أن يحرس المقدسات ، ولو جاء ذكرها فى عمل أدبى .

الأزهر الشريف بوصفه مرجعية دينية بإقرار الحكومة ، وبتقنين من مجلس الدولة أكبر هيئة قضائية تشريعية فى الدولة ، يهتم بالدرجة الأولى بما يختص بأصول الدين عقيدة وشريعة ، ويهتم بأمر الحلال والحرام ، ثم إنه لا يتدخل فى أمور من شأن القضاء التنفيذى . عمله مقصور على ما يحول إليه من الأجهزة التشريعية والتنفيذية المسؤولة بطلب فتوى فى شأن إسلامى . وهذا ما حدث بالضبط لرواية (وليمة لأعشاب البحر) فلم يصدر فيها رأيا أو حكما إلا بعد أن طلب مجلس الشعب أكبر هيئة تشريعية فى الدولة ، وكذا مباحث أمن الدولة أكبر مؤسسة أمنية بيانا من الأزهر الشريف لبيان ما برواية (وليمة لأعشاب البحر) « من مخالفات شرعية، وإبداء الرأى نحوها » .

إن من نعتوا أنفسهم مثقفين أصدروا عددا مخصوصا من أخبار الأدب من أجل توجيه الانتقاد المر إلى شيوخ الأزهر الذين لا يعرفون ما الإبداع ولا يفهمونه .

صدر العدد (٣٥٨) من أخبار الأدب فى ٢١ / ٥ / ٢٠٠٠ وجاء على غلافه هذا العنوان : هل ساهم الدكتور هاشم رئيس جامعة الأزهر فى إشعال المظاهرات . وهى مظاهرات سلمية خرجت بها طالبات الأزهر إعلانا عن رفضهن للرواية ، وهن اللاتى حرضن طلاب الأزهر بعد ذلك للتظاهر ضد الرواية المشؤومة .

أطلق المثقفون ـ المزعومون ـ على هذه المظاهرات السلمية صفة المؤامرة لأن الذين خرجوا بها طالبات وطلاب الأزهر ـ ولو أنها خرجت من بؤر اليسار لكانت فتحا ونضالا، لكى تعلم الطبقات المظلومة الثورة الظافرة .

لقد أعلن أدعياء الثقافة والتنوير أن الذى حرك طلاب الأزهر مؤامرة أحد طرفيها الحكومة ، والطرف الثانى شيوخ الأزهر ، بهدف إشعال النار فى الثقافة المصرية . وأطلقوا على ما أسموه بالمؤامرة « الحملة المجنونة » ذات النتائج المخيفة ، وزعموا أن فقهاء تحت الطلب يطالبون الحكومة بحرق الكتب ، وفرض رقابة الأزهر على الأدب ، وتحويل الانتهازيين إلى شهداء وضحايا ، وكأن الأدب بزعمهم يتعرض للتأميم ، كما

زعموا أن الحكومة وجدت فى هذه الزوبعة حول رواية (وليمة لأعشاب البحر) فرصة لتشغل الناس عن فشلها الاقتصادى ، وفشلها فى علاج أزمة السيولة وما خلفته من مشاكل ، وخير للحكومة أن ينشغل الناس بأمر الرواية عن أزمات الحكومة ، وفى الوقت نفسه تتخلص من حزب العمل الذى لا يكف عن إثارة الشعب فى جريدته التى لا شاغل لها إلا تهييج العامة.» وهكذا حركت الحكومة [بزعمهم] جناحها الدينى بكامل هيئته : شيخ الأزهر ، وجامعته ، ومجمع البحوث الإسلامية ، ولجنة الشؤون الدينية والفقهاء الجاهزين بفتاوى تحت الطلب . . . شيوخ محترفون ألمعهم د . أحمد عمر هاشم بزيه المميز الذى يجمع فيه إلى جانب البدلة الأوربية غالية الثمن ، عباءة مطرزة على الطريقة الخليجية » .

ولم يكتفوا بهذه الأوصاف التى وصفوا بها الدكتور أحمد عمر هاشم ، فقد قرنوه بهتلر وموسولينى وستالين ونيرون . ثم لم يقف الهجوم على رئيس جامعة الأزهر ، بل تعداه إلى شيوخ الجامعة فى مقالات نشرت فى العدد نفسه تحت عناوين : و« وليمة الدم بجامعة الأزهر » ، « وأسئلة حول مستوى تعليمه الجامعى » ، و« الأساتذة لم يقرؤوا الرواية ـ حرضوا الطلاب وجلسوا فى مكاتبهم » و « وليمة لأعشاب البحر بين الجهل والقراءة وسوء النية » (لصلاح فضل) عضو لجنة الحكم على الرواية ـ يوجه كلامه لرافضى الرواية من شيوخ الأزهر وغيرهم . قائلا : « أما ما نسب إلى هذه الرواية من مساس بالمعتقدات الدينية ، أو طعن فى القرآن ، أو تعريض بحياة الرسول ، فهو نموذج لسوء فهم الأدب وتحريف عباراته ، والخطأ فى استنتاج معناه الكلى بالعجز عن فهم طريقته فى نقد الحياة » (أخبار الأدب فى ٢١ / ٥ / ٢٠٠٠) .

الكلام نفسه ،والطنطنة نفسها ، والترديد الببغائى لمصطلحات ابتدعوها مثل : إنهم لا يحسنون القراءة وإن قرؤوا لا يحسنون الفهم . ولمَ لا يكون هؤلاء الناطقون بهذه الترهات هم الأجهل والأقل فهما ، والأسوأ قراءة ،والأخبث طوية فوق كل ذلك ؟!

* * *

فى تواضع يرد الشيوخ ليقولوا : إنهم قرؤوا الرواية ومما قالوا : « قد يذكر العمل الأدبى أمراً دينيا ، أو إنسانيا ، ولكن بشرط ألا يوجد فيه تجاوزات ، والدعوة للفضيلة لا لبس فيها ، ويجب أن تكون بدون تجاوزات لفظية ، أو تشويه لما هو مستقر فى عرف الناس وتقاليدهم وأفكارهم ، فالعمل الأدبى ارتقاء بالذوق ، ومن ثم يجب أن يخلو

من الألفاظ البذيئة ، ومن الألفاظ التى تهاجم الأديان والرسالات السماوية ، فالإبداع فى نهايته الغرض منه تحقيق مقصد أخلاقى ، إنه لا ينبغى لأديب أن يبحث عن مقصد شريف فى إبداعاته عن طريق استخدام الألفاظ غير الشريفة ، فالإبداع الحقيقى هو الوصول إلى الجديد عن طريق الفضيلة ، ولا يجب على الكاتب أن يشيع الرذيلة فى العمل الأدبى ، وإن ذكر السوقى والفاحش من الألفاظ على لسان أبطال الرواية ، أو سب الذات الإلهية ، يعنى أن المؤلف هو الذى يشتم ولا أحد غيره ، إن العمل الأدبى يجب أن يدحض الرذيلة ، ولا يروج لها تحت أى مسمى من المسميات » [١] .

« وإذا تعارض العمل الأدبى مع أخلاقيات المجتمع، يكون إبداعا خارجا عن سياق المجتمع ، إن العمل الأدبى يجب أن يقرأ كاملا لكى نستطيع أن نقيمه التقييم النقدى الصحيح،لكن ذلك لا يبيح استخدام الألفاظ الخارجة التى تصطدم مع العقائد ، ولا يمكن للمجتمع أن يوافق على عمل أدبى يصطدم مع قيمه وأخلاقه . . . الإسلام يطبع الأدب والفنون بطابعه فينقيها من الفحش ، ويوجهها لخدمة الفضيلة ، وترسيخ القيم النبيلة ، ويرقى إلى الفضائل ، ولا يتسفل فى الأسلوب أو الغايات » [٢] .

كان رد فعل علماء الأزهر رزينا ، فقد قالوا ما قالوا بهدوء،يخالف رد الفعل القوى الذى واجه به الدكتور يوسف القرضاوى المشكلة بفتواه ، التى نشرت فى صحيفة الأسبوع فى ٢٢ / ٥ / ٢٠٠٠ بالصفحة الأولى . تحت عنوان :« رواية (وليمة لأعشاب البحر) كفر ومن رضى بها كافر » وجاء تحت العنوان ما يلى :

الدوحة : مراسل الأسبوع : « أيد فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى مدير مركز بحوث السيرة والسنة - وعميد كلية الشريعة الأسبق بجامعة قطر بيان مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بشأن رواية (وليمة لأعشاب البحر) لمؤلفها السورى حيدر حيدر ، وقال فى تصريحات خاصة للأسبوع : إن ما جاء فى الرواية يعد كفرا بغض النظر عن الأشخاص ، فمن قاله واعيا متعمدا ذاكرا فهو كافر ، ومن كان يجهل بما فيه ثم أعلم بمضمونه ورضيه فهو كافر ، أما الحكم على الأشخاص فلا ندخل فيه ، فهو يحتاج إلى تحقيق وقضاء .

وقال فضيلته : إنه قرأ الرواية ، فوجدها لا تعرف شيئا اسمه الحرام ، ولا تعرف

---

(١) د . مصطفى إمام - كلية اللغة العربية - أخبار الأدب فى ٢١ / ٥ / ٢٠٠٠م .

(٢) د . عبد المعطى البيومى - عميد كلية أصول الدين فى أخبار الأدب ٢١ / ٥ / ٢٠٠٠ م ، والشعب ٢/ ٥ / ٢٠٠٠ م .

الله ولا تقدره . واستنكر الشيخ يوسف القرضاوى تصريح وزارة الثقافة المصرية بأن إعادة نشر هذه الرواية ـ التى تضمنت هجوما على ثوابت الإسلام ـ لا يمكن أن يعد مساسا بالدين » .

ماذا بعد البيان والفتوى ؟

أخذ الدكتور جابر عصفور على عاتقه مهمة هدم الأزهر الكيان ، بصفته عميد جبهة المنعوتين بالمثقفين التنويريين ، فنشر مقالا بعنوان : « أزهر هذا الزمان » أراد أن يقول فى المقال : إن أزهر زمانه لم يؤد دورًا ، ومادام لم يؤد هذا الدور ولا يقدر على أدائه فليتنح جانبا من الحياة ، ولينزو بعلومه الدينية ، ولا يضع أنفه فى علوم الدنيا ، خاصة الإبداعية منها. وهكذا تحولت المشكلة من مشكلة رواية إلى مواجهة صريحة بين ما أطلق عليه فى أوربا فى القرن ١٨ صراع الكينونة (الكهنوت) مع الصيرورة ـ (العلم والاستنارة) ، دون التنبيه إلى أهمية الفرق بين حال أوربا حتى القرن ١٨ وحال مصر، وكذا الفرق بين أمـور الكنيسة سلطةً كهنوتية ، والأزهر منارةً علمية دينية . وذكر مقال الدكتور جابر عصفور الناس بحكاية الذئب الذى قال للحمل : لقد عكرت على الماء ولم ينفع الحمل قوله للذئب: إن الماء يجرى من جهتك إلى جهتى .

الأزهر الشريف لم يكن ناقدًا لرواية (وليمة لأعشاب البحر) ولم يكن ليضع نفسه فى نقد عمل إبداعى ؛ لأنه ينأى بنفسه عن هذه الأمور ،ولكن طلب منه أن يبين ما إذا كانت مضامين الرواية تمس المقدسات بسوء ، على أساس أن علماء الأزهر الشريف هم المختصون بالشأن الإسلامى،والذى طلب منه ذلك مجلس الشعب بقرار منه. فكأن الأزهر الشريف فى هذه الحالة يقوم بما يقوم به خبير مستشار فى أمر يعلمه أكثر مما يعلمه غيره.

وانهالت على الأزهر مقالات السب تارة والازدراء تارة،وهذه المقالات كثيرة متعددة متشابهة،ولكن أهمها مقال جابر عصفور؛ لأنه يعبر عن الرأى الرسمى للمجلس الأعلى للثقافة بوزارة الثقافة فى حكومة الدكتور عاطف عبيد . والمقال نشر بجريدة الحياة اللندنية فى ٢٧ / ٥ / ٢٠٠٠ وفى أخبار الأدب فى ٢٨ / ٥ / ٢٠٠٠ تحت عنوان : أزهر هذا الزمان ـ هل ينتصر تاريخ التشدد ؟ وفى كتاب: ضد التعصب بعنوان : موقف الأزهر (ص ٤١٥ ـ ٤٤٠) .

١ ـ يبدأ مقاله بتقرير مفاده أن سلوك المؤسسة الأزهرية ، اتصف بالنزوع إلى سوء الظن بالرواية ، والميل إلى اتهامها ،بسبب المقتطفات التى ابتسرت من سياقاتها ،والحملة

التحريضية التى انهالت على صاحبها ، وتتصل ثانية هذه الصفات بالمبادرة إلى إيقاع التطابق الحرفى بين شخصيات العمل الأدبى ، ومعتقدات صاحبه ، ومن ثم النظر إلى كل ما يأتى على لسان الشخصيات المتخيلة بوصفة دليلا على نوايا المؤلف ،وشهادة على معتقداته التى ينطقها على ألسنة شخصياته ، ويتصل بهاتين الصفتين ما يكمن خلفهما من حساسية دينية مفرطة لا تزال تنطوى عليها المؤسسة الأزهرية » .

كلام مكرور ، تكرار ببغاء لا عصفور .

يقرر من الجملة الأولى ويكرر أن علماء الأزهر تنطوى نفوسهم على ظن سيئ ، ووسم الأزهر الشريف بالمؤسسة الأزهرية مرتين فى فقرة واحدة،يؤكد سوء طوية مكنونة للأزهر الشريف؛لأنه يمثل منارة علمية مضيئة للمد الإسلامى فى العالم فضلا عن مصر، هذا المد الذى يؤرق الزاعمين بأنهم تنويريون .

ومن العبارات الأولى للمقال يحاول إيهام القارئ بوجوب فصل المبدع عما أبدع ، ومن عجيب الأمور أن يصدر هذا الكلام من طرح اليسار،الذين خرقت صيحاتهم الآذان من بداية الخمسينات ، حتى عصر الانفتاح بقول واحد يقول : لا ينفصل الكاتب عما يكتب ودمه يسرى فى عروق شخصياته مهما كانت متخيلة ، وأن الكتاب فى كل مجالات الكتابة ، إنما هم دعاة لمذهبية محددة ، خاصة الماركسيين ، فهم أشد الكتاب تمسكا بتوجههم المذهبى . والشيء نفسه لدى كتاب النظام الرأسمالى ، منذ عصور الاستعمار الأولى ، فرواية (روبنسون كروزو) على سبيل المثال تدعو إلى قبول الاستعمار ، كأمر واقع لإعمار الأماكن التى يراد تحضرها . ولا تزال الكتابات إلى اليوم فى العالم الرأسمالى تدعو إلى قبول الديمقراطية على النمط الغربى ،فى كل المجالات ، والكتابات الغربية والأمريكية بصفة خاصة تمهد عقول البشر لقبول نموذجها باعتبارها نهاية التاريخ ـ كما يفصل فرانسيس فوكوياما فى كتاب : نهاية التاريخ . الكاتب لا ينفصل عما يكتب ، وعصفور يعرف ذلك كما يعرفه كل عضو فى مؤسسته . وحيدر حيدر ماركسى ولا يزال يتمسك بماركسيته ، ويدعو إلى مفاهيمها فى رواية (وليمة لأعشاب البحر) فى الاعتقاد والاقتصاد والجنس ، ويوجه شخصياته الروائية التى يصنعها على عينيه على هذا الأساس .

٢ ـ يتهم الأزهر بالاسترابة المسبقة إزاء الأعمال الإبداعية ، ولا يعرف التسامح « والاسترابة المسبقة،وضيق الصدر أمران لاثقان فى موقف المؤسسة الأزهرية من الأعمال

الإبداعية والفكرية »، مما يكشف « عن اتجاه سائد متشدد فى نزوعه التحريمى » .

الأزهر الشريف لا يتدخل من قريب أو بعيد فى أعمالكم ، ويقر لكم بخبرتكم فى شؤون دنياكم ، برهان ذلك أنه لم يتدخل فى أمر (الوليمة العفنة) إلا بعد أن أتته دعوة من مجلس الشعب ، وأخرى من أمن الدولة ليبين أمرًا هو فيه أعرف منكم ، الأزهر الشريف سئل فأجاب ـ فى حدود تخصصه ـ ولم يفعل أكثر من ذلك . هل كان ينتظر المنتظرون منه أن يرفع شيوخ الأزهر أيديهم بالتعظيم والتحية لكاتب لا قدمٌ فى الحركة الأدبية ولا أخرٌ ؛ لأنه سب الله عز وجل وكل المقدسات الإسلامية .

ثم ماذا تعنى بقولك عن اتجاه سائد متشدد فى نزوعة التحريمى ؟هل بلغك أن أحدا من علماء الأزهر حرم حلالا حتى تقول : إن بالأزهر اتجاها سائدًا فى النزوع إلى التحريم. وهل التحريم نزعة ، أم فيه أحكام شرعية تستمد من أصولها من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ والإجماع ، والقياس واجتهاد علماء الأمة فى كل عصر حتى قيام الساعة ؟

٣ ـ إن القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ « أناط بالأزهر مهام محدودة هى :

حفظ التراث الإسلامى ودراسته وتجليته ونشره ، وحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب ، والعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره فى تقدم البشربة ، وتزويد العالم الإسلامى ، والوطن العربى بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الإسلامية والثقافة الدينية ولغة القرآن ، وتخريج علماء عاملين مثقفين فى الدين » .

« وليس فى هذه المهام أو ما يشبهها ما يتصل بالرقابة على الفكر والإبداع » وهل فعل الأزهر الشريف إلا ما نص عليه هذا القانون ؟! ثم ألم يتضمن هذا القانون عبارة « الثقافة الدينية ،ولغة القرآن » ؟ واللغة العربية ازدهرت وارتقت فى ظل القرآن الكريم . نحوًا وصرفا وبلاغة وأدبا . وكما تبين ألا يمكن أن يخرج الأزهر الشريف متخصصين بالأدب كما تخرج كلية الآداب وكلية دار العلوم ، أم أن أدبكم يختلف عن أدب الناس ؟ ما رأيكم فى الدكتور محمد رجب البيومى مثقفا وأديبا تخرج بالأزهر الشريف ،ألا يمكن أن يكون مبدعا بالمفهوم العام للأدب والثقافة . وهل شرط المبدع أن يكون من كلية الآداب ؟! إن الشاعر العظيم أحمد شوقى لم يتخرج بكلية الآداب، وكذا حافظ إبراهيم ، وعلى محمود طه وإبراهيم ناجى وغيرهم . ألا يمكن أن يكون المبدع أزهريا ؟! إن بالأزهر كلية اللغة العربية تعلم الطلاب اللغة العربية ، وتخرج

متخصصين بالأدب والنقد وشهاداتها لطلابها معتمدة من الدولة. ألا يحق لهؤلاء أن يقولوا رأيا فى عمل إبداعى ؟ ألم يكن رائدكم التنويرى طه حسين أزهريا والشيخ أمين الخولى أستاذكم بآداب القاهرة والدكتور شوقى ضيف أستاذكم الذى تنكرتم له وحجبتم عنه جائزة مبارك ٢٠٠٠ ؟! والله لولا الأزهر ما خطَّ هؤلاء خطا ، ولا قرؤوا ولا كتبوا ولا أبدعوا ، ولو قيل : إن بعضهم خرج على الأزهر ، فسيظل مدينا بما حصله من علم للأزهر .

ثم لماذا تريد حصر الأزهر فى دائرة معينة لا يخرج منها ؟ أليس فى هذه النظرة مؤامرة على الأزهر تريد بها أن تحصره فى دائرة لا يخرج منها ، وبذلك يتحول إلى كهنوت ، يشبه كهنوت الكاثوليكية فى العصور الوسطى ، وعند ذلك يسهل اغتياله ؟ ثم أتدرى ما معنى تخريج علماء مثقفين فى الدين؟ لو عرفت جوهر الإسلام لتيقنت بأن كل علوم الدنيا والآخرة من علوم الدين،وثقافتها ثقافة الدين. وليتك ترجع إلى الإمام الغزالى فى كتاب: جواهر القرآن ودرره ،وكتاب الموافقات للشاطبى. وهما مجرد مثالين.

٤ ـ تطالب بحصر علماء الأزهر فى « مهمة تحقيق التراث الإسلامى ونشره ، وبيان الرأى فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة ، وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة » .

ما أنت بمنظر لهم ماذا يفعلون،وما أنت بمسطيعه. أولا: لأنهم أعلم بشؤونهم وأفقه، وأنت لا تستطيع أن تقدم أدنى ما يقدمه أدناهم . ثانيا : لأنهم لم يقصروا فتقوم فيهم بدور المرشد ، وما ينبغى لك أن تكونه . ثالثا : وهو الأهم هل رأيت أو سمعت أن أحدا منهم فعل غير ما نبهت إليه فى مقالك ، فهم فاعلوه من قديم ، ولا يزالون مرجع الأمة فى شؤون العقيدة وبيان الخلاف ، وحمل تبعة الدعوة إلى الله بالحسنى . ثم أقول لك الحق وللتذكرة : هل سمعت أو قرأت أو شاهدت أحدا منهم سب إنسانا أو شتمه لخلاف فى قضية فكرية ، أو اتهم أحدا بالجهل والجمود بلا جريرة أو بالإرهاب والأصولية وبتنصيب محكمة تفتيش أو كفَّر أحدا لمجرد خلاف فى الرأى ؟ إن من شريعة الإسلام أدب الاختلاف ، له أصوله عندهم فلا يخرجون عليها . وتحت يدك كل البيانات التى صدرت من الأزهر الشريف لتبين الحكم الشرعى فى الأعمال الأدبية بدءًا من رواية (أولاد حارتنا) حتى رواية (وليمة لأعشاب البحر) ، إنهم لم يتجاوزوا الحكم الشرعى فى أى عمل أدبى يمس المقدسات بسوء . ثم أليس (بيانهم) فى رواية

(وليمة لأعشاب البحر) مما يدخل تحت نص قولك : « بيان الرأى فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة » .

إنهم لم يقرروا حجب جائزة عن مؤلف الوليمة ، أو عقابه ، والبيان كما قرأته ، يبين أنهم لم يتجاوزوا حدود المشكلات المذهبية التى تتعلق بالعقيدة الإسلامية . وليس بيان ما يتعلق بالعقيدة عمل علماء الدين الإسلامى وحدهم فى الأعمال الفنية .فقد سبق البابا يوحنا بولس الثانى الحبر الكاثوليكى وقال رأيه فى رواية (آيات شيطانية) لسلمان رشدى - مع أن الذى تضرر منها المسلمون ، لا الكاثوليك ، حيث « بدت القضية فى بلدان الغرب جميعا ، وكأنها بوادر حرب صليبية تتجدد ، وأحس الفاتيكان أن التيار يندفع إلى حيث لا يريد أحد ، وهكذا صدر بيان عن المقر البابوى ، نشرته صحيفته الرسمية (أويسرفاتورى رومانو) جاء فيه : « إن ملايين المسلمين أحسوا بالغضب لما قرؤوه فى قضية سلمان رشدى ، ومن الضرورى لكل مسيحى احتراما لدينه على الأقل أن يستاء من أى إهانة توجه إلى ديانات غيره ، وعلينا أن نتذكر أن قداسة العقيدة لا تقل أهمية عن قداسة الحياة » (١) .

قال البابا كلمته - فى عقيدة المسلمين ، لا عقيدة الكاثوليك . ولم يستطع مثقف واحد فى العالم الغربى كله أن يقول له : لمَ أبديت رأيا فى عمل إبداعى ، ليس من اختصاص الكنيسة الكاثوليكية ؟ ولم يقل له أحد المثقفين : إنك تعيد تاريخ محاكم التفتيش ؟ مع أن أسلافه هم الذين أقاموها . يا دكتور جابر تدين بما تحب ، واعتقد فيما تريد ، وآمن بمن تهوى ، ولكن لا تدافع عمن سب ما يحب الآخرون ويقدسون .

٥ - ثم تقمصت القرين الجنى لطه حسين واستحضرت روحه وقلت : « وأتصور أن الأزهر عندما يضع نفسه موضع الحكم على الأعمال الأدبية فإنما يسرف على نفسه ، ويسرف على الناس ، ويترك مهامه الأكثر أهمية لأعمال يمكن أن ينهض بها عنه نقاد أكثر دراية بمسالك الأعمال الإبداعية ، وشعابها المراوغة التى يمكن أن تضلل غير الخبير بها » .

« وليته (الأزهر) يرفع المستوى الثقافى العام لطلابه ، وطالباته الذين يقبلهم بأدنى المجاميع ،وليته يشيع الميراث العقلانى للإسلام بين هؤلاء الطلاب حتى لا يحكموا على

(١) نقلا عن مقال محمد حسنين هيكل - على أطراف الأدب والسياسة والدين - مجلة وجهات نظر ، يوليو ٢٠٠٠ م .

كتاب إلا بالبينة القاطعة بعد قراءة فاحصة » .

حكمت على الأزهر الشريف بأن منتسبيه لا يفهمون فى الأعمال الأدبية ،وإنه إذ يقحم نفسه فى قراءتها يسرف على نفسه والناس جميعا بقراءة غير فاحصة ، وتدعى أن غيرهم كالذين تخرجوا من كلية الآداب ـ ولتكن آداب جامعة القاهرة تعيينا ـ هم حذاق النقاد،أكثر دراية بمسالك الإبداع وشعابه المراوغة، ألا يدعو ذلك إلى الضحك، يا لهول ما نطقت به ، قد عرفنا من تخرج بالآداب ، وبدار العلوم ، وبالأزهر ممن تعاطوا الأدب واشتغلوا بنقده ، دون أن يحكم عليهم بالمعهد الذى تخرجوا به ، إلا أن تكون لهم اجتهاداتهم الشخصية ، وقراءاتهم الخاصة . وبالمناسبة ما رأيك فى الدكتور عبد الحميد إبراهيم ، الأزهرى الدرعمى ألا يملك البينة القاطعة ، والقدرة على قراءة فاحصة للرواية (المشؤومة)؟ وما رأيك فى كتابه (الوسطية) ، وهو إنجاز أزهرى درعمى ؟ هل له دراية بمسالك الإبداع ،وشعابها المراوغة ؟ أم من المحتمل أن يضل فيها ؟

لن أصدقك فى هذه الفرية ، إلا بقدر ما أصدق بائع صحف قال لى يوما : إن الدكتور جابر عصفور لا يكاد يفهم شيئا فى مشروعه التنويرى الوهمى . وأن الدكتور عبد العزيز حموده أضله بـ (المرايا المحدبة) وغبش صور الأشياء فى عينيه .

أما فرية : « قبول طلاب الأزهر بأدنى المجاميع » التى لم تعذر الأزهر فيها . فهل هذه مسؤولية الأزهر ؟ إن دار العلوم والآداب أيضا تقبلان الطلاب بمجاميع متدنية ـ ألم تسمع بقانون العرض والطلب ، وقوانين الأعراف الاجتماعية التى أدت بصفوة طلاب الثانوية العامة ومتفوقيها إلى ما أطلقت عليه الصحافة المصرية: « كليات القمة » باعتبارها الكليات التى تحقق المستقبل الزاهر،والمركز الاجتماعى المرموق مثل كليات الطب والصيدلة وطب الأسنان بعد أن جار الزمان الاجتماعى المصرى على كليات أخرى ، ومع ذلك فإن الطلاب أصحاب المجاميع العالية لا يدرسون فى كلياتهم الجامعية ، أو يتعلمون فيها كيف « يحكمون على كتاب بالبينة القاطعة بعد قراءة فاحصة » ، ما رأيك. هل يسمح لهم بالقراءة أم حسبهم أدواتهم الطبيعية ، وعلوم الأحياء والكيمياء والتشريح وغيرها من العلوم التى يتخصصون فيها ، وتبقى كلية الآداب وحدها تشيع أو تشع الميراث العقلانى الذى يمنح طلابها الدراية بمسالك الإبداع المراوغة ، ودوربه الملتوية ؟!

من الذين يأتون إليك للالتحاق بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة ؟ أهم أصحاب المجاميع المرتفعة ؟ أهم الذين يمرون باختبارات عقلية ومهارية ذات مستوى رفيع فى

العلوم الإبداعية ، أم هم أصحاب المجاميع المتدنية يلقى بهم فى سلة كلية الآداب ، كما يلقى بنظائرهم فى سلة الأزهر أو سلة دار العلوم ؟ إن بالخطاب خللا تجب معالجته بمعيار صحيح ، لكى تكون النتائج مفيدة ومثمرة .

أما إشاعة الميراث العقلانى للإسلام ، فهو مفقود عند طلاب الأزهر ، وعند غيرهم من الطلاب . كم طالبا فى آدابكم يعرف محمد بن موسى الخوارزمى مبتكر علم الجبر ومطور علم الحساب ، والرازى أعظم أطباء الإسلام ، والحسن بن الهيثم عالم الطبيعيات والبصريات الذى يتواضع أمامه إسحاق نيوتن ، والبيرونى وغيرهم ؟ إن الذين يعرفون أسماء هؤلاء - لا علومهم وفنونهم - فى كلية الآداب لن يزيد عددهم عمن يعرفونهم فى كلية دار العلوم ، وكليات الأزهر . قد يسمع طلاب اليوم فى الجامعات العربية عن الغزالى وابن تيمية وابن القيم وابن سينا وابن رشد ؛ لأن أبحاث أساتذتهم لم تغادر هؤلاء فى بعض الكليات ،بل فى بعض الأقسام . وكأن ثقافة العرب وعلومهم وفنونهم وإبداعهم تاهت فى الدروب المراوغة والسكك الملتوية ، إياها .

إن التاريخ العلمى والطبيعى والتطبيقى والفنى للعرب يجهله طلاب الأزهر ، كما يجهله طلاب الجامعات المدنية ، وكلهم فى الهم سواء ؛ لأن الأساتذة المثقفين لهم لا يملكون إلا بضاعة الكلام الأجوف الذى يدور منذ قرن من الزمان حول : المدنية ، والعلم والتقدم - ثم من عقدين حول : الحداثة والتنوير فى مواجهة الإظلام والتكفير ، بطريقة : إما أن تؤمن بما أقول ، وإلا فأنت أصولى إظلامى تكفيرى ، مؤسس لمحاكم التفتيش .

ثم هل ترى أن الناس مصدقوك فى قولك : « إن علماء الأزهر أضاعوا الميراث العقلانى للإسلام ؛ لأنهم لم يحسنوا بزعمك قراءة رواية (وليمة الشيطان) وفهم مراميها (الخرائبية) ، كأنى بك تود أن يتحول كل منسوب للأزهر إلى حلاج يؤجج الثورات - أو كما وصفه المعرى - يميل إلى إقلاب الدول ، أو ابن الراوندى الملحد، أو حمدان قرمط ، ذلك الثائر الأحمر ، كما وصفه على أحمد باكثير . هل إذا تحول كل أزهرى إلى واحد من هؤلاء ، تأتيه البينة القاطعة التى يدرك بها فهما عقلانيا قاطعا يساعده على قراءة فاحصة لرواية (الوليمة العفنة) .

هل خلق الله خريجى الأزهر بلا عقل - حاشا لله - وبلا إرادة حتى يضيعوا ما زعمت أنهم ضيعوه ،رحم الله الشيخ الأزهرى عبد الرحمن الجبرتى ، لم يكن

راضيا عن الأزهر فى زمنه ولكنه لم يتنكر له ، ولم ينكر فضله على الأمة الإسلامية ، طالب بإصلاحه دون أن يلعن شيوخه ، وفعل الشيخ محمد عبده الشيء نفسه . سامحك الله يا عصفور ماذا يبقى للمصريين بعد الأزهر ، لو أنك ضيعته ؟

لقد وجهت له الاتهام تلو الاتهام ؛ لأنه لم يؤيد تقرير لجنتكم فى الرواية الشيطانية وقلت فيما قلت: « ليته يكف عن استخدام لغة التكفير التى تشعل الفتنة بين أبناء الأمة » والله تعالى يعلم أن الأزهر برىء مما اتهمته به ، براءة الذئب من دم ابن يعقوب . وعلى مر الأيام والسنين لم يسمع أحد أن أحد علماء الأزهر الشريف رد على من وجه إليه اتهامات بعدم الفهم والجمود والبعد عن العقلانية ، وإقامة محاكم التفتيش ، أو تكفير أحد ، إنهم يردون على شاتميهم بما يليق بهم كعلماء دين بالحكمة والموعظة الحسنة ولا يقولون للناس إلا حسنى؛ لأنهم يعلمون أن الله ـ عز شأنه ـ يهدى من يشاء ، هداية البيان ، وهداية الأعمال إلى سواء السبيل .

٦ ـ « أصدر أحمد عمر هاشم بصفته رئيس لجنة الشؤون الدينية والاجتماعية والأوقاف بمجلس الشعب بيانا » وأنا معك هذه المرة فى أن الدكتور أحمد عمر هاشم قدم بيانه بصفته رئيسا للجنة الدينية بمجلس الشعب . يعنى ليس بصفته شيخا من شيوخ الأزهر الذين وصفتهم بعدم الفهم والجمود والبعد عن العقلانية . إنه بإقرارك يمثل مجلس الشعب أعلى سلطة تشريعية فى مصر ، السلطة التى تعبر عن إرادة الأمة ، لا إرادة الأزهر وحده .

البيان بيان لجنة ، وليس بيان عمر هاشم ، وهو الأزهرى الوحيد من بين أعضائها وبيان اللجنة يستنكر ما تضمنه كتاب (وليمة لأعشاب البحر) للكاتب السورى حيدر حيدر وطالبت اللجنة بسرعة مصادرة الكتاب ، وسحب نسخه من السوق ، وحظر نشره أو تداوله ، لما يشتمل عليه من إساءة للمقدسات الإسلامية ، والتطاول على القيم والمبادئ التى تعتز بها مصر رئيسا وحكومة وشعبا ، ويعتز بها كل مسلم » وقد وافق مجلس الشعب على البيان ، وتحويله إلى اللجان المتخصصة بالشأن الدينى بالأزهر وهذا يعنى أن القرار صار قرار مجلس الشعب .

وهاجمت البيان قائلا : « إن هذا البيان يحتم العودة إلى أشد عصور التاريخ الإسلامى إظلاما » و« يمكن أن تقول : إن الفارق بين النتيجة التى انتهى إليها بيان رئيس لجنة الشؤون الدينية ـ وهو رئيس جامعة الأزهر ـ والنتيجة التى انتهت إليها اللجنة

المدنية (لجنة المجلس الأعلى للثقافة) يرجع إلى الفارق بين المتخصصين فى الأدب والعارفين بتقنياته وأسراره من ناحية،والمتخصصين فى علوم الدين، الذين ليست لهم بالضرورة ، معرفة عميقة أو متخصصة بالأدب ، ويفتقرون إلى أدوات الحكم المنهجى السليم عليه . من ناحية مقابلة » .

وقبل الرد على هذه الفرية المتهافتة نوضح أشياء :

أولها : أن البيان بيان لجنة من لجان مجلس الشعب ، وليس بيانًا خاصًا بالدكتور أحمد عمر هاشم .

ثانيا : أقر مجلس الشعب البيان ، وأصدر قرارًا بالموافقة على تحويل الموضوع كله إلى الأزهر الشريف ، على أساس أنه جهة الاختصاص بالشأن الإسلامى .

ثالثا : أن الموقف من هذا البيان يشكك فى قرارات مجلس الشعب ، ويضعف فيه الثقة ، ومجلس الشعب لا يمثل إرادة أفراد ، بل يمثل إرادة أمة .

وبذلك يضع الدكتور عصفور لجنته فى ناحية مقابلة لمجلس الشعب ، لا الدكتور أحمد عمر هاشم . وتكون النعوت التى ألصقها بالدكتور أحمد عمر هاشم الشخص ليست فى محلها ؛ لأنها موجهة لمجلس الشعب بكل لجانه .

ومع ذلك فهناك مؤاخذة : لأن كلامه يقرر أن المتخصصين فى علوم الدين لا يفهمون فى الأدب ، ويفتقرون إلى أدوات الحكم المنهجى السليم عليه . ويقرر هذا الحكم تقريرا بالضرورة ، أى لأنهم من علماء الدين ، فهم بالضرورة لا يفهمون فى الأدب.أهم الذين لا يفهمون،أم هؤلاء الذين يصرون على أنهم من المبدعين من (جنينة عصفور)ولا يحملون من المؤهلات إلا دبلوم المعلمين ، أو دبلوم الصنايع ، ومع ذلك لم يمنعهم أحد من أن يبدعوا ، أو يقولوا رأيهم فى السياسة والأدب.

إن حرية التعبير ، والقدرة على الفهم والإدراك ، لا تصنف تصنيفا مهنيا ، ومن حق كل صاحب عقل ، وقدرة على التفكير ، أن يفكر ويبدع ويعبر . إن حرية التعبير ليست حقا لأناس دون غيرهم،وإذا كنت تحجر على رأى غيرك وتتهمه بالافتقار إلى المعرفة المتخصصة بالأدب ، فما ذلك إلا الإظلام بعينه ، ليس إظلام المتدينين ، بل إظلام المذهبية المتحجرة التى تزعم أنها صاحبة الحق فى الفهم دون غيرها .

٧ ـ قلت : إنك شكلت لجنة بأمر من وزير الثقافة ، منهم شيخ النقاد الدكتور عبد القادر القط لكتابة تقرير عن الرواية .

« وكلف شيخ الأزهر دكتور عبد الرحمن العدوى الأستاذ بجامعة الأزهر وعضو مجمع البحوث الإسلامية ودكتور رأفت عثمان عميد كلية الشريعة والقانون وهما من المتخصصين فى علوم العقيدة والشريعة والقانون ،ولهذا الاختيار دلالته ولا معنى لذلك سوى فرض رقابة دينية على الإبداع ، واستهلال موجة من التشدد التى يمكن أن تنتهى إلى إقامة محاكم من نوع جديد خصوصا حين تنصب من رجال [علماء] الدين قضاة على ما لا يدخل فى اختصاصهم» .

« ولا أستطيع بالقدر نفسه أن أتجاهل فى بيان الأزهر طرائقه فى المحاجّة ، أو استدلالاته الداخلية التى أوصلته إلى نتيجة لم تختلف كثيرا عن النتائج التى وصلت إليها جماعات التكفير التى استغلت هذه الرواية لإحداث فتنة سياسية » .

- نشير أولا إلى أنك لم تشر إلى موقف الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة السابق وكان عضوا باللجنة ، وفر منها حتى لا يدخل فى حرج مع نفسه ، وتعلل بعلة المرض - شفاه الله وعافاه . وللتذكرة : الدكتور أحمد هيكل أزهرى درعمى فكيف دخل ضمن التشكيل ؟! والأزاهرة الدراعمة فى عرفكم لا يجيدون السير فى دروب الإبداع الملتفة ! كما لم تشر إلى أن الدكتور أحمد عمر هاشم فر هو الآخر ، ليس من اللجنة ولكن من فخ كان قد أحكم له ، فإنّه إن وقّع على التقرير ،كانت جامعة الأزهر كلها مع الرواية، وهنا تكون النجاة من هذا الفخ أقل شرا من أن يتهم بالجمود وغيره من الصفات التى ابتدعتموها لمخالفيكم .

عود إلى كلامكم ، ونبدأ بالسؤال التالى على لسانكم : كان لتكليف شيخ الأزهر لشيخين تحديدا اختيارا له دلالته . وضح ذلك ؟

الإجابة: لا سبب لدى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر فى اختيارهما سوى أنهما من أعلم الناس بالحلال والحرام . وأن الموضوع لم يحول من مجلس الشعب إلا لمعرفة ما تتضمنه الرواية من حلال أو حرام ، وليس من أجل اكتشاف السكك الإبداعية المراوغة ؛ لأنها من اختصاص غيرهم .

إن علماء الأزهر لم يكونوا فى مناظرة أو محاجّة ، إنهم لم يكونوا فى ظرف محاجة فكرية أو ثقافية مع التنويريين الالتفافيين ، إنما أمرهم أمر واحد ، لا أمر غيره ، فقد وجه لهم مجلس الشعب المصرى ،الذى يمثل الشعب بكل طوائفه ، ودياناته وفئاته سؤالا :هل أساءت رواية وليمة لأعشاب البحر إلى المقدسات الدينية الإسلامية والمسيحية

واليهودية أم لا ؟ وهل أساءت إلى الرسول ﷺ ، والتراث العربى الإسلامى، والحكومات العربية وشعوبها ؟ وكانت الإجابة بنعم كما ورد فى بيان علماء الأزهر الشريف الذى وقعه عنهم فضيلة الإمام الأكبر .

وبذلك لم يتجاوز بيان العلماء الأفاضل ، حدود ما طلب منهم تبيينه للسلطة التشريعية التى تمثل الشعب كله .

وهذا يباين ما جاء فى تقرير اللجنة العلمية بوزارة الثقافة ، ثم ما جاء فى المقالات التفسيرية التى دبجها كتاب الثقافة فى الوزارة ، وفى الصحف الموالية لهم . فبيان اللجنة والمقالات المفسرة له دارت كلها حول أشياء بعيدة كل البعد عن موضوع السؤال.

تكونت اللجنة من أساتذة جامعيين عملوا بقسمى اللغة العربية بآداب القاهرة وآداب عين شمس إلا واحدًا فهو روائى مبدع ، ويمكن أن توجه إلى الأساتذة الجامعيين فى اللجنة السؤال التالى : ما الدرجة التى تعطى لطالب بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة أو آداب عين شمس إذا سئل عن شعر شوقى فى المناسبات،فأجاب عن شعره الذاتى؟! هنا لا ينفع استجداء لجنة تقرير تبرئة الوزارة من نشر رواية (وليمة لأعشاب البحر) فى مثل قولهم : « إن من ناقشوا الرواية من علماء الأزهر ، لم يناقشوها بوصفها عملا أدبيا ، وإنما بوصفها عملا فكريا » ثم هل خلت الرواية من فكر . اسألوا محمود أمين العالم ، وهو ماركسى مثل حيدر ، ومثل كثيرين ممن امتلأت بهم الوزارة ، وأجهزة الإعلام الصحافى . ومحمود أمين من أول من قرؤوا الرواية ، وأعجبوا بها ، وإن أعلن ضيقه فى أحيان كثيرة من كثافة الفكر التقاريرى فيها . يقول : « يكاد الفصل المعنون (بنشيد الموت) أن يكون تعبيرا لغويا وصفيا تقريريا » (أخبار الأدب فى ٧ / ٥ / ٢٠٠٠).

٨ ـ قال العصفور: « إن البيان قام على انتزاع بعض الجمل من سياقها، وعمم معناها على الرواية كلها، بما يرفض السياق الكلى للرواية نفسها »، و « إن طابق البيان بين أقوال الشخصيات وموقف الكاتب » و« تطابق » بين الشخصيات المتخيلة والمؤلف » .

ولو كنت أستاذا صغيرا لقال لك قائل : أبن . فكلامك مبهم غير مفهوم ألم يقل المثقفون الحقيقيون بدلالة الجزء على الكل ؟! ويقول محمود أمين العالم : « على أننا لو دققنا النظر فى لغة الرواية ، سواء تلك التى ينطق بها أشخاصها ، أو يصاغ بها السرد العام لأحداثها ، فإننا نتبين أن وراء هذه الرؤية العامة المباشرة ، وأكاد أقول : الخارجية

رؤية أخرى لعلها تكون الجذر الحقيقى لهذه الرؤية الخارجية ، بل المضمون الخبيء للرواية كلها » (1) .

إن محمود العالم مفكر صاحب قضية لم يخنها - ولهذا قال رأيه الحقيقى فى الرواية ، وكانت الظروف مواتية ليتكلم بصدق ، فلم تكن الضجة المفتعلة قد قامت حول الرواية ، كما لم تكن التبريرات المفتعلة قد صدرت من المجلس الأعلى للثقافة من أجل الحصول على صك براءة رواية (وليمة لأعشاب البحر) .

محمود أمين العالم لم يزيف فكره ، فحكم على الرواية من خلال اللغة التى ينطق بها أشخاص الرواية ، ولغة السرد العام لأحداثها ، وتأثير الكاتب فى شخصياته . ولم يفصل بينهما ، كما لم يفصل بين المؤلف وشخصيات العمل الأدبى الفكرى فى الوقت نفسه الذى قدمه من خلال الرواية ، قدم الكاتب رؤية خارجية اشتملت العمل كله ، فاعتبرها الناقد : « الجذر الحقيقى لهذه الرؤية الخارجية ، بل المضمون الخبيء للرواية كلها » .

وبالإضافة إلى رأى محمود أمين العالم يمكن ضم شهادات أخرى لكتاب من جهة المثقفين الموالين للجبهة التنويرية العصفورية ، أى أنهم ليسوا من جبهة الأصوليين التكفيريين ، وليسوا من علماء الأزهر الذين يجهلون دروب الإبداع المراوغة . إنهم مفكرون وفلاسفة ومثقفون تنويريون . منهم : نصر حامد أبو زيد وفؤاد زكريا وسلمان رشدى ، وسارتر ، وغنيمى هلال ،وعبد الملك مرتاض ورئيس لجنة الحكم على الرواية الدكتور عبد القادر القط فى موضع شهادة أخرى .

١ - قال الدكتور نصر حامد أبو زيد - فى مداخلته فى الحوار الذى دار حول (وليمة لأعشاب البحر) ومسؤولية المؤلف عن الشخصيات : « لا يوجد من يسمى مفكرًا محايدا ، فدعوى حياد الفكر دعوى عدم التزام » (2) .

مع أن نصر حامد أبو زيد كان مؤيدا للرواية ، ولكنه مع ذلك رفض قول القائلين بعدم مسؤولية حيدر عما نطقت به شخصيات الرواية المتخيلة .

٢ - قال الدكتور فؤاد زكريا رأيا وإدانة معا فى وقت واحد :« إن هذا الكاتب يفتقر

---

(1) أخبار الأدب فى ٧ / ٥ / ٢٠٠٠ م .

(2) الأهرام العربى فى ١٣ / ٥ / ٢٠٠٠ م .

إلى الحس الاجتماعي ، وانعدام الحس الاجتماعي لديه هو الذي أوقعه في هذا الخطأ . فالكاتب يسعى قبل كل شيء إلى أن يجعل القراء ينحازون إلى وجهة النظر التي يعبر عنها ،وهذا يقتضي منه ألا يستعدى القراء باستخدام ألفاظ سوقية بذيئة يعبر بها عن مقدساتهم » (١) .

٣ ـ قال سلمان رشدى فى دفاعه عن روايته (آيات شيطانية) : « لا يملك مثقف مهما كانت دعاواه أن يتخذ لنفسه موقفا محايدا فى قضيته ؛ لأنها بذاتها الصراع بين قوى التنوير ، وقوى الظلام » (٢) .

سلمان رشدى لم يبرئ نفسه من التزامه فى روايته (آيات شيطانية) لأنه مثقف ملتزم بما كتب ، مع أن ما كتبه لاقى اعتراضا من المسلمين فى كل مكان ، بل كان سببا فى تهديده بالقتل .

٤ ـ ويؤصل الفيلسوف جان بول سارتر للالتزام فيقول : « يدرك الكاتب الالتزامى أن الكلام عمل ، ويعلم أن الكشف الأدبى نوع من التعبير ، وأنه لا يستطاع الكشف عن شيء إلا حين يقصد إلى تغييره ، وقد تخلى عن ذلك الحلم المتعذر التحقق من رسم صورة للمجتمع ، أو للحالة الإنسانية دون تحيز فيها ، فالإنسان هو المخلوق الذى لا يحتفظ موجود ما حياله بالحيدة » .

« وليس الكاتب بكاتب لأنه اختار التحدث عن بعض أشياء ، بل لأنه اختار التحدث عنها بطريقة معينة » (٣) ، « وفيه يرى ضرورة الالتزام باختيار رأى واتباعه » (٤) ، « وإنما أسمى الكاتب ملتزما حينما يجتهد فى أن يتحقق لديه وعى أكثر ما يكون جلاء وأبلغ ما يكون كمالا بأنه مبحر ، أى عندما ينقل لنفسه ولغيره ذلك الالتزام من حيز الشعور الغريزى الفطرى إلى حيز التفكير ، والكاتب هو الوسيط ، وإنما التزامه فى وساطته » (٥) .

ثم أتقبل شهادة د . عبد الملك مرتاض الحائز على دكتوراه من السوربون الفرنسية

---

(١) المصور فى ١٩ / ٥ / ٢٠٠٠ م.

(٢) ضمن مقال محمد حسنين هيكل : على أطراف الدين والسياسة والأدب ـ مجلة وجهات نظر ، يوليو ٢٠٠٠م.

(٣) سارتر : ما الأدب ص ٣٨ ، ٤١ ترجمة د . محمد غنيمى هلال ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ م.

(٤) تعليق د . محمد غنيمى هلال ـ هامش ص ١٣٥ ، المرجع السابق .

(٥) سارتر : ما الأدب ، المرجع السابق ص ١٣٦ .

ومؤلف لست روايات وصاحب لثلاثين كتابا فى الأدب والنقد منها (النص الأدبى) و(تحليل الخطاب السردى) و (قراءة النص) والأستاذ بجامعة وهران ـ ورئيس تحرير مجلة (تجليات الحداثة) وهذا يعنى أنه فى قلب التنوير بمفهومك . قال الدكتور عبد الملك مرتاض فى كتابه : (فى نظرية الرواية . بحث فى تقنيات السرد) : « حين يكتب أى روائى رواية ، فهو الذى يكتب ، وهو الذى ينشئ الشخصيات ، وهو الذى يتخذ لروايته ساردا فى بعض الأطوار السردية ،لكن المؤلف يظل حاضراً فى العمل الروائى ، فهو الذى يهندسه ، وهو الذى ينسجه ويدبجه ، ولا نحسبه يتحول إلى مجرد شخصية خيالية ، يتحول من خلالها إلى غير نفسه ، وإلى غير ما هو ، وإلى أى شىء، أى إلى شىء ».

« . . . لا أحد من العقلاء ينزع عنه صفة المؤلف ، فأى قارئ مستنير يدرك أن المؤلف متخفٍ وراء السرد ـ فهو حاضر بقوة ، فهو يشبه المخرج السينمائى ، فالساذج وحده هو الذى يتعامل مع شخصيات الشريط السينمائى دون التفكير فى المخرج الذى كان وراء كل حركة ، وكل صوت،وكل لقطة مثيرة وغير مثيرة فى الشريط ، لكن الذى يفهم العمل السينمائى يرى المخرج من خلال الممثلين والممثلات إنه هم،وهم هو ».

«إن الذهاب إلى القطع بذوبان المؤلف فى الشخصية الخيالية للرواية ، ليس حكما سليما بحيث يصدق على كل الأطوار السردية » .

« المؤلف ببساطة يكتب رواية مؤلفة من عدة حكايات وشخصيات ، وهو الذى يضع مكوناتها السردية،وهو الذى يعبر عنها بلغته الخاصة .فالشخصيات ليست المؤلف ، كما أن المؤلف ليس الشخصيات ، فهو السارد من الخلف فى الشكل السردى القائم على استعمال ضمير الغائب ، وهو السارد الحاضر فى سرده لدى استعمال ضمير المخاطب فـ (أنت) قد لا تعنى إلا نفسها أى الشخصية التى تنهض بالحدث ، أو التى يقع عليها الحدث ، أو التى تسهم دون سواها فى بناء الحدث ولكن ضمن بنية يهندسها مشرف ومنجز معا ، هو المؤلف » [١] .

« وإن الشخصيات تنفذ وتنجز ما يمليه المؤلف . . . فالمؤلف هو الذى يجعل الشخصية تتحدث ، وهو الذى ينطقها ويسكتها ، ويقيمها ويقعدها »[٢].

---

(١) د . محمد مرتاض : فى نظرية الرواية (ص : ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣) عالم المعرفة رقم ٢٤٠.
(٢) نفسه (ص ٢٦٨ ، ٢٦٩) .

وقد أجرى الدكتور مرتاض بحثه على الرواية منذ بلزاك وديكنز مرورا بأندريه جيد وجيمس جويس وكامو وأصحاب اللارواية مثل : إلن روب جرييه وناتالى ساروت وغيرهم أى كل تقنيات الكتابة الروائية التى عرفتها أوربا من النشأة حتى آخر القرن العشرين .

أتشكك أيها العصفور الرقيق فى كلام هؤلاء ، وهم من قلب تيار التنوير والتحديث ؟! ذلك التيار الذى تحمل شعلته وقيادته بصفة شخصية فى مصر ، وما والاها فى العالم العربى .

٥ ـ بقيت شهادة رأس لجنة الحكم فى الرواية الدكتور عبد القادر القط ؛ يتذكر طلابه فى الفرقة الرابعة بقسم اللغة العربية بآداب عين شمس سنة ١٩٧٢ أنه قال لهم فى محاضرة فى مادة النقد الأدبى : الرواية أو المسرحية تروى من خلال الشخصيات والسرد والحوار . ويكون البناء الروائى من خلال حدث أو أحداث وشخصيات وسرد وحوار وصراع . ويستمد الحدث أهميته فى العمل الفنى من أهميته فى الحياة ، بقدر ما يخلعه عليه الكاتب من دلالات سياسية واجتماعية وثقافية وغيرها ؛ لأن الحياة مليئة بالدلالات المختلفة، ومهمة المبدع أن يلتقط أحداث الرواية من ركام الأحداث فى الحياة؛ لأنه يحس أن فيه دلالة ، ومن خلال العزل والاختيار تبرر تلك الدلالة ، تبرر دلالات عمله وما يهدف إليه ، والحدث لا يتم فى المطلق ، ولكن لابد من شخصيات تحدثه ، وهى بيد الكاتب ، فالمبدع يرسم الشخصية من خلال حديثها وسلوكها ، وعلاقة الآخرين بها ، أو حديثهم عنها ، ولا تنفصل الشخصية فى هذه الحالة عن المكان والتاريخ والمجتمع . ولكى يجسد المؤلف الشخصيات يجب أن تكون مركبة تتنازع فيها النوازع ، وتختلط فيها الرغبات .

وموهبة المبدع مهمة ، وحذقه فى اختيار الموضوع ذى الدلالة المركبة البناء وفى طريقة السرد ، ورسم الحوار ، وأن يكون له هدف اجتماعى أو أخلاقى أو سياسى ونحوه ، من خلال مواقف يختارها بحذق ، وفوق كل ذلك يجب على المؤلف مراعاة اهتمام القارئ فى أن يجعله يجد فى أحداث الرواية متعة فكرية ، ووجدانية حقيقية ، وأن يحس فى سرد الكاتب للأحداث وتحليله لها وتعليقه عليها أنه أمام كاتب ذى بصيرة نافذة ، وفكر واع ، وإحساس صادق بالحياة ، فالصدق عنصر أساسى فى العمل الفنى ، بشرط أن يكون حصيلة خبرة حقيقية بطبيعة المجتمع الإنسانى والنفس البشرية ، ويكون

وسيلة للإبداع الفكرى ، والوجدانى ، وبدونه يحس القارئ أنه أمام صورة مزيفة . كذلك يجب على الكاتب أن يتجنب ما يعد فضولا ،أو حشوا،أو خروجا على ما تواضع عليه المجتمع من تقاليد اجتماعية ، وأخلاقية ، أو خروجا على أحداث العمل الفنى .

هل بعد كلام هؤلاء كلام ؟ وهل بعد كلام شيخ النقاد الدكتور عبد القادر القط كلام ؟!

٦ ـ قولك : « إن البيان يعكس عقلية فقهية لم تستطع أن تدرك المغزى الأدبى للرواية » .

وهذا القول من أكثر الأقوال تهافتا ، فهب أن أمر الرواية انتهى إلى هيئة تشريعية أو سلطة تنفيذية ، أو أن الأمر انتهى إلى القضاء ؛ لأنها مست معتقدا يقدسه المجتمع ، أو خلقا يتمسك به الناس فى المجتمع نفسه ، وطلبت الهيئة التشريعية أو السلطة القضائية أو التنفيذية أن تعتضد بفتوى من أهل الخبرة بالحلال والحرام ، قبل أن تصدر الحكم أيُرد هذا الطلب ؛ لأن الحلال والحرام تخلل عملا أدبيا ؟ أيكون الحكم فيه دون أعلم علماء المجتمع بالحلال والحرام ، ويطلب من الجهلاء (الأدباتية) الحكم فيه ؟!

أتعارض مجلس الشعب فى قراره بأخذ فتوى ممن لهم حق الإفتاء فى كل شأن دينى؟ وهل تطلب تعطيل القضاء والحكم فيه بحسب زعمك ؛ لأنه لا صلة معقودة بين القضاء والأعمال الأدبية والنقد الإبداعى ؛ ولأن القضاة بحكم مهنتهم فقهاء فى التشريع الإسلامى وفى القانون المدنى،ولا صلة لكليهما بالأدب الحيدرى على وجه الخصوص ؟ وهل إذا استشكل أمر فى قضية حول (وليمة أسنة) أيُعين للحكم فيها قضاة من الروائيين والنقاد ، ويشترط فى هؤلاء الروائيين أن يكونوا (أصلانيين) وفى النقاد أن يكونوا (حجازيين) لأن أمثالهم أعرف بمسالك الأدب المراوغة فيروغون فيها ومعها ومنها ؛ ولأنهم فوق ذلك مثقفون بثقافة مبتدعة يجهلها علماء الأزهر وفقهاؤه ، وهذه حقيقة لا يمارى فيها عاقل ؟

هل يُشْتَمُّ من كلامك أن فقهاءنا ومرجعيتنا فى شؤون ديننا قاصرو الفهم ، غير قادرين على فهم رواية (الوليمة) ولو تحلقوا حولها ، ومن ثم يجب إقصاؤهم عن منصة القضاء ، بل الإفتاء ، فيما أثارته من إساءات إلى الدين والناس ؟

أرأيت لو أن ابن رشد الحفيد ،الذى تصرون على أنه مفكركم ورائدكم العقلانى ، وحدكم ، ومن دون سائر المسلمين الإظلاميين،جاء ليحكم فى قضية (وليمة الشيطان)

أكنت مقصيه؛ لأنه كان فقيها عظيما ألف كتابا مهما فى الفقة المقارن تحت عنوان: (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) ؟

تبا للعقول الجوف .

٧ - دعوت إلى الجنس ، وسلطان الجنس الذى امتلأت به الرواية ، واستشهدت بابن قتيبة فى مقدمة (عيون الأخبار) حين قال مخاطبا القارئ قائلا : « إذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة ، أو فرج أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن [تصعر خدك] وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء ، لا تؤثم ، وإنما المآثم فى شتم الأعراض وقول الزور ، والكذب ،وأكل لحوم الناس بالغيب » (١) .

وهذا الكلام عن ابن قتيبة شهادة ضدك ،وليست لك ؛ لأن كاتب الرواية المشؤومة أفصح عن العورات ، ووصف الفاحشة بلا مبرر . ثم إنه شتم الأعراض ، وقال الزور وكذب على الله سبحانه ،وعلى أنبيائه وعلى المسلمين جميعا والعرب خصوصا ، وأكل لحم الناس عامتهم وخاصتهم بالغيب وقد يكون القول فى الجنس مقبولا إن كان له علة؛ لأن الجنس مهم لدوام الأحياء ولولاه لانقرض الخلق وفنيت الموجودات الحية . ولهذا فطره الله تعالى فى مخلوقاته لبقاء التناسل وعمار الكون،ولكن هل أباح ابن قتيبة الذى استشهدت بكلامه البغاء الوبائى كما فعل حيدر حيدر فى (الرواية الشيطانية) التى صورت البغاء بصورته الوحشية ، وجعلت الزنا غاية من غاياتها . فلم تجعل الجنس وسيلة شريفة لغاية نبيلة ، عن طريق الزواج الشرعى الذى ندب إليه الإسلام . ولقد نبه علماء المسلمين وفقهاؤهم إلى مقاصد الشريعة الإسلامية إلى أهمية هذا المقصد ، أى مقصد (حفظ النسل). ومن هنا فقد حرضت الشريعة الإسلامية على الزواج ونهت عن العزوبة ؛ لأن النكاح فطرة غرسها الخالق فى خلقه ، قال الإمام أبو حامد الغزالى فى ذلك :« إن فضيلة النكاح لأجل التحرز من المخالفة تحصنا من الفساد ، فكأن المفسد لدين المرء فى الأغلب فرجه ، وقد كفى بالتزويج حرزا وحظرا من الوقوع فيه » (٢) .

وقال ابن القيم فى كتاب الفوائد : « وأكمل الناس لذة من جمع بين لذة القلب والروح ولذة البدن ، وهى اللذة التى بينها الرسول ﷺ فى حديثه للذين يتشددون فى العبادة ، فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة ، ولا يقطع

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار . المقدمة ص : ى .
(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين ٢ / ٢٣ بتحقيق بدوى طبانة - ١٩٥٨م .

عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه » [1] .

الإسلام لم يرفض الجنس ، ولم يطالب بحرمان البشر منه ، وهذا ما فهمه فقهاء المسلمين كالغزالي وابن القيم وابن قتيبة وغيرهم - في مجال الحلال . ولكن هل فهم حيدر ومشايعوه هذا الفهم الجميل الذي فهمه ابن القيم حينما قال : « استمتعوا بلذات الدنيا ، وجعلوها شاغلهم ، فانقطعت عنهم لذة الدنيا ، وفاتت لذة الآخرة ، فلا لذة الدنيا دامت لهم ، ولا لذة الآخرة حصلت لهم » [2] .

ما رأيك في هذا الكلام الذي نطق به شيوخ الإسلام وفقهاؤهم ، والذي قبله المسلمون منهم جيلا بعد جيل. أعلمت كيف أن شريعة الإسلام رحبت بالجنس، ورفعت من شأنه لأسبابه ،ولم تحرم الإنسان من متعة التلذذ به ما دام في مواضعه الحلال ، ومآتيه الصحيحة. بل جعلت لفاعله مع امرأته أجرا فقال ﷺ :« إن في بضع أحدكم لأهله صدقة » .

ولكن يجب أن يضم إلى ما قلت ، وما قلناه ضميمة ، فاتك ذكرها أو فوتها ، ولم نفوتها أما هذه الضميمة : فإنك يا دكتور عصفور ذكرت إشارة ابن قتيبة أي التي ذكرها بنفسه في مقدمة كتابه عيون الأخبار - إلى ذكر الجنس في الكتاب،واعتقدت أنك وجدت في كتاب من كتب السلف - التي تبغضها - ضالتك التي تعضد سعيك إلى استصدار صك براءة حيدر مؤلف الرواية ، من الوقاحة الظاهرة في استخدام الجنس - هذا غير صحيح ، فابن قتيبة لم يشر إلى الكلمة من قريب أو بعيد ، إنما أشار إلى أن ذلك من الهزل . أي أن ذلك من الهزل المذموم قال ابن قتيبة في مقدمة الكتاب :« فإذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه ، أو تضحك له ، فاعرف المذهب فيه ، وما أردنا به » .

الكتاب كله في جد الأمور إلا صفحات قليلة فالمجلد الأول على سبيل المثال في أجزاء ثلاثة كل جزء في كتاب مثل: الجزء الأول: كتاب السلطان من ص ١ إلى ص ١٠٦ والجزء الثاني : كتاب الحرب من ص ١٠٧ إلى ص ٢٢٢ والجزء الثالث : كتاب السؤدد من ص ٢٢٣ - ٣٤٤ وتسير مجلدات الكتاب الأربعة على هذه الوتيرة .

وفي مقدمة عيون الأخبار بيّن ابن قتيبة - رحمه الله - منهج كتابه وهدفه من تأليفه

(١ ، ٢) الفوائد لابن القيم ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

فقال : « وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدبا ، وللملوك مستراحًا من كد الجد والتعب .

وصنفتها أبوابا ، وقرنت الباب بشكله والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وعلى الناشد طلبها ، وهى لقاح عقول العلماء ، ونتاج أفكار الحكماء ، وزبدة المخض ، وحلية الأدب ، وأثمار طول النظر ، والمتخير من كلام البلغاء ، وفطن الشعراء ، وسير الملوك وآثار السلف . جمعت لك منها ما جمعت فى هذا الكتاب لتأخذ نفسك بأحسنها ، وتقومها بثقافها وتخلصها من مساوئ الأخلاق ، كما تخلص الفضة البيضاء من خبثها ، وتروضها على الأخذ بما فيها من سنة حسنة ، وسيرة قويمة ، وأدب كريم ، وخلق عظيم »[1] .

أرأيت يا دكتور عصفور لو أنك وازنت بين ما جاء فى كتاب : عيون الأخبار من إشارة إلى الجنس (بزعمك) وبين ما جاء فى (الوليمة العفنة) فماذا تجد وكيف تجدك ؟ ستجد بلا شك وبلا مشقة أن ابن قتيبة وظفه فى موضعه لضرورة موضوعية ،أما حيدر فلم يعنه من أمر الجنس ، إلا ما انفرجت عنه ساقا (فلة بوعناب) بما تفتق عنه عقله ونفسه القلقة غير المطمئنة . إنه مؤلف كانت له قدرة على تقديم نماذج تضاد الذوق العام وكم كانت فى رأسه مليئة بصور شريرة .

أما الدكتور عصفور بالدفاع عنه قد نصب لنفسه فخاخا لا فخا واحدا ، وهيهات أن ينجو .

٨ ـ وتزعم « أن البيان قام على قراءة تحريمية للنص ، تحت وطأة عاصفة التكفير السائدة » .

ـ كيف تقول بذلك وأنت مسلم يعيش فى مجتمع مسلم لا يكفر عاقل فيه مسلما. والشرع الإسلامى الحكيم ينهى المسلم عن ذلك. والقاعدة الشرعية : إذا كفر مؤمن مؤمنا باء بها أحدهما . والناس عدول إلا أن يثبت عكس ذلك بدليل قطعى ؛ لأن الإسلام يدعو إلى الأمان والاستقرار . ودعو التكفير تدعو إلى الاضطراب والفوضى والفتنة . ومجتمع المسلمين خاصة بمصر يرفض دعوة التكفير ـ وإن كنت لا تتذكر موقف المصريين من هذه الدعوة نذكرك. لما قامت دعوة شكرى أحمد مصطفى التكفيرية

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ص : ى ، ح ، ط .

رفضها العامة والخاصة فى مصر ، قبل أن تقف لها الحكومة وتقضى عليها . ولما قضت عليها الحكومة مشكورة سعد الناس جميعا وحمدوا الله وكبروا - وفى تاريخ الإسلام كله لم يكفر مسلم بغير دليل شرعى ، وبغير حكم قضاء عادل ولنذكرك بموقف علما الأزهر الشريف من سلمان رشدى - بعد أن كتب رواية (آيات شيطانية) لم يكفره الأزهر الشريف ؛ لأنه لم يمْثُل أمامه ليحاوره ويسمع منه ليحكم فى أمره . وفعل الأزهر الشريف الشىء نفسه مع حيدر حيدر ، فلم يصدر بيانا بتكفيره ، والبيان الذى وقعه فضيلة الإمام الأكبر بين يديك ، مع أن البيان أكد على أنه كل ما جاء بالرواية يعد خروجا على معلوم من الدين بالضرورة . حتى فتوى الشيخ يوسف القرضاوى الفقيه الأشهر التى نشرتها صحيفة الأسبوع القاهرية فى صفحتها الأولى فى ٢٢ / ٥ / ٢٠٠٠ كفرت ما جاء بالرواية، ولم تكفر مؤلفها ؛ لأن ذلك يحتاج إلى حكم قضاء لا فتوى .

أما قولك : « إن البيان ينطوى على عدم ثقة بمعتقدات المسلمين ، ومن ثم افتراض أن الرواية يمكن أن تثير الفتن ، وتزعزع تماسك وحدة الأمة » .

أما الجزء الأول من الفقرة :« إن البيان ينطوى على عدم ثقة بمعتقدات المسلمين » فهذا غير صحيح ،فلا يزال الأزهر حامى حمى الإسلام فى العالم كله ، ولا يزال الناس فى مصر محصنين بقوة الاعتقاد فى الدين ، وبقوة الثقة فى الأزهر الشريف ، وهذه الحصانة الاعتقادية راسخة فى نفوسهم ،وهى التى ستعيد لهم العزة إن شاء الله .

إن المسلمين يثقون بالأزهر ، ويرون فيه منارتهم الهادية إلى الحق .

أما الفقرة الثانية : « افتراض أن الرواية يمكن أن تثير الفتن » فهذا صحيح فقد أحدثت الرواية أزمة ، والأزمة كادت تحدث فتنة . وما الحال التى انتهى إليها الصراع الدائر بين من نعتوا أنفسهم بالمثقفين ، ومن اتهموا بأنهم إظلاميون لخير دليل ، والله المستعان .

* * *

إن أغبى شىء جاء فى مقال جابر عصفور ولجنته ومقال د . صلاح فضل : مقالة أنهم أفهم الناس لرواية (وليمة لأعشاب البحر) وأنهم أدرى الناس بمعايير الحكم عليها وأنهم أخبر الناس بمسالكها المراوغة ، وأن غيرهم عاجزون عن كل ذلك . ألا تبا للرجال الجوف الذين يتعالمون وما هم بعالمين .

اللجنة شكلها د . جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة بتكليف من وزير الثقافة من الأساتذة الدكاترة : عبد القادر القط وأحمد هيكل ومصطفى مندور وأحمد عمر هاشم وصلاح فضل وكامل زهيرى .

ويبدو أن التقرير من صنع جابر عصفور. وصلاح فضل والدليل :

١ - أن أحدا ممن وقع على التقرير لم يرد على من رفضوه ولم يدافع عنه اللهم إلا جابر عصفور وصلاح فضل . بل إن الروائى الشهير عضو اللجنة كامل زهيرى هاجم رواية (وليمة لأعشاب البحر) وهاجم مؤلفها . بعد أن وقع على التقرير . (قيل : إنه وقع والله أعلم بما وقع) .

٢ - انسحاب كل من الأستاذ الدكتور أحمد هيكل من المشاركة فى عمل اللجنة متعللا بالمرض ، والأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم حتى لا يعضد رواية نطقت بمنكر إن لم تكن المنكر نفسه ، حرصا على نفسه وهو رئيس جامعة الأزهر التى أعلنت رفض الرواية بمظاهرة .

٣ - الدكتور عبد القادر إذا كان قد شارك فى كتابة التقرير ، يكون قد خالف مبدءاً آمن به ، وعاش له . فقد حكم فى أزمة سبقت أثارتها رواية (الخبز الحافى) قال : وكان متحررا من كل قيد أو ضغط : « إن السيرة الذاتية سواء كانت قريبة من الفن الروائى ، أم بعيدةٍ عنه ، ليست مجرد تسجيل لما جرى لصاحبها من أحداث التافه منها والمكرر والمتشابه ، بل هى اختيار لما كان له أثر فى بناء شخصيته ، أو تكوين فكرة ، أو توجيه عاطفة ، أو ما كان فيه تعبير عن طبيعة العصر ، أو صورة الحياة فى مواطن الشخصية ، أو تقديم لبعض المواقف الاجتماعية أو النماذج البشرية » .

مارس صاحب الرواية منذ طفولته أعمالا تفرض عليه تجارب إنسانية ومواقف دالة تقدح فى نفسه . وعى اجتماعى مبكر ، ووعى إنسانى ناتج عن معاناة الشخصية ، إلا أنه لم يخرج عن نمط معين الجنس المبتذل المتكرر محور حياته فى بيوت الدعارة العامة، يخرج من تجربة إلى تجربة بصورة آلية ، وأحيانا شاذة تثير التقزز .

« كل هذا فى أسلوب مباشر غليظ المفردات ، وركيك البناء ليس فيه شيء من تلطف الفن أو الاكتفاء بالإشارة الدالة أو الرمز المعبر . . . السيرة تزخر بقبح الشعور وضعف التعبير » .

« وهذا العمل الروائى بعيد عن منهج الفن الذى يقوم على الاختيار الواعى لمشهد

يحمل دلالة ، أو لشخصية ترمز إلى انتماء ، أو واقعة فريدة تغنى عن التكرار ، ولا ينبغى أن يبلغ القص إلى إثارة النفور من القبح حدا يتجاوز الإحساس النفسى ، أو الوعى الفكرى فينتهى إلى نفور مادى عند القارئ ، قد يبلغ حد الغثيان الذى لا يصرفه عن مواصلة القراءة فحسب بل يثير السخط والإحساس بالمهانة « وفى ظنى أن للمصطلحات النقدية الحديثة دورًا ملحوظا فى خلط المبدعين بين الواقع والفن ، ومن تلك المصطلحات الشائعة فى السنوات الأخيرة مصطلح لغة الجسد الذى فتن به كثير من الأدباء فظنوا أن مجرد الحديث عما يحظر العرف والتقاليد الخلقية السائدة سبيل إلى الحداثة . إن لكل مجتمع أعرافا ومبادئ (لياقة) سائدة تختلف من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى بيئة ، ومن طبيعة إلى طبيعة ، وليس فى الاحتجاج على ما يخرج عليها ما يتصل بحرية الأديب ، فليست هناك حرية مطلقة بلا حدود ، وإلا ما تعايش الناس، ويبقى المعيار والفيصل بين ما هو مشروع ومقبول ، وما هو موضع تساؤل ، الفرق بين التسجيل والفن » [1] .

هكذا تكلم القط فى (الخبز الحافى) الذى غلب عليه الشذوذ بأسلوب غليظ مكرر . وهذا الكلام يخالف رأيه فى التقرير الذى شارك فى كتابته عن رواية (وليمة لأعشاب البحر) التى جمعت كل أنواع الشذوذ: الجنسى والعقدى والسياسى وغير ذلك. فهل يعقل أن يرفض د . القط عملا أدبيا شاذا كرواية (الخبز الحافى) - ويقبل عملا أشد سفولا وشذوذا ويقرظه فى بيان أو تقرير شارك فيه اللجنة التى شكلها د . عصفور (لرواية الوليمة) .

إن رواية (الخبز الحافى) رواية سافلة، وأسفل منها رواية (وليمة لأعشاب البحر) فهل يرفض د .القط دركا فيه سفول (الخبز الحافى) ويقبل دركا أكثر سفولا وانحطاطا (وليمة لأعشاب البحر) .

٤ - أما موقف الروائى كامل زهيرى - عضو اللجنة - قد كان ظاهر الرفض للرواية ومؤلفها بعد إعلان التقرير، فصرح بأن الرواية مملة ، ومليئة بالجنس بإفراط بدون مبرر ، وأن كاتبها لا يرتفع إلى درجة كبار الكتاب . وكامل زهيرى من أهل الصنعة ، الذى يعرف مسالكها ودروبها المراوغة - كما يعترف د . عصفور ولكن رأى كامل زهيرى فى

---

(١) الأهرام ٩ / ٦ / ١٩٩٩م.

جوهره يوحى أنه وقع على التقرير بدون قناعة . بل بضغط من الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة . إذا كان وقع .

٥ ـ ويبقى د . مصطفى مندور ، ود . صلاح فضل .

فأما د . مصطفى مندور فسيسر لأحد أصدقائه فى مكان منعزل عن رأيه الصحيح فى الرواية . ولن يبقى إلا د . صلاح فضل الحائز على جائزة الدولة ٢٠٠٠ م ، وقد يفوز بجائزة أخرى سنة ٢٠٠١ م .

الفصل الثالث

شهادات محايدة على هامش الحوار حول الوليمة

شهادات محايدة على هامش الحوار حول الوليمة

(١)

ربما لم يكتب هذا العنوان بدقة محسوبة ؛ لأنه لا يوجد مفكر محايد ، إلا أنه لا يعد بعيدا عما يراد منه . فأصحاب هذه الشهادات لم يكونوا طرفا فى الرأى والرأى المضاد حول الرواية فى أول الأمر ، ولم يكن دافعهم فى اقتحام ميدان الخلاف الذى دار حول الوليمة لذاته ، فبعضهم تدخل بحكم موقعه الفكرى والأدبى فى الصحافة مثل الشاعر فاروق جويدة والأستاذ فهمى هويدى وما كان لهما أن يتخليا عن دورهما الفكرى والإبداعى وقت أن حدثت اشتباكات حول (الوليمة) فى كل الصحف المصرية . وبعضهم طلب منه بإلحاح أن يدلى بدلوه مثل الدكتور محمد سليم العوا والأستاذ محمد حسنين هيكل .

وهناك أصوات جاءت من بعيد ، ومن ثم كانت خافتة كصوت رضوان السيد من لبنان ، وراشد الغنوشى زعيم حركة النهضة الإسلامية بتونس ، وعزام التميمى مدير معهد الفكر الإسلامى بلندن ـ وكمال الهلباوى الناطق بلسان الإخوان المسلمين بأوربا سابقا ، ومع أن هذه الأصوات جاءت من بعيد إلا أنها أصوات إسلامية مؤثرة .

كما دخل الحلبة آخرون لتعضيد موقف وزارة الثقافة ولكن بهدوء أمثال : إبراهيم نافع نقيب الصحافيين ورئيس تحرير الأهرام كبرى الصحف العربية وأهمها؛ لأنها ناطقة بلسان الحكومة، بمقاله فى ١٢ / ٥/ ٢٠٠٠ استنكر فيه موقف جريدة الشعب وحملها تبعة إثارة موضوع (الوليمة) بصورة مهيجة لمشاعر الناس ، ووجه الاتهام إلى جريدة الشعب بأنها تظاهرت بالدفاع عن القيم الدينية والأخلاقية فى الظاهر ، وقصدت فى الباطن إلى إثارة إشكاليات سياسية ، من أجل الحصول على مكاسب حزبية . خاصة وأن الانتخابات التشريعية على الأبواب .

(٢)

المداخلات المهمة بحسب تواريخ نشرها

١ ـ الشاعر فاروق جويدة بمقال الثقافة : الجادة (الأهرام فى ٧ مايو ٢٠٠٠) .

٢ ـ الأستاذ فهمى هويدى بمقال : خطوطنا الحمراء وحروبنا الأهلية (الشعب فى ١٩ مايو ٢٠٠٠).

ومقال الاستنارة المظلمة (الأهرام فى ٢٣ مايو ٢٠٠٠) .

٣ ـ د . محمد سليم العوا بمقال : أعشاب وطحالب فى حياتنا الثقافية (مجلة وجهات نظر يونيه ٢٠٠٠) .

٤ ـ الأستاذ محمد حسنين هيكل بمقال : على أطراف الدين والسياسة والأدب فى (مجلة وجهات نظر يوليو ٢٠٠٠) .

(٣)

الشاعر فاروق جويدة يتكلم بحس الشاعر ، وحكمة العقلاء ، وبأسلوب قاطع العبارات لا يعرف الالتواء يحذر من أن تحدث فتنة تفوق فى ضررها فتنة الإرهاب التى مر بها الوطن الغالى . ويحذر من « أن تكون خسائرها أكبر بكثير من كل ما فعله الإرهاب » .

وينبه إلى وجود أقلام دأبت عمدا « على الهجوم على الإسلام : الدين والعقيدة والرموز والتاريخ »؛ لأن هذه الكتابات لن تخدم الوطن ، وكأن هؤلاء الذين يهاجمون الإسلام بقصد وسوء نية لا يقلون خطورة على الوطن عما يفعله الإرهاب ، فكلاهما مدمر لأمن الوطن الحبيب واستقراره .

وينبه إلى أهمية التفريق « بين الإسلام الدين ، والإرهاب الظاهرة » .

الإسلام دين المسلمين آمنوا به دينا (عقيدة وشريعة) ، ولكن هؤلاء الذين دأبوا عامدين على الهجوم على الإسلام ورموزه ، يريدون خلط الأمور على الناس وإيهامهم بأن الاسلام والإرهاب ، والإسلام والتخلف وجهان لعملة واحدة .

يحذر فاروق جويدة من الشرك الذى ينصبه هؤلاء الذين يربطون الصلة بين الإسلام والإظلام،ويحرضون الدولة على الإيمان بهذه الفكرة.ويطالب هذه الكتابات بأن تكف عن الكتابات الخادعة؛لأنه « لا يمكن أن يكون بين الدولة والإسلام عداوة ، ومن الخطأ أن يحاول البعض بأساليب رخيصة إيجاد هذه العداوة،وإن هناك جوانب أساسية توضح موقف الدولة التى لا يمكن أن تعادى الإسلام دينها،أو تتخذ ضده موقفا » .

« إن الإسلام مازال حتى الآن الدين الرسمى للدولة المصرية ، وكل القوانين والتشريعات والمواقف والسياسات تؤكد ذلك ؛لأنها تعبر من خلال هذا المنظور الواضح الذى لا خلاف حوله ولا جدال ».

أما هؤلاء الذين نعتوا أنفسهم بالمثقفين هم أخطر على الوطن من معاول الهدم لأنهم وجهوا اتهامات باطلة إلى علماء الأزهر الشريف ، فوصفوهم بالجمود ، ووصفوا أحكامهم بأنها أحكام تحريمية كأن غريزة شريرة تنطق بها،وإن هؤلاء المزايدين بغطاء الثقافة لا يريدون للوطن أمنا ولا استقرارا ، يتصورون أنهم بالهجوم على الأزهر الشريف ، وعلى المقدسات الدينية يهيجون عليهم أصحاب السلطات التنفيذية ، إنهم فى الواقع يثيرون بحماقاتهم خصومات لا مبرر لها ، وهم بذلك يبعدون عن روح الثقافة الحقيقية التى تبنى ولا تهدم؛ « لأن المثقف الحقيقى هو الذى يجنب وطنه العثرات ،فما بالك بمن يلقى به فى دوامات من الصراع والنتائج غير المحسوبة ؟ » .

ماذا يقصد هؤلاء المثقفون بكتابات تشن هجوما ضاريا على رموز الوطن الإسلامية، وتسخر منها،إنهم يقصدون إسقاط هيبتهم فتسقط أعمالهم العظيمة التى قدموها للوطن، إن منهم المثل العليا التى قادت حركات التحرير الوطنية،وإن منهم قدوة حسنة للشباب ، وبإسقاط الهيبة عنهم تضيع القدوة ، فتنشأ أجيال الشباب دون أن تكون لهم قدوة أو أسوة فتكون أجيالا ضعيفة غير قادرة على التفكير الصحيح ، غير قادرة على الإبداع .

الحكاية ليست حكاية ولا رواية (وليمة لأعشاب البحر) إنما هى حالة من الفوضى افتعلها المثقفون الالتفافيون الزاعمون الدفاع عن (الوليمة) ؛ لكى يشنوا هجومهم على الإسلام ورموزه الدينية خاصة من علماء الأزهر الشريف ، وكل ما يتعلق بالمقدسات الإسلامية . مما أكد بحسب قول الشاعر فاروق جويدة على أنهم يكنون « العداء السافر للإسلام » .

ثم ماذا بعد حالة الفوضى التى أحدثها المثقفون الالتفافيون ، التى يمكن أن تؤدى إلى الدمار ، إن هذه الحالة تكشف عن الأسباب التى أدت إلى نشر رواية لا قيمة فنية لها ، ولا إبداع فيها ، وعن الهدف من نشرها . كأن الهدف من نشرها لم يكن إلا مجرد ذريعة لإحداث الأزمات والفتن بين الالتفافيين ، والرموز الإسلامية . ذريعة هجوم ضار أعد له لضرب المقدسات الدينية ، وعلماء المسلمين وكيان الأزهر الشريف نفسه ، بمال الدولة « من ميزانية أجهزتنا الثقافية » وبدلا من إنفاق هذا المال من أجل

كشف نبوغ لدى شبابنا الذين يبحثون عمن يأخذ بأيديهم ، تنفق فى مقامرة غير محسوبة يقول الأستاذ فاروق جويدة : « هل يعقل أن نترك كتابات عشرات المبدعين الشباب من المصريين وننفق أموالا خصصتها الدولة ، على رواية رديئة لكاتب سورى أثارت جدلا واسعا حول قيمتها الفنية ، ما هى الحكمة من نشر أعمال أدبية شاذة لأشخاص مرضى يعانون أمراضا نفسية وجنسية ؟ إن مصر كعبة الثقافة العربية ، وصدور رواية أو قصة لكاتب عربى من قاهرة المعز تعد تتويجا لمسيرته واعترافا بقيمته . ولكننا فى مصر الآن ننشر لمن هب ودب ، ولم يكن غريبًا أن تتسلل نماذج ساقطة كان منها رواية (الخبز الحافى) لمحمد شكرى ، تحكى ذكريات رجل شاذ جنسيا ، فرضت ضمن مناهج التعليم بالجامعة الأمريكية حيث يدرسها أبناؤنا ويؤدون الامتحانات فيها . ثم كانت أخيرًا رواية (وليمة لأعشاب البحر) وهى كارثة أخرى.فى سجل الأعمال غير المدروسة التى تنشرها مؤسساتنا الثقافية » .

كأن الأستاذ فاروق جويدة يتساءل: لماذا يتم اختيار مثل هذه النماذج ؟ وما الحكمة فى اختيارها مع انحدار قيمتها الإبداعية ؟ إن أحدا لا يقف ضد الإبداع بشرط أن يكون إبداعا مسؤولا مترفعا لا مبتذلا ورخيصا ومسموما وشاذا ، ولكن الالتفافيين كونوا تيارا محموما فى تشجيعه للنماذج الرديئة التى لا تهتم إلا بالجنس ونوبات الشذوذ بلا فكر وبلا هدف ؛« لأنها تعكس أمراضا نفسية يحتاج أصحابها إلى مصحات ، وليس إلى دور نشر ، وكتاب ونقاد وقراء ومؤسسات ثقافية تملكها الدولة » .

هل يمكن أن يكون سب مقدسات الإسلام إبداعا ، ينشر على حساب الشعب ومن ماله؟ أيساء إلى مقدسات الإسلام،ويدفع الشعب الثمن،وبيد وزارة الثقافة ومؤسساتها؟ أرأيت « لو أن شخصا قرر أن يطبع كتابا [حزبيا] وقرر أن يثأر فيه من الحزب الوطنى ، ويشوه رموزه هل يجد فى أجهزة الثقافة من ينشره له ؟ ».

« وهل يعقل بعد ذلك أن تسمع بكتابات تتجرأ على الله ورسوله وأنبيائه ويقال : إن هذا يدخل فى نطاق حرية الإبداع ؟ هل الحرية أن تروِّج نماذج للشذوذ الفاضح؟» .

إن من يروجون لمثل هذا الغثاء من الكتابات الرديئة يظنون أنهم يقيمون صرحا للاستنارة ، ويقضون على إظلام متوهم ، وهذا عبث ومضيعة للمال والوقت ؛ لأن طرح التنوير بالشذوذ دعوة للسقوط لا للاستنارة ، وإنما تكون الاستنارة بالقيم الرفيعة ، والسلوك النبيل ، والحوار بالتى هى أحسن ، إن إعلان الحرب على مقدسات الدولة

ومعتقدات الناس لا ينتج إلا شرا ، ولا يولد إلا عنفا واضطرابا .

هؤلاء الالتقافيون متأثرون بما وصل إليه فكر الغرب ، مع أن الغرب بنى فكره على أسس تراكمت فى ثقافته فى ظل ظروفه وحالاته . وبناء على ما حدث فى الغرب من تطور ، وتطورت الأبنية الأدبية فيه ،وأثرت التطورات والتحولات فى الواقع الإنسانى : النفسى والمعرفى والفكرى والاجتماعى فى وسائل التعبير ،وكادت الحدود أن تنمحى بين أصناف التعبير ، ولكن هل حركة المجتمع التى تفككت فى الغرب قد حدث لها الشىء نفسه عندنا ؟ وهل كان تطور القيم والمبادئ والمثل العليا الأخلاقية فى أوربا قد حدث مثيله فى مجتمعنا ؟ وهل نحن مستعدون للتخلص من تراثنا الدينى كله وتراثنا الأخلاقى الملتزم بتعاليم ديننا ؟ هذا هو محور الخلاف بين من يدعون إلى التمسك بالقيم ، ومن يدعون حذو المثال الغربى بكل شذوذه من دعاة الاستنارة الموهومة .

(٤)

الأستاذ فهمى هويدى دخل معترك الوليمة بمقالين أولهما : نشر بجريدة الشعب فى ١٩ مايو ٢٠٠٠ بعنوان : « خطوطنا الحمراء وحروبنا الأهلية » .

وثانيهما :نشر بالأهرام فى ٢٣ مايو ٢٠٠٠ تحت عنوان « الاستنارة المظلمة » .

فهمى هويدى أحد كتاب الأهرام الأساسيين ، يعده القراء من تيار التفكير الإسلامى غير التنظيرى الذى يطلقون عليه تيار التفكير الإسلامى المعتدل . ومع ذلك فإن صحيفة الأهرام التى يعمل بها كاتبا (صاحب صفحة أسبوعية) لا تنشر كتاباته فى حالات كثيرة ، على اعتبار أنها من الكتابات الدينية الغالية ، التى تغضب بعض الجهات المؤثرة فى الحياة السياسية .

إذا عدنا إلى المقالين المذكورين أعلاه بدا من قراءة العنوانين إيحاءً بأن كلا من العنوانين يخالف الآخر فى موضوعه ، والحقيقة فهما يتداخلان ويتفاعلان ، وكل منهما لا يستغنى عن الآخر . وربما أراد الكاتب أن يقول : إن ما جاء فى المقال الأول نتيجة لما احتواه المقال الثانى،ولا يعنى هذا أن الكاتب عكس الترتيب التاريخى لكل من المقالين. ولا يعنى أيضا أن التقديم والتأخير فى الترتيب يؤدى إلى الإخلال بالمفاهيم التى تضمنها المقالان . وكانت عناصرهما قد نضجت فى تفكيره ، قبل أن يعبر عنها كتابة .

لقد قام المثقفون الالتفافيون بالهجوم على كل من رفض ما جاء برواية (وليمة لأعشاب البحر) وظنوا أنهم قضوا بهذا الهجوم على آخر حصون التفكير الدينى. وظن هؤلاء الالتفافيون أنهم حققوا نجاحا ساحقا على كل قوى التفكير المضاد ، وظنوا أن تيارهم الفكرى قادر على أن يجرف فى طريقه كل ما بقى فى عقول المتدينين .ولكن هذا التيار فوجئ بأن الناس على غير ظنهم فيهم ،فتحولت حملتهم من مجرد حملة دفاع عن رواية نكرة لا قدمت ولا أخرت فى سوق الأدب ، إلى حملة إبادة للتفكير الإسلامى ترفع شعار التنوير والثقافة لقتل الجمود والقضاء على الإظلام بزعمهم ؛ لأن التفكير الإسلامى لم يعد صالحا للعصر .

وكان على فهمى هويدى أن يدافع .

بدأ فهمى هويدى مقاله الأول [بحسب تاريخ النشر بصحيفة الشعب فى ١٩ مايو ٢٠٠٠) بإعلان البراءة من فعل محمد عباس التهييجى ، وكذا عادل حسين ومحمد القدوسى ، وكل العاملين بصحيفة الشعب لأنهم أثاروا الناس وهيجوهم ، حتى كادت تحدث فتنة شعبية؛لأن تلك الإثارة (بتعبير فهمى هويدى) « هى أكثر ما أساء إلى القضية حتى صرفها عن مسارها ، الأمر الذى جعل البعض يشتبكون مع صدى الحدث ويديرون ظهورهم للحدث ذاته » .

وكان فهمى هويدى بعد أن أصدر حكمه فى محمد عباس وصحيفة الشعب مثل حكم كرة القدم الذى احتسب ضربة جزاء على أحد الفريقين دون أن يتأكد من صحة قراره ومع أن القرار نفذ ، فقد التمس العذر لصحيفة الشعب ومحرريها لأنه لم ير أن يقف عند حدود رد الفعل ، ويتجاهل الفعل نفسه الذى هو أصل الإشكال وأساسه .

إذن كل من الطرفين دائن ومدين ، فمع أن الطرف المهيج هيج الدنيا فتظاهرت طالبات الأزهر ثم تظاهر طلابه . واستُنفر مجلس الشعب ـ خاصة لجنته الدينية ، وتحركت الدولة بكل مؤسساتها تترقب ما يمكن أن ينتج عن هذا الخطب الجلل . وتحرك القراء من كل اتجاه ومشرب ، ليعرفوا كيف تدور الأحداث ، ويعرفوا نتائجها .

من الذى استنفر كل هؤلاء وأولئك جميعا ؟

سأل فهمى هويدى نفسه ثم أجاب : محمد عباس . ثم أضاف : لولا حجر محمد عباس الذى ألقاه فى الماء الراكد ما تحرك الماء من ركوده ، ويقول فهمى هويدى: « ورب قائل يقول : إن الأحجار وحدها هى التى تحرك المياه الراكدة، ومن ثم فإن السكون

الذى ران على الحياة الثقافية ، وأدى إلى تمرير هذا النوع من الخطاب فى كتابات عدة ، ما كان لوتيرته أن تنكسر إلا من خلال صدى ، بتلك الدرجة من الحدة والانفعال » .

ومع أن الأستاذ فهمى هويدى يقر بأن أسباب التهييج لا يعلمها إلا الله ، إلا أن الظن قائم بأن تكون أسبابه ما وجه إلى المهيجين من خصومهم من اتهام بأن المحرض عليها بالدرجة الأولى أسباب سياسية حتمها اقتراب الانتخابات التشريعية . يقول فهمى هويدى : « لا أستطيع التثبت من الأمر ، أما التساؤل عما إذا كانت الحملة جزءا من مؤامرة أصولية ظلامية لهدم الدولة المدنية ، كما قال أحد مسؤولى المجلس الأعلى للثقافة ، فإنه يعد نوعا من الجدل العقيم ، الذى يصب فى مجرى التراشق القائم على السب والتجريح بقذف الكرة بعيدا فى نهاية المطاف » .

الجدل لم يعد معتركه قائما حول الوليمة العفنة ، وليس بسببها ، إنما صار مواجهة بين تيارين،كانا كفريقى كرة متناحرين، قذفا بالكرة بعيدا عن الملعب واستعر العراك على ما يدور فى مخيلة كل فريق بدون كرة .

لكن فهمى هويدى يضع علامة مهمة أمام الجمهور يعرفها فريق من اللاعبين دون الفريق الآخر ، أما العلامة فهى أن حيدر حيدر « علوى المذهب ،شيوعى المعتقد » ومع أن فهمى هويدى يعلن أنه لا يعنيه هوية الكاتب ومعتقده ، إلا أن دورهما فى سياق الأحداث يؤكد أهميتهما فقد كان من الأمور أو من الأسباب التى جعلت مؤسسات وهيئات دولية تقف بجانب نجيب محفوظ للحصول على جائزة نوبل . أنه كان أول أديب عربى يسعى لتحقيق سلام مع إسرائيل يوافق المفهوم الإسرائيلى والغربى للسلام . منذ بداية حكم السادات ١٩٧٠م حتى يوم حصوله على الجائزة وبعدها . وفى سنة ٢٠٠٠م يحصل الفنان المصور حسين بيكار على أعلى جائزة فى مصر عن أعماله الفنية ، وتحجب الجائزة نفسها ـ فى فرع الأدب ـ الدكتور / شوقى ضيف عن أستاذ أساتذة الأدب فى الوطن العربى كله ؛لأنه من وجهة نظر المثقفين المسيطرين على الجائزة فى المجلس الأعلى للثقافة ،مجرد مؤرخ تقليدى للأدب العربى،وليس حداثيا ، يتعاطى أفكار لجنة منح الجائزة أو منعها .

ويطالب فهمى هويدى بإعادة الكرة إلى الملعب ، ليلعب اللاعبون ـ لا المتلاعبون ـ مع التمسك بأصول اللعب وقوانينه والالتزام بأدب المنافسة الشريفة . ويضع أساسيات

للحوار لا يجب أن ينشغل عنها المتحاورون بأمور خارجة عن صلب الموضوع . أما هذه الأساسيات فيلخصها فهمى هويدى فى الفقرة الآتية :

« إن الرواية تضمنت ألفاظًا وعبارات تزرى بالله (عز شأنه) ونبيه ﷺ وكتابه القرآن (الكريم) . وهذه خطوط حمراء ينبغى أن تستعلى فوق أى اجتهاد ، وتحت أية ذريعة أو مسمى » .

ولعل الذى دفع الأستاذ فهمى هويدى إلى التنبيه إلى أهمية احترام هذه الثوابت مغالطات لجنة الحكم على الرواية من قبل المجلس الأعلى للثقافة والالتفافيين ومؤلف الرواية حيدر حيدر .فكلهم إذا سئل عن سبب تجاوزه زعم أن من حقه الاجتهاد ، وأن القرآن نفسه حمال أوجه إلى و. . . آخر ترهاتهم وهكذا نصبوا أنفسهم أصحاب حق لا ينازعهم فيه أحد فى قراءة النص الأدبى وفهمه . وأضافوا إلى ذلك زعمهم بفهم النص الدينى ـ خصوصا النص القرآنى ،ليفسروه على هواهم لأنه حمال أوجه، وأن لهم حق الاجتهاد دونما علم بما يجب على المتعرض للقرآن الكريم ونصوصه وأحكامه الشرعية والاعتقادية. ودون أن يلموا بشرط واحد من شروط الاجتهاد .

إنهم إذا أرادوا العبث والإفساد زعموا أن من حقهم الكلام فى النص الدينى ؛ لأن الاجتهاد حق لكل إنسان ، وإذا اقترب أحد علماء الشريعة من نص أدبى قالوا : ادخلوا حصركم أو مسكنكم لا علم لكم بدروب النص الأدبى ومسالكه المراوغة . هل هم عالمون بكتاب الله الذى لا يأتيه الباطل ، وقادرون على تحميله كل الأوجه التى يريدون أن يظهروا عليها ؟ وأن غيرهم لا يقدر على فهم ترهات سودت صفحات كتاب كتب على غلافه (وليمة لأعشاب البحر) ! لأنهم على حد تعبيرهم يقرؤونها قراءة دينية:

لا ثمة اتهام بالتناقض يوجه إليهم ؛ لأن مجرد الاتهام يوحى بأنهم قدموا شيئا يستحق المناقضة وهم لم يقدموا شيئا ولكن اسألوا الدكتور جابر قميحة فله معهم شأن يقول عنهم : « مازال أنصار الوليمة يفتحون نيران مدافعهم على كل من يمسها بنقد مهما كانت درجته من العلمية والمنهجية السوية ، فهم التنويريون المثقفون (كما يزعمون) ومن عداهم إظلاميون رجعيون » يقرؤون الوليمة قراءة دينية .

« وعلى فرض وجود قراءة دينية ، وقراءة أدبية فإن اتهام التنويريين القراءة الدينية بالقصور والتشدد وضيق الأفق لأحاديتها ، يمكن أن يوجه للقراءة الأدبية لأنها أيضا قراءة أحادية ، وإذا اتهمت القراءة الدينية بالتعصب والجمود فبالمقابل يمكن اتهام القراءة

الأدبية بالتفريط فى معطيات الدين والقيم والأخلاق » [1] .

القراءة الأحادية قراءة ناقصة لا توصل إلى الحكم الصحيح على النص ، هذا ما يؤكده كبار النقاد . وينقل د .جابر عن الناقد الشهير رتشاردز : « إن كل الأنواع الأدبية تحتاج فى قراءتها الصحيحة إلى إدخال جميع القيم العامة ، التى ليست هوى شخصيا من القارئ نفسه ،يجب أن يقبل عليها القارئ بكل فكره وحسه ، ووعيه الفنى والخلقى والثقافى والدينى ، وألا يجعل شيئا يحول بينه وبينها ، وألا يتعمد إغلاق جزء من نفسه وتكوينه عن قراءتها ، أما إذا حاول أن يتجاهل جميع الاعتبارات ما عدا تلك العناصر الجمالية المزعومة،فإنه ينتهى إلى برج عاجى ينعزل فيه عن حقيقة الحياة » [2].

ولكن هؤلاء الالتفافيون يتجاهلون أهمية الدين فى التوجيه الثقافى الإنسانى وليس فى الثقافة الإسلامية وحدها. يقول ت.س.إليوت فى كتابه (نحو تعريف الثقافة): «إن المسيحية هى الأساس الموحد،والقوة الموجهة للثقافة الأوربية بوجه عام . بل إن القاعدة العامة لكل ثقافة تقوم على الدين » [3] .

وكما يقول رتشاردز :« الاعتقاد الصادق أو الفكرة الصادقة لا تحرم أحداً من القيم التى يعتنقها » [4] ويعين رتشاردز الدين تحديدا . ويقصد بعض الكتاب أو الشعراء الذين تغريهم ملكاتهم الفنية بإحلال مبدأ فكرى فى العمل الفنى ـ محل الدين ،وهو ما تسهل ملاحظته أكثر من غيره .

ولا يقول قارئ منصف : إن الدين موجه لرواية (الوليمة) فمؤلفها الماركسى صاحب منهج وفكر يضاد الدين ، والدكتور القط رئيس لجنة التقرير يؤكد لمحرر المصور أن الرواية ليست رواية دينية وقال : « إن الرواية سياسية ، ولا علاقة لها بالدين فى شخصياتها وموضوعها وأحداثها » [5] وصدق شيخ النقاد فى قوله هذا ، ولكن الرواية سبت الدين وسائر المقدسات الدينية عامة ، والإسلامية بصفة خاصة . ولم يرد من قبل الدكتور القط إدانة لكاتب الوليمة،وقد سبق أن أدان كاتب رواية (الخبز الحافى) الأقل سوءا من رواية (الوليمة) ، وهذه الإدانة المنتظرة كان ينتظرها الأستاذ فهمى هويدى كما انتظرها كل المتدينين ومن ثم صرح الأستاذ فهمى هويدى باستنكار الرواية فى قوله:

(١ـ ٣) د . جابر قميحة ـ مقال : وقفة هادئة مع الدكتور القط وتقرير اللجنة ـ آفاق عربية ١ يونيو ٢٠٠٠م.

(٤) رتشاردز : مبادئ النقد الأدبى ص ٢٣٤ .

(٥) من حديث للدكتور القط لمجلة المصور فى ٢٦ مايو ٢٠٠٠ م.

« إن الرواية تضمنت ألفاظًا وعبارات تزرى بالله (عز شأنه) ونبيه ﷺ وكتابه القرآن (الكريم) . وهذه خطوط حمراء ينبغى أن تستعلى فوق أى اجتهاد ، وتحت أية ذريعة أو مسمى » .

ولقد رأى الأستاذ فهمى هويدى أن هناك من عمد إلى هذه الإساءات تعمدا ؛ لأن التعريض بالمقدسات الإسلامية صار له صدى مروع للأسماع فى كتابات أخرى نثرية وشعرية صدرت عن مؤسسات وزارة الثقافة : « بدت حافلة بتجريح المقدسات وموغلة فى الإيحاءات الجنسية الفاضحة والمكشوفة » ولا يجب أن ينظر إلى القضية على أن الاعتداء كان على مشاعر المتدينين فحسب ، بل على اعتبار أنها صدرت من جهة رسمية، عن مؤسسة من مؤسسات دولة دينها الرسمى الإسلام ، الإسلام المصدر الأول لدستورها، « مما أساء إلى موقف الدولة ذاتها وشوهه » .

فإذا تأكد أن الرواية لم تنشر بطريق السهو أو الخطأ ، لزادت فداحة الخطب ؛ لأن الرواية لو كانت نشرت سهوا لهان الأمر ، وكان اعتذار مسؤول يكفى فى هذه الحالة لإنهاء المشكلة ، ولكن نشرها ـ مع الأسف ـ كان مقصودا مع سبق الإصرار والتعمد ، والذى زاد الأمر سوءاً دفاع الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة عنها بكل ما يملك من حجج وبراهين ، يدعمه جمهرة كتاب وزارة الثقافة بصحفهم ومجلاتهم ، وكل أجهزة الإعلام السمعية والبصرية الذين عدوها إبداعا رفيع القيمة ليس له من نظير ، بل وفوق كل هذا عدوها تحفة أدبية عالمية ، وطالبوا بإعادة نشرها ، « وهذا ما يعنى أن ثمة أبعاد فى القضية تتجاوز الرواية ونظراتها تحتاج إلى مراجعة وضبط . إن مثل هذا الكلام ينبهنا إلى أن المشكلة لا تكمن فى مضمون بعض الكتب والروايات ، وإنما تكمن فى سياسة النشر المتبعة ، ومدى اتفاقها أو تناقضها مع ثوابت المجتمع وقيمه وركائزه الأساسية » .

ولهذا يرى الأستاذ فهمى هويدى أن من خلط الأفكار ادعاء المدافعين عن الرواية أن رفض نشر الرواية مصادرة لحرية التعبير وقتل للإبداع ، ومن ثم يجب أن ينبه هؤلاء إلى أنه فاتهم التمييز بين حماية النظام العام الاجتماعى والآداب التى تحكمه ، وبين حرية التعبير والإبداع كما ينبغى « احترام ثوابت المجتمع وقيمه الأساسية واحترام الحق فى حرية التعبير والإبداع » .

وحرية التعبير المقصودة ليست فردية ، فلا يفكر فرد بتفكير يقوض المجتمع ، إنها

حرية اجتماعية تعمل على سلامة المجتمع أرضا وبشرا وحدودا .

لقد برزت مسألة هى الأكثر خطورة ، فى قضية مثارة حول ما حدث فى العقدين الأخيرين فى لغة الحوار أو التعامل مع الشأن الإسلامى ، فقد تراءى للبعض أن ضرب تيار التفكير الإسلامى لا يتأتى إلا بتجفيف الينابيع التى يستمد منها التفكير الإسلامى مادته ، ورأى هؤلاء ضرورة إضعاف الثقافة الإسلامية ـ مورد تفكير هؤلاء . ثم تحولت لغة التعامل إلى ازدراء الينابيع نفسها ، والضرب المباشر فى المقدسات الإسلامية ، وفى مقدمتها الذات الإلهية .

وتولى كبر الهجوم على تيار التفكير الإسلامى العلمانيون ، ومن بينهم الشيوعيون وهم الغالبون على هذا التيار. فإذا طبقنا هذا على أحداث رواية (وليمة لأعشاب البحر) وجدنا المؤلف مدرسًا شيوعيًا والبطل مدرس شيوعى ، وعناصر الدفاع كلهم علمانيون شيوعيون . كما شهد بذلك الأستاذ كمال عبد الرؤوف فى صحيفة الأخبار فى (٢١ مايو ٢٠٠٠م) قال :« إن فلول الشيوعيين فى وزارة الثقافة هم السبب الأول وراء هذه الأزمة الكبرى بسبب رواية تافهة اسمها (وليمة لأعشاب البحر) كأنهم يدافعون عن موقف أيديولوجى خاص بهم » .

ولكن ما مدى شرعية هؤلاء ـ كما يسأل فهمى هويدى ـ فى تمثيل المجتمع ؟!

(٥)

مقال فهمى هويدى المنشور فى صحيفة الأهرام فى (٢٣ مايو ٢٠٠٠م) وثيق الصلة بمقاله المنشور فى صحيفة الشعب فى (١٩مايو ٢٠٠٠ م) فهو يؤصل فيه لفكر هؤلاء ويصفه بالاستنارة المظلمة .

الرواية كانت إحدى ذرائع تجفيف ينابيع الثقافة الإسلامية ،وذرائع ازدراء المقدسات الإسلامية .

كانت الرواية بمثابة شرارة انطلقت لتلهب الأجواء فيما بين تيار التفكير الإسلامى والتيار العلمانى الذى يزعم أصحابه أنه تيار المثقفين المستنيرين ، صاحب الحق فى تحصين المعرفة ، وإنقاذها من براثين تيار التفكير الإسلامى الإظلامى ، لكن التنويريين زيفوا التنوير وأبهموه ،حتى لم يعد لألفاظ التنوير والتنور والاستنارة البريق الذى يخلب

لب القارئ وعقله . لقد أفقد هؤلاء المصطلح بريقه ، بعد أن أفقدوه براءته ، فقد أحاطه الداعون إليه كما يشير الأستاذ فهمي هويدى : « بالالتباس فعمموه على نقيضه المفترض فى الإدراك العام فأثاروا فى نفوس كثيرين درجات متفاوتة مع الهواجس والشكوك ».

النور مفهوم له أصول من القرآن الكريم ، فكل خروج من الكفر إلى الإيمان ، ومن الظلم إلى العدل ، ومن الجهل إلى العلم نور ، وكل ظلم من الظلمات إلى نقيضه انتقال من الظلمات إلى النور بمعنى استنارة ، ولكنهم لا يرون ما نراه ، فهم يرون أن الإيمان بما لا يحس إظلام ، فترك الإيمان بكل غيبى ، والاعتماد على الحس فقط هو التنور ، والاعتماد على المادة دون الروح ، والعقل المجرد دون الوحى تنور وتنوير واستنارة .

هم مقلدون لأعلام التنوير فى فرنسا فى القرن ١٨ أمثال فرانسوا فولتير ، وديدرو ودا لمبير ، وهولباخ ، وكوندروسيه ، وغيرهم من الذين قرنوا التنوير بحتمية الإلحاد بالغيبى ؛ لأنهم ألَّهو العقل . مما حدا بأعظم فلاسفة أوربا فى القرن ١٨ (إيمانويل كانط Kant) أن يصيح فيهم صيحته المشهورة بأن التنوير Enlightenment لا يجب أن يلغى وجود الله ، ولا يجب أن يعلى من شأن العقل وحده ؛ لأن العقل المجرد الخالص - والتعبير (لكانط) - وإن كان أكبر وسائل الإدراك الإنسانى إلا أنه غير قادر على إدراك جوهر الأشياء بذاته ، إنه يدرك ظاهرها دون باطنها ، وكأنه بذلك يومئ إليهم بضرورة الأخذ بالمنهج الإسلامى عند علماء المسلمين الذى يعتمد على كل وسائل الإدراك : الإيمان والعقل والتجريب ، وهى الوسائل التى أرسيت منذ بدايات العلم الإسلامى بدءاً من القرن الثانى الهجرى .

إن على هؤلاء التنويريين أن يقرؤوا كتاب (كانط Kant): « نقد العقل الخالص» الذى نبه فيه التنويريين إلى أن العقل النظرى لا يرجى منه نفع إذا اعتمد الإنسان عليه وحده ، وهو ما بينه كانط فى كتاب لاحق عن العقل العملى .

لم يكن (كانط) أحد الدعاة الدينيين ، ولم يكن عالم دين ، بل كان فيلسوفا ألمانيا أراد أن يصحح مسار التفكير الأوربى ، وهو نفسه صاحب اختراع مصطلح التنوير Enlightenment أو فلسفة التنوير Philosophie de lumiere كما يعرفه الفرنسيون .

إذن فما التنوير : « نسق فكرى يمثل حركة فلسفية فى القرن ١٨ تعتد بالعقل ، والاستقلال بالرأى ، وتؤمن بأثر الأخلاق ، وتقوم على فكرة التقدم ، والتحرر من السلطة والتقاليد » (١) .

التنوير Enlightenment :

١ ـ فعل الاستنارة ، أى الحالة التى تبدو فيها الاستنارة حركة مضادة للروح العامة [التى تحكم المجتمع] .

٢ ـ حركة فلسفية ظهرت فى القرن ١٨ تميزت بالتحرر من كل قيد ، واتسمت بتتابع نقدى مستمر لكل التساؤلات الحيوية للسلطة والتقاليد الاجتماعية والمعتقدات والقيم .

وتعظم حركة التنوير التوجه إلى الفردانية، بل تؤكد فكرة الفردانية المطلقة، والتقدم الإنسانى ، والمنهج التجريبى فى العلوم ، واستخدام الاتجاه العقلانى للاستنارة أو حركة إعادة تنظيم الاستنارة .

٣ ـ ترى أن الهدف النهائى لحياة أى معتقد دينى (ولو كان الوثنية أو البوذية) يجب أن يكون ضمن نسق القوانين الكونية (المادية) وأن أى ديانة كالبوذية مثلاً : يجب أن تسعى إلى إدراك الحقيقة الكونية النهائية (٢) .

وللدكتور عبد الوهاب المسيرى تعريف قريب من هذا التعريف يقول : « التنوير حركة فلسفية ظهرت فى القرن ١٨ تميزت بفكرة التقدم ، وعدم الثقة بالتقاليد وبالتفاؤل والإيمان بالعقل، وبالدعوة إلى التفكير الذاتى (الفردانى) والحكم على أساس التجربة الإنسانية » (٣) .

مع أن التعريف للدكتور المسيرى ، فإن له فيه بعض التحفظات ؛ لأنه « يعبر عن أمنيات دعاة الحركة بأكثر مما يعرف بالحركة ذاتها » .

والتعريف فى ظاهره مقبول، فالإسلام دينا والمسلمون بشرا لا يرفضون فكرة التقدم،

---

(١) المعجم الفلسفى مجمع اللغة العربية مادة ـ فلسفة التنوير ، والمعجم الفلسفى : مراد وهبة ، ويوسف كرم ، ويوسف شلالة ص ٦٤ ، دار الثقافة العامة ، الطبعة الثانية ١٩٧١م .

(2) Webeser's third new International Mariam Company p . 754 U . S . A , 1971 .

(٣) ورد تعريف الدكتور عبد الوهاب المسيرى ضمن مقال الأستاذ فهمى هويدى :الاستنارة المظلمة « الأهرام ٢٣ مايو ٢٠٠٠م .

ولا حرية التفكير ، واحترام حقوق الفرد وحريته فى دائرة مصالح الجماعة ، ولا يحقر المسلمون من شأن العقل ، بل يعدونه أعظم نعم الله تعالى على الإنسان ،زوده سبحانه بالعقل ليسخر الكون بإذن ربه، ويزن الأمور ويكتشف ويجرب ويدبر ويدير ويصنع ويخترع ، ويزرع وينتج ويتبادل المصالح والمقاصد الحسنة مع الناس ، وفوق كل ذلك يعبد الله ويفرق بين الحق والباطل . وهذه كلها أهداف نبيلة إذا وضعت فى موضعها لتتكامل مع غيرها من أسس كريمة وضعها الإسلام كالإيمان بالله ، والوحى ، والإيمان بالقضاء والقدر ورسالات الأنبياء ، على الهيئة التى أكد علماء المسلمين على احترامها والعمل بها ، ارتفع شأن العقل بالضوابط الشرعية فى التصور الإسلامى .

لكن التنويريين فى الغرب فى القرن ١٨ كانوا ملاحدة لا يخفون إلحادهم ، ولا يكذبون ولا ينافقون ولا يلتفون وهم يعرضون أفكارهم أو يذهبون مذاهبهم التى آمنوا بها ؛ لأنهم اعتبروا أن الإنسان يستطيع أن يصنع عالمه بالعقل وحده ، وبالاعتماد على المحسوس دون الغيبى،دون ما حاجة إلى قوة مساعدة من خارج الإنسان،فهل التنويريون من بنى عصفور يذهبون إلى المذهب نفسه بدون التفاف؟وهل يحذون حذوهم حذو النعل بالنعل ؟ وهل يريدون الاستغراق فى تجربة الغرب كما أداها فى القرن ١٨ ؟ أم يريدون الإفادة من التجربة مع التمسك بالموروث الدينى والثقافى والأخلاقى ؟

ملحوظة : إن التنويريين أفادوا من التراث العلمى الإسلامى الذى ورثته أوربا عن العرب بدءاً من القرن ١١ حتى القرن ١٨ الذى تبلور بصفة خاصة فى مناهج جاليليو وفرانسيس بيكون وديكارت (إيطاليا وإنجلترا وفرنسا) ، وآخرون مثل :ديفيد هيوم ، وإسحاق نيوتن ، وجون لوك (إنجلترا) ،وكان تأثير الأخيرين قويا على فولتير مؤسس حركة التنوير فى فرنسا فى القرن ١٨ ، وباذر بذورها الأولى ، كما أنهم كانوا متأثرين بالحركة الإنسانية التى أعادت أوربا إلى عشق تراث اليونان والرومان .

لقد أخذوا من العرب المسلمين منهجهم العلمى التجريبى ، وتمسكوا بتراث أوربا ـ تراث الغرب القديم ـ فهل حركة التنوير العصفورية،ستأخذ من الغرب تقدمه التقنى وتقدمه المدنى ـ مع التمسك بتراث الأمة ؟ أم ستترك خير التقدم الأوربى ، وتترك خير التراث الإسلامى العربى ،وتتمسك بالجينز والهامبورجر والكوكاكولا وأغانى مايكل جاكسون ، وبنيوية كلود ليفى شتراوس وأقرانه الأشاوس،وحمامة بيكاسو ـ وجنون سلفادور دالى، وقصة مونيكا ـ كليتون . وتكون المسألة كلها من أولها لآخرها أحلام

العصافير التى رددها الشاعر العربى القديم يرحمه الله .

إن الغرب عندما قبس من المسلمين ابتداء من القرن ١١ أخذ من المسلمين علومهم ونبذ عقيدتهم ؛ لأن الغرب الذى تشبع بكراهية الإسلام طيلة قرون خمسة ، لم يكن بمقدوره أن ينصهر فى عقيدة المسلمين ، ومن ثم أفاد من علمهم وترك عقيدتهم ، ربما ساعد على ذلك أن كلا من الغرب والشرق له خصوصية حضارية ، نتجت عنها خصوصية ثقافية ، وخصوصيات رافدة ، كوّن الغرب بخصوصياته رؤية مادية عقلانية بحتة تحدد علاقة الإنسان بالطبيعة من حوله ؛ ولأن فكرة الله لم يكن من الممكن تجاوزها زعموا أن فلسفة القرن ١٨ تدور حول الإنسان والطبيعة والله . ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية قد توارت فى كنيسة القديس بطرس فوق جبل الفاتيكان Monte del vaticano بعد . وكان التنويريون الأوائل يعملون لها ألف حساب، الأمر الذى دفع فولتير وشيعته أن يضعوا الله فى ثالوث : الإنسان والطبيعة والإله ، مع أن الله فى تصوره لم يكن إلا الطبيعة نفسها ، ويخبث ألف فولتير مسرحية فى هجاء محمد ﷺ يهدم بها الدين ، ثم أهداها لبابا الفاتيكان قربانا وزلفى .

وإذا كان أساس حركة الاستنارة فى القرن ١٨ المادة / الطبيعة ، فإن العقل حل - عندهم - محل الله وحول هذه الفكرة خضعت كل قيم التنوير فى رؤية التاريخ والأخلاق والحكم على الأشياء ، المرجعية الإنسانية تتمحور حول العقل الإنسانى باعتبار أنه صار مركز الكون ومصدر المعرفة الوحيد الذى يرفض الغيب ويؤمن بالمحسوس وحده، ويخضع كل شىء للتجربة ، حتى التاريخ نفسه بهذا المفهوم ما هو إلا تجربة إنسانية ، أما الوحى والديانات والعقائد ، فإن التنوير الغربى يضعها تحت بند الخرافات - يعنى باختصار - أنهم أفادوا من منهج المسلمين التجريبى الاستقرائى ، ثم زعموا أن كل ما توصلوا إليه كان من ثمار العقل .

وقالوا : ما دام للطبيعة قوانينها الغائية فإن ارتباط الإنسان بها ، سيصل إلى الطريق الصحيح . الطبيعة / المادة هى الركيزة الأساسية لتأسيس مثل عليا فى الأخلاق خيرة وجميلة ومثمرة أيضا (ميتافيزيقا الأخلاق لكانط) .

ألم يقل الإسلام بالناموس الفطرى للكون ؟ ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الانعام : ١١] وزاد على ذلك ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] ، لكن الغرب تمسك بالمادة فقط ، أما الإله فكما ينقل هويدى عن المسيرى : « سواء كان الإله موجودا أو غير

موجود فذلك ـ فى نظرهم ـ أمر هامشى ، وهو فى النهاية شأن خاص ، لا علاقة له بمنظومات الإنسان المعرفية والأخلاقية والجمالية » فتلك كلها أمور تستند إلى الطبيعة / المادة .

وفى أواخر القرن ١٩ وما تلاه جاءت أصوات لم تكن جهيرة كالتى سبقت ، وإن كانت أكثر منها تأثيرا فى مسيرة التقدم المدنى فى أوربا رأت أن الإنسان نفسه جزء من حركة المادة الكونية ، ألم يقل دارون فى كتاب أصل الأنواع : إن حركة المادة بدأت بالخلية فى الطبيعة ، وأخذت فى التطور إلى أن وصلت إلى الإنسان الذى تميز بعقله عن كل الأنواع التى نشأت وتطور منها، ألا يكون العقل بذلك جزءاً من حركة المادة فى النشوء والتطور والارتقاء عبر التاريخ . إذن لا بد أن تكون هناك مرجعية تتجاوزه لتميز بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة . وهذا الذى حاول أن يحققه (نيتشه) لينهى رسالة الإله فى التصور الغربى نهائيا ، قال (نيتشه) : إن المادة / الإنسان جزء منها لا تكترث بالأخلاق فهى من اختراع المسيحية ، أخلاق الضعفاء التى تكبل الأقوياء ، فتفقدهم القدرة على إحراز التقدم المادى .وهكذا أضاف (نيتشه) إضافات مادية أخرى إلى فكرة (دارون) .

وتحولت نظرية (دارون) من نظرية حيوية إلى نظرية اجتماعية ترى أن الجنس الأبيض نهاية تطور الإنسان فى حلبة البقاء للأقوى،ومن ثم فمن حقه أن يسود البشر، ثم أضيف إلى مقولة (دارون) مقولة (نيتشه) : إن ما يحرك الإنسان مصالحه المادية ومنفعته المادية البحتة . ومن هنا برزت صكوك التبرير فى الفكر الغربى لاستعباد الشعوب الأخرى بكل الطرق والوسائل ، دون التقيد بقيد دينى أو أخلاقى .

إن التنويريين العصفوريين يلاحقون التنوير الغربى بكل مضامينه،ولكنهم لأسباب ذاتية وخارجية عاجزون عن تحقيقه. ثم إن المراقب يلاحظ أن التنوير فى بلاد الغرب أكسب أهله الدنيا،وأفقدهم أخراهم،فقد كسبوا شيئا على أية حال.أما العصفوريون فلم يحققوا تقدما فى أى مجال علمى أو تطبيقى ،ولا نكاد نسمع لهم إلا مطالبة بحرية المرأة وهم يعلمون أن الإسلام أعزها وأعطاها حقوقا لم تنلها المرأة فى أى حضارة أخرى،والتعلق بتافهات الأمور حول فكر لا يسمن ولا يغنى من جوع يدور حول: بنيوية وتفكيكية وحداثة،والذى منه كما رآه الدكتور عبد العزيز حمودة: انعكاسات مضللة لمرايا محدبة ، بالإضافة إلى خيالات التحرر لا الحرية. والتشبث بقشور

الحضارة الغربية لا لبابها .

لقد بدوا وكأنهم مقاولو هـدم لا يقيمون بناء ولا يعرفون كيف يبنون ؛ إنهم ينادون بحرية التفكير والتعبير ، ولكن أى تفكير وتعبير ، إنها صيحات لا طعم لها ولا رائحة وكأنها فى الهباء . أليس فى هذا تهديد للحرية نفسها ؛لأنها حرية غير مفهومة لا ضابط لها ؟! ثم أليس فيه أيضا تهديد لصحة الفرد النفسية والعقلية ، ثم نسمع منهم دعوة إلى قبول الآخر أى آخر ؟! وفى ذات الوقت يلعنون مظاهرة سلمية قام بها طالبات وطلاب الأزهر يستنكرون فيها ما تضمنته رواية بذيئة رخيصة تدعو إلى الإلحاد والشذوذ الجنسى والتمرد على أولى الأمر .

وما معنى قبول الآخر الذى ينادون بقبوله ، ومن ذاك الآخر الذى يتقربون إليه ؟ لقد عجب الناس من أحد (التدويريين) فى كتاب بعنوان : « نعم لفولتير» دافع فيه عن اليهود ؛لأنهم ـ بزعمه ـ ظلموا فى أوربا ،ولم ينبس ببنت شفة عن شهداء بلده (تلا) الذين أسرهم الصهاينة وقتلوهم صبرا جوعا وعطشا فى مهالك جماعية تحت شمس صحراء سيناء المهلكة . ولما سئل : كيف تدافع عن يهود ظلموا بأوربا ولم تدافع عن أبناء بلدك ـ تلا بالمنوفية ـ الذين قتلهم اليهود ظلما وعدوانا بغير جريرة ؟! أصيب بالصمم والبكم وتوهان العقل .

يقول الأستاذ فهمى هويدى : « رغم أن هذا الكلام يبدو بديهيا ، لكن الحقيقة أن دعاة التنوير فى بلادنا كثيرا جدا ما يرفعون شعارات حرية التعبير والتسامح مع الرأى الآخر وكأن كليهما يجب ألا يرد عليهما أى قيد ، فيدافعون كثيرا مثلا عن حق الكاتب فى التعبير عما يشاء،دون أن يكلفوا أنفسهم عبء قراءة ما كتبه بافتراض أن حرية التعبير مطلقة ، وأن تقييدها يضر فى جميع الأحوال بنهضة المجتمع ، وهم كثيرا ما يبدون ترحيبا حاراً بكل من يتجرأ على التراث والتقاليد بالنقد والتهكم ، حتى فى الحالات التى يخلو العمل فيها من أى قيمة فكرية »(١) .

إن حرية التعبير التى يطالبون بها ليست حرية تعبير ، ولو كانت كذلك لساهمت فى نهضة البلاد ورقيها ،ولكنها حرية سب المقدسات الدينية وازدرائها ، والتهكم عليها فإذا علا صوت يقول لهم : اتقوا الله ، أخرجوه من دائرة المثقفين إلى دائرة الإظلاميين

---

(١) د . جلال أمين :التنوير الزائف،نقلا عن مقال : الاستنارة المظلمة للأستاذ : فهمى هويدى ، الأهرام فى ٢٣ مايو ٢٠٠٠ م .

المتآمرين على الوطن والمنظمين لخلايا الإرهاب، حتى حصلت بلبلة، وصار المثقف العربى فى كثير من الأحيان غير قادر على التمييز بين ما يدخل فى دائرة حرية التعبير ، وبين ما يدخل فى دائرة الفوضى ، وهكذا ضاعت مسؤولية المثقف العربى .

على التنويريين (التدويريين) إذا كانوا متنورين حقا ومنورين أن يعرضوا مشروعا تنويريا صحيحا ، من غير أن يكيلوا السباب والشتائم والتهكم لكل مخالف لهم فى الرأى، ولا يكونوا كطه حسين فى كتبه : (فى الشعر الجاهلى) و (تجديد وتقليد) و(رحلة الربيع والصيف) و(من بعيد) فقد نسى طه حسين هدفه، وأخذ يتهكم على المتدينين ، ألم يكن أجدى له وللناس أن يعرض أفكاره ويناقش الناس بالتى هى أحسن، ويحاورهم حوار الأحرار من أجل الوصول إلى الحقيقة .

وضع طه حسين اللبنات الأولى وبذر بذور الشر ، وخرج من البحث عن الحقيقة إلى التهافت الفكرى ، وواصلت مدرسته التنويرية التشكيكية جهودها ، حتى أخذت المدرسة التنويرية العصفورية الراية منها . ولم تأخذ من طه حسين كله ، بل تركت الجانب الجاد ، وتمسكت بالجانب التهكمى ثم جعلته غاية وهدفا وتهافتا خاصة فى العقدين الأخيرين من القرن ـ قال د . جلال أمين : « إنه فى العقدين الأخيرين زاد عدد الكتابات المنشورة فى مصر التى تتناول بعضا من أغلى المقدسات لدى المصريين بأقل من الاحترام الواجب لها، وأصحاب هذه الكتابات ، ينعتون أنفسهم بأنهم جزء من حركة التنوير ؛ لأنهم يؤثرون أن تدرج أعمالهم تحت شعار يوحى بالتقدم والإصلاح ، إذ لا يعادى التنوير إلا رجعى متخلف جهول . . . [وليس لهذه الظاهرة] أى نسب بالتنوير إذا أعطينا كلمة التنوير ما يتفق حقا مع هذه الكلمة المضيئة النيرة أى : معنى العلم بعد جهل ، والحكمة بدلا من الحماقة والنزق ، إنه يجب الاهتداء إلى الطريق الصحيح للنهضة بعد عهد طويل من الضلال »[1] .

إن الأحرى أن نذكرهم بقول أحد رواد التنوير الغربى فى القرن ١٩ إنه (نيتشه) فى قوله :« ألا ترى إلا التشابه ، إن هذا علامة على ضعف بصرك » .

إنهم يستنسخون المثال الغربى للتنوير، إن المثال الغربى هو ما يصبو إليه العصفوريون وإنه لضعف نظر ، ودليل اضمحلال فكر وانعدام بصيرة .

---

(١) د . جلال أمين :التنوير الزائف، نقلا عن مقال : الاستنارة المظلمة للأستاذ : فهمى هويدى ، الأهرام فى ٢٣ مايو ٢٠٠٠ م .

إن التنوير فى القرن ١٨ فى فرنسا ،لم يقتصر على سخريات فولتير من خصومه ، فقد كان لفولتير ثم الموسوعيين وعلى رأسهم (ديدرو) ،و(دا لمبير) خطوات إيجابية نحو التقدم، ومع ذلك لم يكن قرن التنوير هذا (القرن ١٨) أزهر قرون أوربا فى التاريخ الحديث . ولولا أن الفيلسوف الألمانى (إيمانويل كانط) عاش فى هذا القرن ، لكان من أفقر قرون أوربا الحديثة ؛ لأن هذا القرن بالمقياس العلمى والثقافى والمعرفى يخسر أمام القرن ١٧ قرن (جاليليو)، (وفرانسيس بيكون)،(وديكارت) ،(وتوماس هوبز) ،(وإسحاق نيوتن)،(وجون لوك) ، كما يخسر أمام القرن ١٩ قرن المشاريع الأوربية الكبرى ، قرن (دارون) (وأوجست كونت) (وهيجل)، (وماركس)، إنه القرن الذى حرك الغرب خطوات وسيعة إلى الأمام . وقلب كل شيء فيها . وفى نهايته بدأت إرهاصات البراجماتية وهواجسها : بيرس - ووليم جيمس - وجون ديوى ، والذين وضعوا أركان الفلسفة الذرائعية التى بها سادت الولايات المتحدة العالم .

هؤلاء هم التنويريون فى الغرب ، رفعوا من قيمة المادة ، وقتلوا الروح ، ولكنهم فعلوا شيئا ما ، فماذا فعلت يا العصفور ؟ ما فعلت شيئا ، وكان أقل ما يؤخذ منك شقشقة رتيبة على غصن جاف فى أرض يباب . ولكن هيهات .

إن أشهر فلاسفة القرن ١٨ وأعمقهم ، وأكثرهم تأثيرا فيمن عاصروه وفيمن جاؤوا بعده (إيمانويل كانط) الفيلسوف الألمانى الذى أمسك بلجام القرن ١٨ ، وأخذ يحذر علماءه ومفكريه من الغلو فى عبادة العقل ، مع أنه صاحب وصف القرن ١٨ بقرن التنوير .

كان أهم ما همَّ التنويريون الأخذ بالمنهج العلمى الطبيعى والتطبيقى ، وتغيير السياسة والإدارة وسن القوانين الدستورية ، كانت لهم خطة محددة ، وكانوا على دراية معرفية بما يصنعون وكانت لهم القدرة والرغبة فى الانكباب على العلوم الطبيعية والرياضية والتطبيقية ،وكانت معركتهم ضد الحكم المطلق والكنيسة ، فقرروا التخلص منهما ، وكانت الفرصة مواتية ؛ لأن الكنيسة فى الغرب لم تكن تواكب التفسير العقلى للأمور ولا تسايره ، فضلا عن أن المسيحية فى مخيلتهم نتاج شرقى انتقلت إليهم من فلسطين ، ولم تكن من أصل غربى ، فضلا عن أنها كانت - فى العصور الوسطى - تحرم الحرام والحلال جميعا ، وتستبد بالاعتقاد والتفكير ، وتفرض الوصاية على روح المسيحى وجسده ،حتى أرهقت الأرواح والأجساد . فخرجوا على الكنيسة ونادوا بحرية

الفرد فى التعبير والاعتقاد ، بشرط ألا يفرض رأيه على الآخرين ، ولو كانت مقدسة لا يأتيها الباطل . ولكن أين مشروع التنوير العصفورى من كل هذا ؟ لا نكاد نرى منه إلا جلبة ببغائية مبهمة، لا يكاد يفهم منها إلا عبارات البذو والسب والسفول .

رفاعة ومحمد عبده وعصفور

كان الأساس الذى قام عليه التنوير فى أوربا الغلو فى مواجهة الكنيسة ، ومحاربة الغيبى ، والانكباب على العلم الطبيعى والتطبيقى ، وصيانة حرية الفكر والمعتقد. ولما اتصل رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده بالغرب فى فرنسا على وجه التحديد ، عادوا فطالبوا بإصلاح فى إطار مثال يصلح للمجتمع العربى الإسلامى ، إصلاح يقوده صفوة الحكماء المستنيرون بشرط أن يصون القاعدة الدينية ، وتلخص مشروع كل من رفاعة ومحمد عبده : توسع فى تعليم البنين والبنات ،حكومة دستورية مدنية،يكون الإسلام مصدر تشريعها الأول ، الاستقلال عن المحتل الأجنبى ، والاستقلال فى الرأى بحيث لا يكون حراً بإطلاق ، والانتفاع بما يمكن الانتفاع به من تقنيات الغرب ، وتقدمه فى مجالات التشريع النيابى ، والاهتمام بالعلوم العصرية ، والحرف والصناعات . وفى ذلك يقول الشيخ محمد عبده :« فتلك الحرية التى سموها إطلاق الفكر،قد عتقت صاحبها من قيد العقل ، وأسلمته إلى الجهل الأعمى ، فهو يتصرف به كما يقتضى من المضرات ،ولو أنه بقى تحت سيادة العقل يسوسه المهذبون (بكسر الذال) ويقوده المتبصرون حتى يعلم من أين تؤتى الأفكار ،وبأى الوسائل يوفى العقل خطوطه الحقيقية لكان ذلك خيرا وأبقى، ولم يكن يحتاج إلا لتخفيف يسير فى شناعات المتعصبين »[1].

لم يكن المنظور التنويرى لرفاعة الطهطاوى ، ومحمد عبده ، وعلى مبارك وغيرهم صورة مستنسخة من التنوير الغربى،بل مثال يأتلف مع حقيقة المجتمع العربى الإسلامى، ومع أن محمد عبده ،والطهطاوى ومن واكبهم لم تكن لهم قوة تعضد فكرهم التنويرى، كتلك الكائنة فى مصر الآن ، إلا أنهم كانوا أكثر وضوحا وطموحا وتأثيرا فى المجتمع، أما العصفوريون فمع أن مؤسسات الدولة المدنية تعضدهم خاصة وزارة الثقافة إلا أنهم لم يحققوا إلا الفشل الذريع ؛ لأنهم بلا منهج وبلا خطة ، اللهم إلا دعوة إلى غرائب الثقافة الغربية ، وذلك راجع إلى أنهم يجهلون الفارق بين وضعية مجتمع التنوير الغربى

(١) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، بتحقيق د . محمد عمارة ١ / ٣٠٧ ، طبع لبنان ،سنة ١٩٧٢ م .

الذى عضدته برجوازية قوية فى كل المجالات : الصناعية والتجارية والقانونية والنيابية والعلمية ، وبين طبيعة المجتمع الإسلامى الذى يرى أن التنوير يجب أن يستمد استنارته من نور الإسلام بكل معطياته الروحية والمادية الأخروية ، والحياتية المقاصدية .

فشل العصفوريين يتأكد من يوم ليوم بالرغم من وجود الأجهزة التى تهدد خصومهم ؛ لأن مشروعهم يفتقر إلى التخطيط الصحيح الذى يؤسس لتقدم علمى فى مجالات العلوم والسياسة والاقتصاد والصناعة ، ورفع مستوى الفرد فى الكيان الاجتماعى ، أى باختصار رفع شعار إصلاح المجتمع وتقدمه ، مع ربط التقدم المادى بمرجعية الإيمان .

ألم يكن الأجدى بدلا من اللهث وراء الآخر والآخر ضنين بما يملك ، معرفة الذات أولا ، معرفة واعية ، والإفادة من ثمرات الأمة لتكون معرفة الذات قاعدة التقدم ، ولا بأس بعد ذلك من دراسة الآخر دراسة واعية ، والإفادة من أسلوب تقدمه العلمى والتطبيقى ، انطلاقا من قاعدة اقتصادية وسياسية وتقنية ، والتدريب على الاختراع والإبداع ، والعمل على ضمان الأمن والاستقرار الوطنى ، فى ظل قاعدة شرعية ﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٤] ، والتخلص من التبعية الفكرية ، والتبعية الاستهلاكية لمنجزات الغرب ، والتفكير فى مستقبل الأمة العربية ،بتوطين التقنية والإفادة من ثروات الوطن العربى وطاقاته المادية والبشرية ، والانخراط فى الدراسات المستقبلية ، والتركيز على عناصر الحركة الذاتية فى المجتمع ، والحركة العامة فى العالم والإفادة منها ، والمناخ مهيأ لكل هذا فى ظل حكومة مستنيرة مستعدة دائما أن تعمل من أجل تقدم شعبها وإسعاده بقيادة رئيس يحب شعبه هو الرئيس محمد حسنى مبارك .

(٦)

كانت مداخلة الدكتور محمد سليم العوا : « أعشاب وطحالب فى حياتنا الثقافية » [(١)] ، شهادة عالم وفقيه قانونى مارسه علما وعملا ،يمثل فى كتاباته رأى التفكير الإسلامى المعتدل ،حرصه على دينه لا يدفعه إلى الغلو ،لم يعرف أنه عادى محاورا ، ولو بكلمة ، يضع الأحكام فى مواجهة الأفكار ، ولا يجرمنه شنآن قوم على الجنوح عن الرأي الذى ارتآه صوابا ؛ ولأنه رجل قانون وفكر معا فقد عرض أحكامه

---

(١) مجلة وجهات نظر ، يونيو ٢٠٠٠م .

على أطراف القضاء المصرى، والمجتمع الثقافى .

الغضب والجزع مسيطران ، فهما صفتان لازمتا المختلفين حول رواية «حيدر حيدر» دون ما اعتبار للجائز والممنوع والمقبول والمرفوض والحلال والحرام .

القضية عرضت أمام أكبر مؤسسة تشريعية فى البلاد [مجلس الشعب] ، وأكبر جامعة تهتم بأصول الدين وشؤونه وعلومه [الأزهر الشريف] وأحيلت إلى القضاء ، وقال كل من مجلس الشعب ، ومجمع البحوث الإسلامية كلمته ، وسوف يفصل القضاء فى القضية التى فرضت نفسها على أكبر المؤسسات التشريعية والتنفيذية فى البلاد، وعلى الرأى العام ، ولكن لا أحد يدرى متى ينتهى أثر هوائها الفاسد ، الذى ضاقت به الصدور ، وفلقت به العقول وملته النفوس،وكلت به القلوب ؛ لأن « الشأن الثقافى والفكرى يبدو مرشحاً لاستمرار الجدل ، وتفاعل الخلاف ؛ إذ لا يتعلق الأمر عند المثقفين والنقاد والمفكرين برواية نشرت أو منعت ، وإنما يتعلق بقضية الإبداع نفسها وحرية الفكر ومداها ، والحق فى التعبير مبتدئه ومنتهاه » .

هذه مقدمة د . سليم العوا لمقاله : « أعشاب وطحالب فى حياتنا الثقافية » المنشور فى مجلة وجهات نظر (يونيو ٢٠٠٠) مقدمة رجل فقه قانونى ، يضع عناصر موضوعه ويحددها قبل الدخول فيه ، ليكون كلامه محدد المعالم فى مقدماته وحيثياته ، والحكم فيه : نتيجة متسقة مع تفكير صاحبها .

يرى د . العوا أن الرواية بالغة الطول فى واحد وتسعين وستمائة صفحة فى طبعة وزارة الثقافة ، وضعت على أساس أيديولوجى . وهذه العبارة تحدد مسؤولية كاتبها عن كل كلمة وردت فيها،سواء فى السرد،أو فى الحوار على لسان الشخصيات ، خاصة وأن مؤلفها الشيوعى الشيعى السورى عمد إلى أن يعلى من شأن الفكر الشيوعى الأصولى . فاختار لها شيوعيين شيعيين وإن كانا عراقيين ، فهما مثله فى المذهب وفى الاعتقاد ، وليس هذا وليد ظرف ما أو حالات ما ، ولكنه التزام التزم به الكاتب ، ليسقط ألزم خصوصياته فى نفسه على الرواية،ولا يدرى أحد لماذا اختار شيوعيين عراقيين شيعيين ، وكان يمكنه اختيارهما شيعيين شيوعيين سوريين. اختار عراقيين فرا من العراق إلى الجزائر للعمل بالتدريس ،الكاتب نفسه عمل مدرسا بالجزائر ، وكان قد فر إليها من سوريا .

فى الجزائر رأى مؤلف الرواية ضرورة أن يكون لكل ذكر أنثى ، ولا يهم أن تكون وظيفة الذكر مدرسا أو غيره ، فإن توصيفه فى الحالة ذكر وحسب ، يوافق التفكير

النفسى عند الشيوعيين ؛ لأن الجنس فى علم النفس الماركسى كالماء والهواء . يرتوى به الظمآن كلما أحس بالعطش ، ويتنفس به الأحياء لتستمر حياتهم ، إنه حق فى عقيدتهم لكل إنسان باعتباره نسمة ، دون ما ضوابط من دين أو خلق ، أو تقاليد اجتماعية .

الذكران : الأول: مهدى جواد ارتبط بتلميذة فى المرحلة الثانوية ، ابنة مجاهد جزائرى ، غضة بضة كبنات الأحلام ، طلبت من مهدى جواد أن يدرسها اللغة العربية، وانغمس معها فى الجنس . والثانى: مهيار الباهلى:ألقت به المقادير بين ساقى (فلة بوعناب) المناضلة الجزائرية التى تحولت إلى مومس محترفة. قد يكون بينهما وبين المومس (الفاضلة) لجان بول سارتر صلة ما ، وافتراقا ما ،ولكن حيدر اقتبس (فلة بوعناب)(العاهرة المقدسة) كما أطلق عليها فى بعض مواضع من الرواية ، من (المومس الفاضلة) لجان بول سارتر . وكل من سارتر وحيدر رأى الفضيلة فى مومسته، وهى فضيلة من نوع غير الذى يعرفه الناس ، هى رؤية خاصة بالكتابة التى ازدهرت بصفة خاصة فى الأدب الوجودى بعد الحرب العالمية الثانية ،فقد قتلت الحروب قيما كثيرة عند الأوربيين فانعكس فى جدلة الوجود والعدم عند سارتر، والعبث والتمرد عند ألبيركامى. واللامعقول عند بيكيت ويوجين يونيسكو واللارواية عند ألن روب جرييه وآخرين . والسخط عند جون أوزبورن،والحزن عند فرانسوا ساجان ،والبطل الضد الذى اختار الشر (جان جينيه) .

هذه مجرد أمثلة ، حاول حيدر أن يكون كل هؤلاء بعد مزجهم بأدب اللاهوت والثورة فى أمريكا اللاتينية ، ولكن عجزه الشخصى والفكرى وإسقاطه الأيديولوجى والمذهبى لم يسعفه لكى يقدم رواية محبوكة ، فبدا تقليده مفككا . كما بدا غير معقول فى تصويره على سبيل المثال لعلاقة مهدى جواد بآسيا ، وعلاقة أم آسيا وبناتها بزوج حل محل أبى الأبناء ،ولا يعذر الكاتب فى ذلك ؛ لأنه كان فى أسر إسقاطاته .

فاز مهدى جواد بأنثاه بعد وقت قصير من اللقاء ، ابنة الشهيد الذى استشهد وهو يجاهد الفرنسيين ، آسيا الأخضر ، لم يكن كبرياؤها فى الاستغراق فى لذة الجنس من اللحظات الأولى ، فالمسألة هنا لا تعدو أن تكون رغبة حيوية فالجسد الموجب يحتاج إلى جسد سالب ، ولكن كبرياءها تمثل فقط فى احتقارها وأختها منار الأخضر لذلك التاجر الذى حل محل أبيها فى فراش أمها . هذا نوع من العبث فى تصور حيدر ، علاقة الأنثى آسيا الأخضر بمهدى جواد،وهى علاقة غير شرعية بدت فى نظر الكاتب، ومهدى جواد وآسيا الأخضر (بطليه) طبيعية ، وفى الوقت نفسه بدت علاقة (الأم لالا

فضيلة) بزوجها التاجر (يزيد ولد الحاج) الذى وصفه الكاتب فى أكثر من موضع بالرواية بالفظاظة ، وغلظة القلب والبلادة ـ غير طبيعية . إذا كيف يطأ هذا التاجر البرجوازى صديق المسؤولين بالدولة فراش مناضل استشهد فى حرب الجبل ، ولو كان ذلك عن طريق زواج شرعى . فلمَ زوجها الكاتب لهذا التاجر البرجوازى؟ ألضرورة فنية اقتضتها حبكة الرواية ؛ أم لفرض فرضية مذهبية عبثية ، أم أنها أضغاث أحلام أيديولوجية ، نتج عنها أشأم ما يصوره كاتب كما عبر د . محمد سليم العوا فى : «ضياع شخصياتها ، وانهيار القيم التى تركوها خلفهم . . . والرواية من الصفحات الأولى تصيب قارئها بالملل والسأم ، فلغتها متواضعة ، وسرد الأحداث فيها يبدأ ولا ينتهى ، وفى بنائها وأسلوبها ركاكة » .

كاتب الرواية كاتب غير مكترث ، فى سبيل فرض إسقاطاته « ينسب ما يشاء إلى القرآن الكريم ، غير معنى برقى التعبير ، والارتفاع على مستوى تعبيرات السوقة فى فحشها وبذاءتها ، ويصنع ذلك فى التعبير عن أقدس الأشياء وأعظمها حرمة على امتداد نصه كله . وأما التعبيرات السوقية الفاحشة البذيئة إنها تنتشر على امتداد الرواية كلها ، وليست جملا عارضة فى سياق خاص انتزعت منه لإدانة المؤلف وروايته ، بل هى من الشيوع بحيث لا يمكن فصلها عن الرواية مع بقاء الرواية نفسها » .

أما مهيار الباهلى فقد قاوم المومس طويلا ؛ ولكن لأن المومس كانت تملك الحقيقة بحسب إسقاطات الكاتب ، فقد أسقطته فى النهاية بين ساقيها ؛ لأنها أعطته الحنان المفقود ، إن لم تكن أعطته الحياة نفسها .

الفقيه القانونى د . محمد سليم العوا يفند الرواية ، ويستخرج منها معاول هدمها فى مجالات :

١ ـ المجال الفنى واللغوى .

٢ ـ ثقافة المؤلف وانعكاسها على شخصيات الرواية .

٣ ـ اعتداء المؤلف على العقيدة ، وكل المقدسات .

٤ ـ تناقض ادعاءات الكاتب ونقضها .

١ ـ المجال الفنى واللغوى :

يرى د . العوا أن الرواية طويلة بدون داع ، مملة تسئم قارئها ، لغتها متواضعة ،

وسرد الأحداث متقطع غير متماسك ،يبدو متنافرا « وفى بنائها وأسلوبها ركاكة ظاهرة » ولولا الضجة التى حدثت حولها ما سمع أحد عن مؤلفها، « والتعبيرات فيها سوقية فاحشة بذيئة تنتشر على امتداد الرواية كلها » ولم يهتم المؤلف بأسلوب الرواية ، فلم يرتفع بأسلوبها « عن مستوى السوقة » حتى وهو يعبر عن أقدس الأشياء .

وخلاصة الرأى الفنى واللغوى للرواية بحسب رأى الدكتور محمد سليم العوا : «أنها رواية قليلة القيمة جدا ،سخيفة الأسلوب ، متهالكة فى بنائها اللغوى والدرامى معا ، ولو تركت فأهملت ، ما كان أحد قد سمع عنها شيئا ». يقول الدكتور محمد سليم العوا : « وضعف اللغة ظاهر فى سردها فهو على سبيل المثال يستعمل كلمة : أمثولة بمعنى القدوة (ص ٥٥٩)، وهى فى اللغة بمعنى التمثل بالشعر بيتا بعد بيت (كما جاء فى لسان العرب مادة مثل) ،ويستعمل كلمة مربك ومربكة فى مواضع كثيرة بمعنى مرتبك ومرتبكة . ويجعل باء الاستبدال تعود على المستبقى ، لا على المتروك (ص ٥٦٤)؛ لأن نهج العربية الفصحى يرى عكس ذلك ، فما يرد بعد الباء هو المتروك والآخر هو الذى يحل محله . ودليلنا على هذا قوله تعالى : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ الآية [البقرة : ٦١] » [1].

الكاتب يبالغ فى الوصف الفاحش ، ويستخدم لغة غير التى يستخدمها أهلها .

٢ ـ الكاتب وشخصياته :

الكاتب حيدر حيدر هو ما كتب ، والقارئ لا يكاد يجد فرقا بين الشخصيات فى الرواية وبين شخصية الكاتب نفسه . ومن الأمور المعتادة أن تسمع صوتا يقول : لقد انتهت النظرة النقدية التى تربط بين المؤلف وشخصياته ، وأن الناقد لم يعد يشغله إلا النص،من حق كل إنسان أن يقول ما يريد،ولكن هناك معايير للحكم لا معيار واحد ، والمعايير قد تختلف من ناقد عن ناقد ، ومن قارئ عن قارئ ومن عمل عن عمل .

هناك شيء بارز فى الرواية ، عندما يتحدث الكاتب عن ضياع النماذج التى يقدمها فى شخصيات روايته الأربع : مهدى جواد، ومهيار الباهلى، وفلة بوعناب، وآسيا الأخضر

---

(١) إن سيدنا موسى ﷺ خاطب اليهود وهم فى التيه بعد خروجهم من مصر ، وكان طعامهم المن والسلوى (والمن) طعام يشبه العسل فى حلاوته . والسلوى طائر السمان أو طائر يشبهه ، فطلبوا أن يكون طعامهم الحنطة والعدس والبصل ، وكان رد سيدنا موسى ﷺ عليهم بهذه الآية الكريمة .

والشخصيات الثانوية الأخرى مثل : الإيزرجاوى فى العراق ، وعمر يحياوى فى الجزائر يقدم شخصيات مسلوبة الإرادة غارقة فى الجنس والخمر ، لم تقم بعمل إيجابى واحد فى رواية طولها سبعمائة صفحة. إنها نماذج ضائعة ، وكأن الكاتب يسوقها سوقا إلى اليأس والهزيمة . يقول د . محمد سليم العوا : « ضياع النماذج التى يقدمها الكاتب فى شخصيات روايته ينتهى دائما إلى معاقرة الخمر وإدمانها ، وإلى ممارسات الجنس الفردية والثنائية والمثلية بصورة تثير التقزز ، وتدفع إلى الاشمئزار ، ليس من فرط التقوى واستحكام الحياء عند القارئ ، بل من بشاعة العلاقات والأوصاف والكلمات التى تطالعه بقبحها وسوقيتها ، ولا يفلت من هذا المصير أحد بدءاً من (فلة بوعناب) المرأة التى قدمت شبابها لثورة الجزائر ،ثم انتهت إلى حالة من السقوط الدائم ، لا هم لها إلا البحث عن رجل شرقى يعاشرها حراما . ومرورا بعمر يحياوى البطل الذى فر من الفرنسيين ثلاث مرات ، وانضم فى كل مرة إلى الثوار ، ثم تحول إلى إدمان الخمر وأحضان العاهرات (ص ٤٨٢ ـ ٤٨٩) وصولا إلى الفتاة الغضة (آسيا الأخضر) بنت الشهيد (سى العربى الأخضر) وشبيهته المعتزة بتاريخه ، التى تحولت إلى فتاة بذيئة اللسان لا تتحدث إلا بالألفاظ الجنسية (ص ٥١٥ وما بعدها). لكن ذلك كله لا يقارن بما انتهى إليه حال المناضلين الشيوعيين أفراداً وجماعات ، خمر يدمنونها ، وزنى يتباهون باقترافه ولواطا يتظرفون بالتمارح الثقيل حوله » .

ولم يشر الدكتور محمد سليم العوا إلى إسقاطات ثقافة المؤلف ونشأته وحياته الذاتية وعلاقته العاطفية ، ومذهبه الاعتقادى ، حيدر نفسه تكلم فى هذه الأمور ، ومن يقرأ اعترافاته فى أحاديثه الصحفية ، ويقرأ الرواية يجد قربى شديدة بين ما عايش وما كتب ـ وينقض مزاعم اللجنة التى زعمت أنه غير مسؤول عما تقوم به الشخصيات فى الرواية أو ما تنطق به .

حيدر حيدر شيعى علوى ، شيوعى سورى .

قالت عنه أمينة طلعت محررة أخبار الأدب : حصلت على رقم هاتفه من أصدقائه الذين أكدوا لى أنه يحب العزلة ، ولا يرحب بالغرباء ،لكن إذا بدا صوته مرحبا ، فربما يكون بدافع الضيافة .

قال لأمينة : ألحقت بالجندية ، ولما انتهت مدة التجنيد تركت الجيش ، بعد ذلك سافرت إلى الجزائر ، وتوالت سنون الهجرة إلى اثنى عشر عاما ، ولكنه أعلن سعادته

برفع الحصار عن كتبه ، ونشر الوليمة فى القاهرة .

قالت أمينة : يتهمك البعض بأنك تركت سوريا فى وقت عصيب على المستوى السياسى ، إذ كان عليك أن تبقى لتواجه الصعاب التى لاقى بسببها المبدعون والمثقفون الكثير من الآلام .

قال : هذا الموضوع حساس ، ممكن يكون صعبًا شرح الحالة التى كنت عليها ، أو علاقتى بالمؤسسات والسلطة والنظام السياسى ، فقد كان هناك نوع من الجفاء ، وعدم الاتفاق بين أفكارى ورؤياى ونظرتى للأشياء ، وبين نظرة النظام ، وعندما خرجت من سوريا كنت مقتنعا بأننى لو بقيت لواجهت صعوبات كثيرة جدا .

قالت أمينة : أنت مشهور بجرأتك على الاقتراب من المحرمات الثلاث : الدين، والسياسة ،والجنس . هل أدى ذلك إلى المعاناة من رفض المجتمع ومحاربته لك ؟

حيدر : لقد دفعت ثمن هذا كثيرا ، فقد تم منع نشر قصصى ورواياتى وعلى رأسها (وليمة لأعشاب البحر) التى تم منعها من الدخول إلى معظم البلاد العربية لمدة اثنى عشر عاما ، وهناك روايات أخرى سببت لى حساسيات مع المؤسسات الاجتماعية . لقد عشت فى بيئة تحاربنى على المستوى الدينى ، ولم يقولوا : إننى علمانى وعقلانى وتنويرى بل قالوا : ملحد .

أمينة : هل كنت تجد صعوبة فى نشر أعمالك ؟

حيدر : صعوبة شديدة جدا ، معظم كتبى تم نشرها فى لبنان حيث لا توجد رقابة على النشر ، وبعضها نشرته على حسابى الخاص،وفى فترة من الفترات منعوا نشر رواية (الوعول) بسوريا وعندما نشرت فى لبنان منعوا دخولها إلى سوريا ، وكذلك رواية (وليمة لأعشاب البحر)،لقد عشت أنا وكتبى فى حالة منع وطرد مستمرين من بلاد عربية كثيرة مثل المملكة العربية السعودية ، وفى فترة حكم السادات منعت من دخول مصر . [ملحوظة:لم يكن ألف الوليمة بعد] وحتى الآن أنا ممنوع من دخول العراق ، حيث يوضع اسمى فى القوائم السوداء .

أمينة : كيف كانت علاقتك بوالدتك ؟

حيدر : علاقتى بالأم ، دعينى أقول لك شيئا غريبا : كان أبى قاسيا ومهيمنا تماما على أمى ، وكان يأخذ مواقف عدوانية ضدها ، فكنت أقف بينهما دفاعا عنها لأحميها

وأتلقى الضربات بدلا منها ، وأقول له : اضربنى واترك أمى ، فكان يرتد شاعرا بالخزى ، أو يكبح جماح غضبه ، مطلقا الشتائم عليها ، ولم يكن يهمني شيء بعد أن أكون قد حميتها [ظهر أبوه فى الرواية فى صورة زوج الأم] .

وأتذكر عندما أحببت لأول مرة ، كان اختلاط الشباب بالفتيات ممنوعا ، ولكننى كنت أذهب معها إلى البرارى ، لنقطف الأزهار ، ونغنى فنشعر بحريتنا بين الطبيعة ، وكان ذلك أفضل من البيت حيث كنا نمارس رومانسية عذبة ، رغم اللوم والعقوبات التى كنا نتلقاها من الأهل » (نشر بأخبار الأدب فى ٧ مايو ٢٠٠٠) .

ومن حديث حيدر مع أمينة طلعت يستبين :

١ ـ اعتراف المؤلف بأنه اعتاد على الولوج إلى المحرمات الثلاث : الدين ، والجنس ، والسياسة ، وقد ظهر ذلك واضحا فى الرواية ، فى سرد الكاتب ، وفى حوار الشخصيات .

٢ ـ أقر بأن رواياته تلقى معارضة من المؤسسات الحاكمة ، والمؤسسات الاجتماعية على حد سواء فى العالم العربى ، لما تتضمنه من جراءة على المحرمات الثلاث بإقراره ، ولأوصافها المقززة ، وأسلوبها الفاحش البذىء .

٣ ـ لا يذكر صفة طيبة لأبيه ، الذى جاء إلى الدنيا بسببه ، والذى رباه ، حتى ولو كانت التربية قاسية فقد رباه ، إنه لا يكنُّ احتراما له ، ومن أجل هذا صوره زوج أم فى رواية (الوليمة) لا أبا ، وكأنه ليس أباه (صورة مهدى جواد فى طفولته ، وموقف زوج أمه القاسى منه ، ومن أمه المستسلمة).

٤ ـ كان يهرب بامرأته قبل الاقتران بها إلى البرارى ليمارس معها الحب والانطلاق والتغنى بالأزهار وبالطبيعة الخلابة ـ الشىء نفسه فى الرواية ـ مهدى جواد وآسيا الأخضر .

أبعد هذا تصر لجنة تقييم الرواية من التنويريين على قطع الصلة بين الكاتب حيدر وشخصيات روايته (وليمة لأعشاب البحر) ، بزعم أنها شخصيات متخيلة لا صلة لها بالكاتب ؟! العجيب أن الكاتب نشر اعترافاته بمجلة أخبار الأدب (فى ٧ مايو ٢٠٠٠) أى قبل أن تكتب اللجنة تقريرها بوقت كاف ، وقد اطلعت عليه اللجنة [التى نشرت تقريرها فى عدد المجلة التالى فى ١٤ مايو ٢٠٠٠] .

الدكتور جابر قميحة يعجب لأمر اللجنة التى تبحث عن مبررات تبرئ بها المؤلف بإحالة أوزاره على شخصيات الرواية ؛ لأنها كما قالت فى تقريرها : « شخصيات خيالية مخترعة ومن ثم فلا حساب ولا مسؤولية » .

ويشهد الدكتور جابر قميحة عليهم ـ بنص نشر فى مجلة فصول التى يرأس تحريرها د . جابر عصفور الذى شكل اللجنة ـ يؤكد الدكتور جابر بهذه الشهادة أن خيالية الشخصيات وما يرتبط بها من أحداث لا يصدق كما يقول الدكتور أحمد صبرة : « على مجال القيم والمعتقدات المعروضة فى الرواية : إننا لا يمكن أن نقول : إن القيم هنا قيم خيالية لا علاقة لها بالواقع ، أو إن معتقدات إحدى الشخصيات لا تجد لها نظيرا فى المجتمع ، أو إن أحاسيس فلان فى الرواية ليست بشرية إلا على سبيل المجاز » [(١)] .

الكاتب مسؤول عن كل كلمة وردت بالرواية أساءت إلى المقدسات أو خدشت الحياء سواء كانت بقلم المؤلف السارد ، أو بلسان الشخصيات . ومن ثم لا يهم قول الدكتور القط واللجنة: إن ما يؤخذ على الرواية ، جاء على ألسنة المتحاورين ، وليس على لسان الراوى . ولا حاجة لنا فى أن نبحث عن السبب فى البيضة أم فى الدجاجة باعتبارهما شيئا واحدًا لا شيئين ، هذا مع تأكيد الدكتور جابر قميحة إلى أن عدد نصوص العبارات التى تجرح الدين والخلق والذوق والعرب والحكام العرب لا يقل عن مائتى عبارة ، على لسان الشخصيات والراوى . وإذا كانت اللجنة تصر على أن العدوان لم يكن من الكاتب بل من الشخصيات ،فإن الدكتور جابر يحيل اللجنة إلى صفحات : (٣٨ ، ٥١ ، ٢٣٠ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٣٢٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧) (مقاله السابق) ، وهى المواضع التى تحدث عنها الدكتور محمد سليم العوا وقال: إنها ليست مجرد ألفاظ تستل أو تحذف من نص الرواية ؛لأنها « تتراوح بين سطور عدة ، وبين صفحات متوالية تتضمن :

ـ هزءًا بذات الله .

ـ سخرية من الدين والأنبياء .

ـ أحاديث مخترعة أو محرفة .

---

(١) د . جابر قميحة :مقال : وقفة هادئة ، آفاق عربية ١ / ٦ / ٢٠٠٠ ، د .أحمد صبرة ـ مجلة فصول ، ص ٢٧٨ مجلد ١٦ ، العدد (٤) ، ربيع ١٩٩٨ .

ـ بذاءات جنسية مستقذرة يأباها العقلاء ، ويأنف منها المتأدبون » .

ولهذا يقرر الدكتور محمد سليم العوا ـ الفقيه القانونى ـ أن هذه النصوص « تقع تحت طائلة نصوص قانون العقوبات التى تجرم التعدى على الأديان والمقدسات والشعائر الدينية، ونصوص القوانين التى تحمى القيم من الاستهانة بها أو الاجتراء عليها ، والآداب العامة من انتهاكها بصورة علنية » .

وخلاصة القول : فإن الكاتب حيدر حيدر مسؤول مسؤولية كاملة عما جاء فى السرد، وعما جاء على لسان شخصيات الرواية بموجب اعترافه وإقراره ، وبما التمسه المعارضون من صحافيين وكتّاب وقراء وفقهاء ، وبما التمسه غيرهم ممن لا يشك فى أنهم ينتظمون فى سلسلة من أطلقوا على أنفسهم جبهة المثقفين والمبدعين . مثل : كامل زهيرى الروائى المصرى المعروف ، ونصر حامد أبى زيد ،ود . فؤاد زكريا . إن هؤلاء الثلاثة وقد مرت شهاداتهم غير متهمين من جبهة المثقفين،ولا يمكن وصفهم بالأصولية والظلامية والإرهابية، أو أنهم ممن لم يتعلموا كيف يقرؤون رواية ذات مسالك مراوغة كرواية (وليمة لأعشاب البحر) .

وبلغة الفقيه القانونى فإن المسألة بدت تحتاج إلى تحرير محل النزاع ـ كما يرى الدكتور محمد سليم العوا ـ ولهذا فقد حرره فيما يلى :

١ـ لم يطلق حيدر حيدر صيحات فى فراغ فلاة ، ولكنه كتب رواية نشرت فى مجتمع يمثل أمة متقدمة ذات حضارة ، وكل ما ينشر يجب أن يكون فى دائرة ما يقبله هذا المجتمع وبما يحتمله عرف الناس،وذوقهم العام فيه . هذا رأى الدكتور محمد سليم العوا رجل الفقه القانونى وقد يكون محل طعن من المدرسة العصفورية (التى من حقها من دون الناس أن تقرأ الأعمال الإبداعية) ولهذا وجب تعضيد رأى الدكتور العوا برأى ناقد من أكبر النقاد الغربيين،هو . رتشاردز . قال رتشاردز فى كتاب مبادئ النقد الأدبى فصل: توازن الفنان : « إذا كان أول شىء يميز المبدع ، قدرته على استرجاع تجاربه الماضية ، فإن ثانى مميزاته هو ما يمكننا أن نسميه هنا توازنه Normality فالمبدع مصيره الفشل طالما أن تجربته التى يود أن يوصلها إلى غيره لا تطابق تجاربهم . . . إن الناس يشتركون فى عدد كبير من الدوافع ، وظاهر هذه الدوافع ومنبهاتها والطرق التى تسير فيها متجانسة ومتشابهة لدى الجميع » [١] .

---

(١) رتشاردز : مبادئ النقد الأدبى ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

ولكن حيدر حيدر أهمل تجارب الناس ، ودوافعهم ومنبهاتهم ، وصدمهم ، فقدم عملا ينافى الذوق العام ، وفطرة الناس . إن مؤلفا مثل حيدر وصفه رتشاردز بالمؤلف «ذو الرأس المفعمة بصور شريرة غير طبيعية » (١) .

٢ ـ اللغة العربية ، لغة رفيعة المقام بين لغات العالم ، ولا يجب أن ندسها بألفاظ سوقية خبيثة ، نطقت بها نفوس خبيثة الطوية . وهذه اللغة يتكلمها من حملوا الثقافة والعقيدة والأخلاق ، ولهم مرجعية ثقافية وحضارية ودينية ، وليسوا ملزمين بتقبل ما يسيء إليهم ، ولو كانت هناك قلة ترى فى السفول إبداعا ، وفى الانحطاط أدبا فليكن ذلك شأنهم فى ندواتهم ومسامراتهم الخاصة ، يتظرفون فيها أو يتزقون هذا شأنهم ما داموا بعيدين عن عامة الناس فى مجتمع الفضيلة ، فإن يفعلوا الفاحشة أو يشيعوها بين الناس كان إعمال القانون فيهم واجبا كما يحدث فى كل بلاد العالم المتحضر .

« القانون فى الولايات المتحدة وأوربا كلها وإسرائيل يعاقب على مجرد التشكيك فى الرواية الصهيونية التى تروى أحداث اضطهاد اليهود مع أنهـا خرافة سياسية لا عقيدة دينية ، ولا قيمة أخلاقية . فهل يلوم أحد ـ فضلا عن أن يتهم ـ طلاب أعرق جامعة إسلامية أن غضبوا لدينهم ؟ وهل يجوز وصفهم بالدهماء ؟ » وهل يجوز اتهام شيوخهم بالجمود والتحريض على حرق الكتب ومقارنتهم بهتلر وموسولينى ونيرون ، ألم يدر هؤلاء أن أسلاف هؤلاء الشيوخ هم الذين بعثوا النور فى أقدم جامعة فى العالم فى التاريخ المعروف وهم الذين نقلوا قيادة الثقافة من بغداد إلى القاهرة .

٣ ـ وجوب التفريق بين الغضب المشروع والغضب غير المشروع . إن التعبير عن رفض الرواية مشروع ، ولكن تجاوز التعبير عنه ، بالاعتداء على الممتلكات العامة غير مشروع .

٤ ـ ما دام حيدر قد كتب ، فلابد أن يخضع ما كتب للنقد ، وكل كاتب يتحتم عليه أن يحترم النقد ، وإن أراد كاتب أن يعصم نفسه من انتقاد المنتقدين : « فليمسك عليه قلمه ولسانه » وليس من حق بعض المختلفين أن يفرض وصايته على بعض آخر أو « يحجر بعض على بعض ، ولا يدعى أحد أنه المختص وحده دون خلق الله كلهم بالتقويم » كما تدعى لجنة وزارة الثقافة ولو ترأسها شيخ النقاد الدكتور عبد القادر القط

---

(١) رتشاردز : مبادئ النقد الأدبى ص ٣٤٢ .

خاصة وأن رواية (وليمة لأعشاب البحر) عمل فنى مبذول لكل الناس ، ولا يقدر حيدر واللجنة أن يحجروا على رأى قارئ قرأ الرواية وقال رأيا يقبل أو يرفض ، وإلا كان على حيدر أن يطبع الرواية نسخا بعدد أفراد اللجنة التى شكلها أمين المجلس الأعلى للثقافة ؛ لأن أعضاءها وحدهم القادرون على قراءتها ، وفهمها والحكم عليها .

إن كاتبا بدون قراء يمدحون عمله أو يذمونه ، يستحسنونه أو يمجونه لا يساوى عمله المداد الذى كتب به ما كتب . ولهذا نقول للجنة العصفورية إن رواية (وليمة لأعشاب البحر) ليست نظرية (الفيمتو ثانية) ليقال : إن العالم أحمد زويل وحده هو الذى يقول رأيه فيها، وليست نظرية (الجينوم) لنطلب فيها شرحا من الدكتور أحمد مستجير. وليست فى الطبيعة النووية أو علم الكائنات الدقيقة . إن من حق أى قارئ أن يقول رأيه فيها مادام قد قرأها ، كما يقول رأيه فى رواية تمثيلية أو مسرحية شاهدها .

إن تقرير اللجنة شىء يثير الضحك أو السخرية ، وقد يثير الغثيان؛ لأنهم يعتبرون رواية (وليمة لأعشاب البحر) من التجارب الروائية النادرة، وأن فئة قليلة من القراء (هم اللجنة نفسها) لها عقل مختلف وأدوات إدراك وفهم مختلفة عن عقول الناس ومداركهم وكأن الله ـ عز شأنه ـ قد استثناهم فى الخلق فميزهم عن بقية خلقه. وهذا ما يخالف العلم والنقد . قال رتشاردز فى مبادئ النقد الأدبى : « إننا جميعا لسنا إلا فروعا من نفس الشجرة ، فلابد أن الطبيعة البشرية تشترك فى الشىء الكثير ، ولا بد أن الناس يشتركون فى موقفهم من العالم . ولا بد أن يأخذ تنظيمهم على هذا الأساس أنحاء متشابهة بحيث إن من الاحتمالات البعيدة جدا أن يتمكن أحدهم من تحقيق النظام فى نفسه على نحو مختلف اختلافا شاسعا . ومن المعروف أننا ننزع إلى المبالغة فى الفروق بين الناس ، وإذا نحن درسنا ما يسمى عادة : العقل بمفرده فقد يدعونا ذلك إلى افتراض أن العقول تختلف فيما بينها كل الاختلاف ، ولكن متى ما دققنا النظر وأخذنا فى اعتبارنا الإنسان بأسره بما فى ذلك أفعاله المنعكسة ، ونظرنا إلى العقل باعتباره جزءاً من نظامه الكلى أكثر دقة وتطورا من أجزائه الأخرى ، حينئذ لن يوجد ما يغرينا على الاعتقاد بأنه على هذه الدرجة من الاختلاف » (١) .

ما رأى الدكتور جابر عصفور وعصبته فى هذا الكلام ؟ ثم ألم تسمع بالمقولة

(١) رتشاردز : مبادئ النقد الأدبى ص ٢٥٧ .

الشعبية التى يرددها أولاد البلد : كلنا أولاد تسعة . أما القلة القليلة من أبناء السبعة أو أبناء الثمانية فهم المبتسرون ، وفى قول آخر: الخدج .

٥ ـ الزعم بأن الرواية تمجد الإسلام زعم متهافت فارغ لا يفوقه تهافتا إلا زعم المؤلف نفسه أنه « مجتهد » لأن النص حمال أوجه ، وأنه مع الفقه المتنور ـ يقول حيدر فى رده على محمد عباس : « نحن نعرف ديننا وتراثنا ، نعرف تاريخنا وإسلامنا ، ولسنا بحاجة إلى فقهاء ومتعصبين ودعاة يرشدوننا إلى الصراط ، لكنا نعرف فى الآن ذاته مواطن الخلل والتأويل الجاهلى ، وكهوف الظلام الذى يستودع فيها الإسلام السياسى المغلق الاحتكارى لفئة تتاجر بالإسلام ، وترشق التهم لمن لا ينتمى لقبيلتها العصبية » (أخبار الأدب فى ٧ مايو ٢٠٠٠) .

أى فقه متنور يقصده الكاتب ؟ هل فقه يتم استيراده مع الجينز والكوكاكولا ؟ إننا لا نعرف إلا فقه علمائنا المستمدة أحكامه من أصوله الشرعية من كتاب الله العزيز ، وسنة نبينا محمد ﷺ واجتهاد علماء الأمة .

حيدر حيدر يردد الكلام نفسه الذى يردده من شابهوه ، ومع رداءة ما كتب وسفوله يزعم أولا : أنه يدافع عن الإسلام ،وثانيا: يزعم أنه مجتهد ، فهل ألف فى علم الفقه وأصوله ؟ أو فى علم من علوم القرآن كالتفسير ليستدل بقول على رضي الله عنه فى التفسير: (القرآن حمال أوجه)؟ تصوروا أنه يقول هذا الكلام فى مورد حديثه ودفاعه عن رواية قال فيها الأزهر الشريف أكبر مرجعية دينية فى العالم الإسلامى : « إنها خروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة » .

أيُصدق هذا الكويتب الذى لا يدرى ما الإسلام ، ويُردُّ حكمًا صدر عن علماء الأزهر الشريف ، فى شأن دينى ؟!

وفى مواضع الرواية التى زعم وزعمت اللجنة أنها تدافع عن الإسلام ، وهى مواضع عدها الدكتور محمد سليم العوا أربعة مواضع فى صفحات (٢٢ ،٨٥ ـ ٨٧ ، ٥٠٣ ، ٦١٠ ـ ٦١٥) وهى التى وصفها د.جابر قميحة:« بالتزوير المقصود » (مقاله فى آفاق عربية فى ١ يونيه ٢٠٠٠) . وعلق عليها الدكتور محمد سليم العوا بعد أن فندها قائلا : « لست مرتابا قط فى أن القارئ لن يجد فى هذه المواضع الأربعة ما وجده فيها المسرورون بالرواية من تمجيد للإسلام ، كما أنه لن يجد مهما أعاد قراءة الرواية ذلك الحوار بين جماعتين مؤمنة وملحدة تنتصر المؤمنة فى آخرها على الملحدة ويعلو

شأن الدين ، كما زعم بعض المدافعين عنها ؛ لأن أطراف الحديث كانت مهيار الباهلى ومهدى جواد ، وفلة بوعناب ـ والحوار كان بين مهيار ومهدى وهما ملحدان بحضور فلة التى لم تكن تعرف عن موقفها من الدين شيئا ؛ لأن فكرة الدين لم تخطر بخاطرها فى تصوير الرواية لها .

إنه يلوم المنتقدين للرواية ؛ لأنهم انتقدوا نصا لم يقرؤوه ـ بزعمه ـ ولو قرأه هو نفسه مائة مرة لعلم ما به من تدليس ، بل إن التدليس بعينه أن يوهم المؤلف أو تتوهم اللجنة أن بها فقرات تدافع عن الدين ، وتعلى من شأن القيم الصحيحة .

المسألة لا تتوقف عند كونها تدليسا فحسب ، إنما تزيد على ذلك أن تفرض اللجنة على الناس أن يقرؤوا فكرا متهافتا بزعم أنه يمجد الدين ويعلى من شأن القيم ، ويدافع عن الإسلام .إن أحدا لن يقبل هذا التدليس حتى ولو كالت له اللجنة وكل (التنويريين إياهم) كل التهم بالجمود والتخلف وعدم الفهم .

٦ ـ إن اختلاف الرأى الذى أثير حول الرواية من مختلف التيارات يوضح علامة سيئة تؤكد غياب الحوار البناء المحترم الذى يفرق بين الحق والباطل ، ويبين الرشد من الغى ، وأن الذين قالوا : إن مخالفيهم لم يفهموا النص أعطوا لأنفسهم حقا ليس لهم، فهم ليسوا حكاما على عقول الناس ومداركهم . إن أمتنا أمة متدينة ولا يجوز التغابى عن ذلك ، ولا يجوز فرض الحكم على الرواية من وجهة نظر أدبية فقط ، إذا تجاوزت حدود الدين والأخلاق « وحكم الحلال والحرام فى كل ثقافة فى الدنيا حكم دينى وليس حكما أدبيا أو فنيا ، فإذا أخرجت الدين ـ كما يريدون ـ من معايير الحكم على الفن والإبداع والأدب فقدنا مرجعية هذا الحكم أصلا ، وأبحنا لمن شاء أن يقذف فى حياتنا الثقافية بما شاء ، وصارت هذه الحياة الثقافية فوضى لا ضابط لها » .

٧ ـ رواية (الوليمة) واحدة من عشرات النصوص التى رمت بها وزارة الثقافة الناس فى العقدين الأخيرين ، تنشر بأموال الشعب « وقد ذكر بعض علماء الأزهر أن هناك أكثر من ثلاثين عملا من هذا النوع معروضة فى الأسواق ، صادرة عن وزارة الثقافة ». فلماذا تنفق الدولة على كل هذه الأعمال من أموال الشعب، ولو أن دارا للنشر من غير مؤسسات الدولة الرسمية فعلت ذلك لهان الأمر ، ولكن إصرار بعض المسؤولين فى الوزارة على نشر مثل هذه الأعمال بهذه الصورة قد يوحى بأنه التوجه الرسمى للدولة ، وهذا غير صحيح ؛ لأن دعم رئيس الجمهورية ـ حفظه الله ورعاه ـ

للمؤسسات الدينية، وحفظة القرآن الكريم والمساجد، وكل ما له صلة بالدين يؤكد أن نشر مثل هذه الأعمال من خطط بعض المسؤولين فى وزارة الثقافة، لا خطة الحكومة.

إن هؤلاء الذين ينشرون مثل هذه الأعمال الأدبية والفكرية يقصدون إحداث تحولات سلبية فى الذوق العام العربى ـ والمصرى بصفة خاصة ـ لدوره المؤثر فى المنطقة العربية ، ثم هل الأوفق أن تنشر وزارة الثقافة المصرية إبداعا مصريا حقيقيا لمبدعين شبان فى حاجة لمن يأخذ بأيديهم ، أم تنشر الوزارة رواية رديئة لكاتب سورى لم ترض عنه سوريا ، له أسلوب سوقى وذوق ردىء ، ولا ينتمى عمله الإبداعى إلى الأدب الرفيع بل إلى أدب أميل إلى الإفساد منه إلى الإصلاح ، وهل يريد مسؤولون فى وزارة الثقافة لبناتنا وأبنائنا أن: « يهجروا الفضيلة، ويتحولوا إلى الرذيلة، وأن يتجنبوا المشروع والمباح ، ليقعوا فى الممنوع والحرام . وأن تفقد ألسنتهم استقامتها وعذوبتها ورقيها لتصبح لغتها كلها سوقية تعف عن سماعها الآذان ؟» هذا سؤال من الدكتور محمد سليم العوا إلى مسؤولين فى وزارة الثقافة . والله نسأل أن تكون الإجابة شافية لما فى الصدور .

٨ ـ كانت فتنة (الوليمة) اختباراً لمدى شجاعتنا الأدبية ، ولقد أثبتت أن كثيرين فقدوا فضيلة الشجاعة الأدبية ، فلو أن مسؤولا من وزارة الثقافة قدم اعتذارا عن خطأ نشر الرواية لانتهى الأمر ،ولكن أجهزة الوزارة كلها أصرت على موقفها ، بل إن تقرير اللجنة اختتم أقواله بأنه لا يمانع من نشر رواية (وليمة لأعشاب البحر مرة ثانية) . قالت اللجنة فى ختام التقرير : « لهذا فإن إعادة نشر الرواية لا يمكن أن يعد مساسا بالدين، ولا يجوز محاكمتها من منظور غير أدبى ، وما قيل عنها فيه تجن كبير عليها ، وتحريف لمواضعها ، وتجاهل لقيمتها الفنية المتميزة » .

وهكذا تحول كبر فرية إلى نص مقدس .

(٧)
محمد حسنين هيكل شاهد فوق العادة

لماذا كان الأستاذ محمد حسنين هيكل شاهدا فوق العادة ؟

أولا : لأنه شيخ كتاب الصحافة وكبيرهم ، الذين لهم شهادة على التاريخ العربى المعاصر .

ثانيا : يعد الأستاذ هيكل من أصحاب الأسلوب البيانى البلاغى ، مما يجعله كاتبا أديبا له أسلوبه المتميز فى الكتابة ، ومن ثم يعتد برأيه فيها .

ثالثا : صاحب رؤية شديدة الحساسية ، قلما تخطئ فى الحكم .

رابعا : له فى الأشياء رؤية شمولية تربط بين شؤون شتى فى مجالات شتى مثل الأدب والسياسة وشؤون أخرى .

خامسا: أن الأستاذ محمد حسنين هيكل لم يدل بشهادته إلا بعد أن أدلى الآخرون بشهاداتهم ، وقرأها وحللها ، وعرف ما فيها من نقاط قوة ، ونقاط ضعف ، مما يعطى قيمة لرأيه ، فهو رأى المتمهمل الكيس الفطن غير المتعجل ، وهذا دأبه دائما لا يسارع إلى إبداء رأى ، وطرح فكر إلا بعد دراسة وتأن .

سادسا: أن الأستاذ محمد حسنين هيكل لا يحسب على أى من التياريين المتخاصمين فلا هو من اليسار الغالى ، الذى نعت نفسه بتيار المثقفين التنويريين ، ولا هو ممن أطلق عليهم التيار الأول : تيار الإظلاميين ، فهو كاتب حر اشتهر بذلك بين القراء .

سابعا : كاتب متمكن ، مكنه قلمه وحصنه من هجوم بغاث الكتاب ،الذين لا هم لهم إلا الهجوم على مخالفيهم فى الرأى لمجرد الخلاف .

إنه رأى صادر عن قوى ، لا عن ضعيف .

يقدم الأستاذ محمد حسنين هيكل مقاله بمقدمة يظهر فيها التواضع ، الذى لا يخفى اعتداده بنفسه ، واعتزازه برأيه . فيبدأ بالاعتذار عن أنه يلج موضوعا ليس فى مجال ما يكتب عادة ، فالحديث عن قصة أدبية وليست صناعته الأدب ، كما أن الحديث فيه شأن دينى ، وشؤون الدين من اختصاص الفقهاء يقول : « ولدواع واعتبارات كثيرة ، فإن إجابتى لا تقصد إلى القصة مباشرة ، وإنما تذهب إليها عن طريق دائرى ، متحسبا لاحتمال أن يكون الطريق المباشر داخلا وسط عشوائيات من الأفضل تجنبها ، وكذلك فإن الطريق الدائرى ولو أنه أطول ، فهو بالقطع أوسع ولهذا السبب أسرع » [1] .

ويدخل الأستاذ محمد حسنين هيكل إلى الموضوع عن طريق رواية سلمان رشدى (آيات شيطانية) فكل من سلمان رشدى وحيدر يتتميان إلى فرقتين خرجتا من المذهب

---

(١) مقال : « على أطراف الدين والسياسة والأدب » ، مجلة وجهات نظر ، يوليو ٢٠٠٠ م .

الشيعى ، فسلمان رشدى هندى إسماعيلى ، وحيدر حيدر سورى علوى . ورواية كل من سلمان أنيس رشدى (آيات شيطانية) وحيدر حيدر (وليمة لأعشاب البحر) أثارت جدلا ونفورا عند المسلمين بسبب ما جاء فيها من اعتداءات على مقدسات المسلمين وبسبب الرواية الأولى تظاهر مسلمون مقيمون فى لندن ، وبسبب الرواية الثانية تظاهر مسلمون فى القاهرة ـ من طالبات الأزهر وطلابه .

لعل الأستاذ هيكل بهذا الربط بين الكاتبين والروايتين أراد ربط رد الفعل فى مجتمع لندن الذى لا يدين بالإسلام ـ إلا طائفة قليلة ، ومجتمع القاهرة الذى يدين بالإسلام .

وبيّن الأستاذ هيكل أن الإمام الخمينى ـ يرحمه الله ـ عندما علم بخبر الرواية حاول أن يتجاهل الأمر ، « ولم يعره فى البداية اهتماما يذكر،وكان تقديره أن الإهمال والنسيان ، كلاهما كفيل بعقاب هذا التجاوز الذى سئل عنه » . وتنبيه الأستاذ هيكل إلى ذلك يعنى أنه ما كان يجب إعارة رواية (وليمة لأعشاب البحر) أى اهتمام ، وكان هذا كفيلا بعقاب صاحبها عقاب إهمال « ولكن استمرار المظاهرات ضد الرواية واتساع نطاقها من لندن إلى دكا جعل قائد الثورة الإسلامية فى إيران يغير رأيه وحسابه أنها فرصة لحشد مشاعر العالم الإسلامى ضد طاغوت الغرب واستكباره فى الأدب كما فى السياسة » .

« وهنا أصدر آية الله الخمينى فتوى ضد (آيات شيطانية) رأى فيها أن مؤلفها سب النبى ،وهو باب له فقهه،وله أحكام تترتب عليه تتوازى مع أحكام الردة عن الإسلام ، والكفر بتعاليمه بعد الإيمان » .

الشىء نفسه حدث للوليمة،فبعد استمرار المظاهرات والرفض من المسلمين بالقاهرة، ومناقشة الموضوع فى مجلس الشعب ، ووقوف اللجنة الدينية فى المجلس تفند ما جاء بالرواية من انحراف ، رأى المجلس أخذ فتوى الأزهر الشريف ، فكانت الفتوى الشهيرة فى (١٧ مايو ٢٠٠٠) وكان أهم ما جاء بالفتوى أنها : « خروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة » .وثنى الدكتور يوسف القرضاوى ، و هو من كبار فقهاء المسلمين السنة على فتوى الأزهر « بأن ما جاء بالرواية كفر ، ومن علمه ورضى عنه كافر » (صحيفة الأسبوع فى ٢٢ مايو ٢٠٠٠) وهذه الفتوى لا تخرج على فتوى الأزهر الشريف؛لأن من يرد معلوما من الدين بالضرورة كافر ، وأن الخروج على معلوم

من الدين بالضرورة يعد كفرا .

وفى كل من الواقعتين كان هناك تياران متضادان يتربص كل منهما بالآخر ، ففى الحالة الأولى الإمام الخمينى ، ومن اعتبروا فتواه ذات مرجعية دينية عالية المقام وما نتج عنها من أحاديث مثيرة وجدل ، ومظاهرات امتدت من مدينة لندن إلى مدن كثيرة فى قارة آسيا ثم فى العالم العربى والإسلامى كله. كلهم استنفروا لإهانة نبيهم - عليه الصلاة والسلام - وأزواجه الأطهار ﵅ ، وازدراء الوحى والقرآن وجبريل ﵇ . الشىء نفسه حدث فى مصر ، دون أن يمتد خارج الحدود العربية ، إلا فى مساحات صغيرة ممثلا فى الأزهر الشريف فى تظاهر طلابه وفتواه - وفى فتوى الدكتور يوسف القرضاوى، وصحيفة الشعب التهيجية ، وكل المؤمنين المُسْتَنْفَرين غيرة على مقدساتهم ، خاصة الذات الإلهية .

كل أولئك وهؤلاء فى مواجهة تيار علمانى يحرسه إعلام قوى فى بريطانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ، ثم بقية دول الغرب . وكل هؤلاء رأوا فى ثورة المسلمين على سلمان رشدى وروايته « أنه التعصب الإسلامى وضيق الأفق ، وزعيم إسلامى (الخمينى) تخلف من عصور سابقة ، ويريد أن يفرض تزمته على عصور مستجدة ، وعدوانا على كل الحقوق ابتداء من الحق فى التخيل الأدبى ، إلى الحق فى حرية النشر ، إلى الحق فى الحياة ، تضامنا مع سلمان رشدى ، وراحت الحملة تتصاعد يوما بعد يوم ، وكان الدينى فيها يتراجع والسياسى فيها يتقدم ، وبمقدار ما كان الدين ذريعة للسياسة فى موقف الخمينى ، فإن الحرية كانت ذريعة للسياسة أيضا فى موقف الآخرين ».

وهذا ما حدث مثله فى أحداث نتجت عن نشر رواية (وليمة لأعشاب البحر) وكما قال الأستاذ محمد حسنين هيكل : « ومن اللافت للنظر أن كثيرين من المشتغلين بالكتابة والثقافة فى العالم العربى كانوا ضمن أعلى الأصوات تأييدا لسلمان رشدى بدعوى الحق فى الإبداع (وذلك لفظ معبأ فيما أحس بالادعاء) كما أن حرية الفكر والنشر وسلطة الخيال على النص الأدبى لا ينبغى أن يصدها عائق ما كأنه يمكن الفصل بين روح الحرية غير المسؤولة ، وروح القانون » .

وبدأت تمثيليات سلمان رشدى الاستعراضية ، كان عليه أن يستغل الموقف باعتباره ضحية عقلية إسلامية جامدة ومتخلفة لا تفهم حقيقة الإبداع الأدبى ، وحق المبدع فى

التخيل. وساعدته الصحف البريطانية ـ قبل غيرها ، فنشرت له الصحف فى بريطانيا فى (١٤ فبراير ١٩٨٩) تصريحا له يقول : « إن ما يقلقنى أشد القلق أن هولاء الذين يتظاهرون ضد الكتاب لم يقرؤوه ، ثم أضاف لوسائل إعلام عربية تصريحات أقسم عليها بأغلظ يمين أنه آخر إنسان يسىء إلى الإسلام ، وهو الدارس المتعمق فى تاريخه ، وأنه يعتقد أنه خدم الإسلام إذ أظهره كنزا للفن ، ومستودعا لرؤية جمالية بلا حدود » .

والشىء نفسه فعله حيدر حيدر فزعم أن رواية (وليمة لأعشاب البحر) فيها من الأصوات الدينية التى ترتفع كدعاء البارى وتسبيحه، واستشهد بفقرة وردت فى الرواية : « كل مجاهد علق على صدره قرآنا عربيا كان بمثابة الرقية ضد رصاص المستعمر الصليبى » وعلق قائلا: « هذا الموقف أساسى وجوهرى فى قناعاتى الذاتية» (من حديث حيدر إلى أخبار الأدب فى ٧ مايو ٢٠٠٠) وهو ما عده الدكتور محمد سليم العوا من تدليسات حيدر وتدليسات الرواية ، وما عده الدكتور جابر قميحة من التزوير المتعمد .

لكن القوى التى ساندت سلمان رشدى كانت أقوى من تلك التى ساندت حيدر حيدر ، كما أن القوى التى وقفت ضد سلمان رشدى كانت أقوى من تلك التى وقفت ضد حيدر، ولكن الطرق واحدة ، والأسلوب واحد عند جميع الأطراف فى القضيتين ، مع استثمار الموضوع كحدث سياسى فى كل من الحالين . لكن بينما كانت القوة التى ساندت سلمان رشدى ، تدرس الأمر قبل أن تقرر فيبدو رأيها مقبولا ، وإن قام على الكذب ، بدت ردود الفعل عند من ساندوا حيدر حيدر مشوشة ، والرؤيا غير واضحة ، والردود قلقة مضطربة تدور حول عبارات مكررة عندهم جميعا تدور فى حلقات مفرغة تردد كلمات : حرية الإبداع من جهة فى مقابل الإظلام وجهل بقراءة النص الأدبى ، وقصور فهم وجمود ومحاكم تفتيش . . . إلخ منظومة المزاعم والادعاءات والسباب التى وجهها مدعو الثقافة والتنوير والتحديث والتقدم المدنى لخصومهم من الإسلاميين الإظلاميين الجاهلين بفنون الإبداع والأدب وقراءته ونقده .

وأصدر جورج بوش الرئيس الأمريكى بيانا قال فيه : « إن كتاب رشدى يمكن أن يكون جارحا ، لكن التحريض على قتل المؤلف عمل لا يستطيع العالم المحتضر أن يسكت عنه » (عن وجهات نظر يوليو ٢٠٠٠) .

والرئيس بوش لم يقرأ الكتاب؛ لأن مشاغل الرياسة فى أهم دولة فى العالم تصرفه عن قراءة مثل هذا الكتاب ، ولكنه تحدث بموجب تقرير من لجنة حكماء لم تكن من

أنصار آية الله الخمينى،ولا من أنصار الإسلام والمسلمين ، بل من أنصار الديمقراطية الأمريكية ، ولكنها لجنة مسؤولة تعرف كيف تضع النقاط على الحروف قبل أن توجه كلامها إلى العالم . أى أنها ليست كلجنة عصفور التى اكتفت بتوجيه اللوم إلى علماء الأزهر الشريف ، ومن لف لفيفهم ، واتهامهم بالجهل بمسالك الإبداع المراوغة .

ثم أصدرت وزارة الخارجية البريطانية بيانا هذا نصه : « إن الحكومة الإيرانية عليها أن تقرر ما إذا كانت تريد علاقات طبيعية مع بقية العالم أم لا ؟ وإذا كانت تريد علاقات طبيعية،فأول ما يتعين عليها أن تفعله هو التبرؤ من هذه الفتوى التى تحرض المواطنين فى بلدان خارج إيران على التظاهر والعنف والقتل » (وجهات نظر يوليو ٢٠٠٠).

ثم أصدرت الإدارة الأمريكية بيانا قالت فيه : « إن آية الله الخمينى يمثل السلطة الأعلى فى نظام الثورة الإسلامية بوصفه مرشدها ، وصدور الفتوى منه بردّة سلمان رشدى عن الإسلام وإهدار دمه يعد رعاية رسمية من الدولة الإيرانية للإرهاب وتصديرا له ، وإذا لم تتراجع الحكومة الإيرانية عن ذلك الموقف فسوف توضع على قائمة الدول المصدرة للإرهاب ، ثم تطالها الإجراءات المقررة للدول الراعية للإرهاب ، وهى واصلة إلى درجة العزل والحجر ، وما هو أشد وأقصى » .

هكذا ظهر وجه راعى البقر الأمريكى American Cow - boy الذى يعلن استعداده لتدمير شعب لفتوى رجل ، كما حاول أن يفعل بإيران ، بل يصل الأمر لتدمير شعب لخطأ رجل منه كما فعل بشعب العراق .

وخرجت القضية عن كونها (رواية شيطانية) تقابلها فتوى دينية ، إلى قضية سياسية تهدد أمن الشعوب واستقرارها .

وكما يؤكد الأستاذ محمد حسنين هيكل فإن سلمان رشدى لم يصب بالذعر من جراء الفتوى ، ولكنه استغلها وسيلة يحقق بها شهرة شخصية ، كما فعل تماما حيدر حيدر . فلم يغلق سلمان رشدى الأبواب على نفسه ويختفى عن عيون منفذى الفتوى كما كان يقول ويقال عنه ، « وإنما كان يذهب كل ليلة إلى مفاجأة أصدقائه بحضور حفلاتهم وسهراتهم » .

هذا مع جهل الغرب بالفرق بين الفتوى التى اجتهد بها شخص،والحكم القضائى ، كما جهل المدافعون عن رواية (الوليمة) الفرق نفسه ، ولكن سلمان رشدى وجدها

فرصة للدعاية عن نفسه والتمهيد للشهرة ، كما فعل حيدر حيدر فى واقعة (الوليمة). وكما وجدها الغرب فرصة لإرهاب إيران ، وجدها المجلس الأعلى للثقافة ، واللجان المنبثقة منه ، وصحف وزارة الثقافة فرصة لضرب الإسلام يجب ألا تفوت .

وسدر سلمان رشدى فى غواياته مستغفلا الرأى العام قائلا للقراء الذين أساء إليهم : لو التفتوا بدقة إلى صياغة عبارات الرواية ،لاكتشفوا أنه قال ما قاله فى نصوص عمله ، وهو كالنائم يحلم ،وهو بالطبع ليس مسؤولا عن الأحلام ،لا هو ولا غيره ممن تجيؤهم الأحلام وهم نيام ،وهل يعاقب رجل على ما يحلم به فى نومه ؟ » .

وهو كلام شبيه لما قالته لجنة الحكم على الرواية برئاسة الدكتور عبد القادر القط وما قاله عصفور ، وقاله محمد صلاح عبد السميع فى (الوليمة) فقد جزموا بأن شخصيات رواية الوليمة شخصيات متخيلة ، وهى شخصيات سافلة ملحدة ، ولا دخل لمؤلف الرواية فى سفولهم أو إلحادهم ، ولا يمكن مؤاخذته وإدانته .

أما زوجة سلمان رشدى ، التى عاشت معه تلك الأيام ، التى صورت فى عيون العالم كله بأنها أيام قلقة لسلمان رشدى الكاتبة الأمريكية (ماريان ويجنز) فقد أعلنت على الملأ « أن زوجها سلمان رشدى كان سعيدا ، وهو يستمتع بالضجة التى ثارت حوله، وبالشهرة التى تحققت له ، وأن حجم مبيعات كتابه ، وحساب عوائدها كان شاغل آماله طول الوقت . ثم قالت : إنها كانت تتابع تصرفاته طوال تلك الفترة ، وأنها وجدته رجلا أنانيا بلا قضية حقيقية ، وأن الضجة من حوله أضافت إليه ورما من الغرور بحجم فيل .

وتآكل إعجابها به وتلاشى ، وكذلك تلاشى حبها له ، وقررت أن تنفصل عنه ناجية بتوازنها العقلى والنفسى من عالمه المجنون » وانتهى الأمر بطلاقها منه وعادت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وتركته يعانى من أحلامه وغروره بلندن .

وكان هذا الفراق هو المفارقة الوحيدة بين واقعتى (آيات شيطانية) ومؤلفها و(وليمة لأعشاب البحر) ومؤلفها . فبينما رفضت زوجة سلمان رشدى ، والمفروض أنها أقرب الناس إليه ، أن يتدخل التدليس والخديعة فى حياتها ، قبلت اللجنة العصفورية ، ومن لف لفيفها أن تغرق فى أحلامها العشبية ،وأكدت أن هناك فرقا بين أحلام المثقفة الكاتبة الأمريكية (ماريان ويجنز) وأحلام العصافير .

ودونت هذه الزوجة الأمينة على قيم الثقافة شهادتها على عمل مخز ، مع أن الذى قدمه للناس زوجها ، فكان فخرا يليق بها كمثقفة حقيقية. ولعل الشىء نفسه حدث لحيدر حيدر ، ضئيل الجسم والرأس، فقد أصيب بورم الغرور هو الآخر ، وتحول من مجهول ، إلى شخصية شغلت مصر كلها والعرب ، وصرح بأنه « سعيد برفع الحصار عن كتبه ، ونشر رواية (الوليمة) فى القاهرة » (أخبار الأدب فى ٧ / ٥ / ٢٠٠٠) ولم تفارقه زوجته ، ولم تتخل عنه لجنة أخطأت وكبر عليها أن تعتذر .

المواقف المسؤولة تجاه الآيات الشيطانية : تقدم مسلمون يحملون الجنسية البريطانية ضد مؤلف الكتاب (سلمان رشدى) وناشره؛ لأن الرواية تتضمن إهانة للإسلام Blasphemy - وصدر الحكم فى نوفمبر ١٩٩١ وقد وصف الأستاذ محمد حسنين هيكل هذا الحكم بأنه كان إرساء لقاعدة جديرة بالاهتمام والاحترام . صدر الحكم عن كبير القضاة Iord of Justice قال : إن المحكمة تجد نفسها فى وضع لا يسمح لها بالفصل فى موضوع هذه القضية وبينت حيثيات الموضوع من جانبين :

الجانب الأول: أن القوانين البريطانية تسمح لمن يشاء بإنكار الدين، أو مناقشة تعاليمه وأحكامه ، عملا بمبدأ حرية كل إنسان فيما يؤمن به من عقيدة . لكن القوانين البريطانية فى الوقت نفسه لا تسمح بإهانة الدين Blasphemy؛ لأن ذلك يخرج عن مبدأ حرية كل إنسان فى عقيدته باعتبار أن إهانة أى دين، عدوان على عقائد المؤمنين به تمس ضمائرهم، وتجرح مشاعرهم .

أما الجانب الثانى (فى تقدير كبير القضاة): فهو أن المحاكم فى بريطانيا لا تملك من القوانين ما يسمح لها بتطبيق مبدأ عدم إهانة الدين على أديان أخرى غير المسيحية « على أن المحكمة فى هذا الصدد تلفت نظر البرلمان (الإنجليزى) إلى أن بريطانيا قد أصبحت بلدا تتعدد فيه الديانات ، على عكس ما كان الحال عليه عندما وضعت نصوص حظر إهانة الدين المسيحى . فإن حقوق غير المسيحيين من المواطنين البريطانيين تتطلب إجراء تعديلات ، أو إلحاق تعديلات ، وإضافات للقوانين تحمى الأديان الأخرى غير المسيحية من الإهانة Blasphemy » (وجهات نظر يوليو ٢٠٠٠) .

وهكذا حكم القضاء الإنجليزى على الرواية بأنها أهانت المسلمين ، ولولا أن القانون الإنجليزى ينص على إلحاق العقوبة لإهانة الدين المسيحى فقط ، لنزل العقاب

المادى والبدنى بمؤلف الرواية . وكما هو معلوم فإن حكم القضاء أقوى من فتوى فقيه أو فقهاء لنفوذه ونفاذه .

ولـم يقف أمـر إدانـة رواية (آيات شيطانية لسلمان رشدى) عند القضاء الإنجليزى فقط ، بل أدانتها أعظم قوة مسيحية فى العالم ، فقد عبر الفاتيكان فى العالم المسيحى عن قلقه لقلق العالم الإسلامى ، لإحساس الفاتيكان بأن العاصفة تكاد تندفع إلى حيث لا يريد أحد . ومن ثم فقد صدر بيان عن المقر البابوى فى روما نشرته صحيفته الرسمية أوبسرفاتورى رومانو Obser Vatore Romano نصه :« إن ملايين المسلمين أحسوا بالغضب لما قرؤوه فى قصة سلمان رشدى ، ومن الضرورى لكل مسيحى احتراما لدينه على الأقـل أن يستاء مـن أية إهانـة توجـه إلى ديانات غيره ، وعلينا أن نتذكر أن قداسة العقيدة لا تقل أهمية عن قداسة الحياة » .

واللافت لنظر ذوى البصيرة هاهنا أن أحدا لم يعترض على حكم القضاء الإنجليزى، لا باسم الإبداع ، ولا باسم الحرية ؛ لأنه حكم قضائى ، بل إن الحكم دعا الهيئة التشريعية العليا (البرلمان الإنجليزى) بضرورة إصدار تشريع يجرم إهانة الأديان ، ولو كانت غير المسيحية .

كما لم يسخر كاتب أو صحافى ،(أو متكسب إنكشارى) باسم الثقافة أو الصحافة من الحبر الأعظم البابا يوحنا بولس الثانى ، الذى يعادل مقامه فى العالم الكاثوليكى مقام صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر،ولـم نفاجأ بمقال بعنوان : (فاتيكان هذا الزمان) يزدرى كهنة الكنيسة الكاثوليكية ورهبانها ، كمقال عصفور (أزهر هذا الزمان) يزرى بالأزهر وشيوخه ويتهمهم بالجمود وقصور الفهم . ولـم يقل أحد لكهنة الفاتيكان :« من علمكم القراءة يا سادة » ؟! لأن حكم المحكمة البريطانية العليا ـ وبيان البابا يوحنا بولس الثانى قد صدرا فى أجواء صحية لا فى أمكنة ثقافة فاسدة .

أهـم مـا يهـم فى مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل ، بعـد توثيق الصلة بين روايتى (آيات شيطانية) و(وليمة لأعشاب البحر) ،وبين مؤلفيهما : سلمان رشدى ، وحيدر حيدر ،وكذا الملابسات التى دارت حول العملين أن الأستاذ هيكل أصدر ما يلى (وليس بنصه) :

إن ما أثير حول الوليمة فى مصر لا صلة له بقضية حرية النشر التى يتباهى بها مـن تلفحوا بالثقافة ؛ لأن الرواية صدرت من وزارة مسؤولة لا دار نشر خاصة ، ولو أنها

نشرت فى لبنان (مثلا) لكانت قضية حرية ، ففى لبنان يستطيع أى كاتب أن يكتب ، ويستطيع أى ناشر أن ينشر ، وأمر الكتابة متعلق بحق الكاتب فى التعبير ، أما حق الناشر فى النشر فهو عملية تجارية بحتة بلغة السوق بلبنان . لكن هذا لا يلغى حق النقد أو الانتقاد ؛ لأن المجتمع الذى يمنح الكاتب حرية النشر ، يمنعه من الإساءة إلى الناس الذين يمثلون المجتمع ذاته .

ثم إن نشر هذا العمل بمصر بواسطة وزارة الثقافة ،وهى وزارة مسؤولة من وزارات الحكم يعد قراراً بتزكية العمل (الرواية) عن رغبة فى تعميم محتواها الفنى والأدبى؛ ولذلك تم دعم نشرها ماديا فقد صدرت الرواية فى نحو من ٧٠٠(سبعمائة صفحة) وبيعت بأربعة جنيهات وتتكلف ثلاثة أضعاف المبلغ الذى بيعت به . والمشكلة كما يقول الأستاذ هيكل: «ليست فى النشر أو عدم النشر،وإنما المشكلة جهاز دولة مسؤول عن الثقافة،وكلف بتقديم الأنفع والأرفع من عيونها بحسب تعبير توفيق الحكيم ، ومستوى اختياره للأنفع والأرفع هو بذاته مستوى أدائه ودرجة مسؤوليته . إن صدور طبعة مصرية (للرواية) بقرار من مؤسسة دولة وبأموالها بحد ذاته مشكلة تبرز فى توجهات الثقافة » .

ثم إن الخطاب الصادر من الوزارة ـ بدءا من الوزير إلى المجلس الأعلى للثقافة أو هيئة قصور الثقافة بدا يحمل كمية كبيرة من الثقة بما قدمت الوزارة من أعمال وصفتها بالإبداعية بصرف النظر عما تحمل من فساد ورائحة عفنة يستقذرها عامة القراء وخاصتهم من المتدينين ـ والأمر كما صوره الأستاذ هيكل : « يحمل نبرة ثقة زائدة توحى لمن يهمه الأمر بأن وزارة الثقافة لها وضع خاص ، والمعنى الكامن وراء الإيحاء بأن الوزارة تعد من المحميات السياسية ، أى مناطق يكون الدخول إليها باحتراس والتعامل معها بحذر ، والخروج منها برقة ».

وهكذا أصبح مجرد خطأ طبع رواية ونشرها بواسطة أجهزة وزارة الثقافة أزمة ، بل أزمات:أزمة تمثلت فى تطاول الرواية على المقدسات.وأزمة أخلاقية تمثلت فى سوقية أسلوب الرواية وبذاءته ، واستغراقها فى الدعارة والخمر والمخدرات . فضلا عن الأزمة الاقتصادية ؛ لأن الوزارة دفعت فيها من المال أضعاف ما جنته منها من أموال فى ظروف كانت البلاد تعانى فيها من أزمة السيولة النقدية .

وسواء كانت الطريقة التى عرضت بها صحيفة الشعب موضوع الرواية ، مثيرة

ومنفرة أو مهيجة أو مفتعلة من أجل تحقيق مكاسب حزبية سياسية من ورائها ، خاصة وأن الانتخابات التشريعية على الأبواب . فإن الأسلوب الذى لجأت إليه وزارة الثقافة ، ومن التفوا حولها ، فى الدفاع عن الوليمة بدا كأنه « استدعاء وهمى ،لقيم عظيمة فى غير مجالها،مثل الحق والحرية والاستنارة والتنوير ، ومثل العلم والثقافة .وجريان رسم الخطط لمعارك مهيبة مثل الانتصار للعقل ضد الجهل ، والتقدم مع جيوش النور حتى تندحر جيوش الظلام وغيره وغيره ».

« والحقيقة أنه ليس هناك ما يسىء إلى القيم مثل استدعائها إلى غير مجالها ، فذلك يدفع إلى ميادين القتال جيوشا بلا خطط ، ويحمل إلى المواقع ذخائر بغير مدافع، ويلقى على الأرض شحنات قابلة للانفجار دون قوة إطلاق تأخذ حمولات النار إلى هدف » .

عندما تحولت (الوليمة) إلى أزمة بدا كل شىء فى وزارة الثقافة فى أزمة ، أو على الأقل ظهرت مسرحية من مسرح الفن الارتجالى كتلك التى يطلق عليها الإيطاليون الملهاة المرتجلة Commedia de l'Are دون ما إعداد مسبق للعمل الفنى ،فهم يواجهون الجمهور بما تمليه ظروف المواجهة،وهذا ما حدث لكل أجهزة وزارة الثقافة بعد إصدارهم لرواية الوليمة ، فقد وجدوا أنفسهم فى فخ من صنع أيديهم ، ولم يجدوا مخرجا إلا رفع شعار التنوير ضد الإظلام ، والإبداع ضد الجمود ، وهى القيم التى نادوا بها أو استدعوها فى غير موضعها كما عبر الأستاذ محمد حسنين هيكل عن غرابة المأزق الذى وجدوا أنفسهم فيه .

لقد تشكلت هيئة مثقفين بغتة لها تكوين وتنظيم وسلطة متوهمة « دون معيار متفق عليه » وبغير اعتراف يمنحها الشرعية لفرض كلمتهم،غير أنهم خرجوا من محمية سياسية من وزارة الثقافة ـ ولأنهم حسموا الأمر فيما بينهم وقرروا فرض كلمتهم باعتبارهم أصحاب الحق فى الكلام والحكم على الرواية وحدهم دون سواهم ، فقد ظهروا أمام الرأى العام مقاتلين ضد مقدسات المجتمع،وضد الدين،والله عز شأنه،والرسول ﷺ ، والأخلاق . والمزعج كما يقول الأستاذ هيكل : « أن العجلة فى الرد استجابة لحالة الطوارئ التى أعلنتها وزارة الثقافة ،ورطت (المثقفين) فى مقولات:أن النص الروائى يفهمه المتذوق الفنى ، وليس القارئ العادى » وأن النص أدبى لا تصح مقاربته دون إرشاد من ناقد ، وذلك معناه أن هؤلاء الذين يرفضون تعرض المشايخ للعمل الأدبى

والفنى تحولوا هم بدورهم إلى مشايخ وكهنة ، بل كهنوت ومحاكم تفتيش ؛ تفرض على الناس قانون : من يقرأ ومن لا يقرأ ومتى يكون هـذا أو ذاك . هـم الذين أرادوا ـ بحسب زعمهم ـ تحرير النص الدينى من ولاية الشيوخ ، ثم قرروا هم أنفسهم وصايتهم على قراءة النص الأدبى،من يقرؤه ومن لا يقرؤه أو من يحكم عليه . بل تمادوا فقرروا أن يكونـوا أوصيـاء علـى النص الدينى ؛ لأنه بحسب تأويلهم الخاطئ : (حمَّال أوجه) مع احتفاظهم بحقهم المزعوم فى الوصاية على النص الأدبى ؛ لأن أحدا غيرهم لا يقدر على قراءته ، وفهم مسالكه المراوغة .

لقد وقع هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على الثقافة فى أزمة فيها من الغفلة أكثر ما فيها من التسلط ، ولما لم يقدروا على تجاوزها أخذوا يبحثون عن تعلات النجاة فاتهموا من قرأ الرواية ـ خاصة من شيوخ الأزهر ـ بضيق الأفق وقصور الفهم ، وزعموا أن هؤلاء الشيوخ لو فهموا الرواية ما أدانوا مؤلفها ،بل أدانوا الشخصيات فقط لأنهم أوغاد ملاحدة ،أما حيدر مؤلف الرواية فغير مسؤول عنهم . إنه برىء منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وهى حجة أكثر وَهْنا من حجة سلمان رشدى التى دافع بها عن نفسه حينما قال : إن ما جاء برواية (آيات شيطانية) لم يكن إلا أضغاث أحلام رآها كما يرى النائم فى نومه . فكيف يحاسب عن رؤيا منامية ؟

كانت حجج وزارة الثقافة واهية أوهى من بيت عنكبوت مريض،لقضية بلا حيثيات كرواية عبثية لا مضمون لها ، وفى الوقت نفسه كان بيان الأزهر الشريف قويا دافعا ، أوقع الوزارة وكل من يعمل بمحمياتها فى فخ لا فكاك منه ؛ لأن الذى كتب فى الرواية كما جاء فى البيان الصادر من مشيخة الأزهر الشريف ، والموقع عليه من فضيلة الإمام الأكبر يعد « خروجا على معلوم من الدين بالضرورة » وهذا معناه أن محتوى الرواية فيه الكفر بعينه . فكان هذا البيان مثل الضربة القاضية الفنية بلغة رياضة الملاكمة ، من ملاكم كفء قوى ـ لملاكم ضعيف غير كفء . لينهى معركة مفتعلة خرجت من وزارة الثقافة كسهم انطلق ، ولم يقدر أحد على رده . وبذلك قضت مشيخة الأزهر الشريف ببيان لم يتجاوز صفحة واحدة ، على كل ما كتبه جنود المثقفين فى الجبهة العصفورية فى آلاف الصفحات بالرغم من الحشود التى حشدوها والأوصاف التى خرجت من محميات الوزارة كالسهام فى غبش الظلام بأوصاف الجمود والإظلام ومحاكم التفتيش ، وهتلر وموسولينى ونيرون وكل مخربى التاريخ القديم والوسيط والحديث ، لمن لم

يفهموا ترهات حيدر وسخافاته ، خاصة من شيوخ الأزهر الأجلاء .

وفي النهاية: يبقى فرق واضح بين قصد الذين أداروا عمليات رواية سلمان رشدى (آيات شيطانية) وبين نظرائهم حول رواية (وليمة لأعشاب البحر) في مصر .

أما ما قصده الإمام الخميني فقد قصد به أن يكسر أنف الغطرسة الغربية، أما أمريكا ومن شايعها خاصة إنجلترا ، فقد وزنوا الفتوى بموازين القوى في الخليج واقتصاديات البترول . أى أنها تشكلت بشكل سياسى لدى كل من طرفى الصراع ، واستطاع كل طرف منهما أن يحقق مكسبا ما له وزنه .

أما في حالة (الوليمة) فيبدو أنها كانت وليمة فاسدة وعفنة ، ومن ثم فقد خسر الجميع ، كان أول الخاسرين صحيفة الشعب وحزب العمل . فقد صودرت الصحيفة ، وتم حل الحزب وكان على أبواب انتخابات تشريعية ، وخسرت وزارة الثقافة بكل محمياتها الثقافية والسياسية وشعاراتها ، وجيوشها الوهمية ، ثقة الناس بها لأنها دافعت عن حرام بين .

والأمر كما لخصه الأستاذ محمد حسنين هيكل : « لقد اتخذ خطأ حزب العمل وصحيفته ذريعة لحل حزب ووقف جريدة ، لكن إلغاء حزب ووقف جريدة قضية شديدة الخطورة لا تعالج بتصيد الأخطاء ، ولا باصطناع الذرائع ؛ لأن الحكومات الشرعية لا تترك أهواءها تتجاذبها الغوايات صغيرة أو كبيرة ، ولا تتعلل ولا تتسلل في العتمة أو في الظلمة ، وإنما واجبها أن تذهب إلى الناس تطرح عليهم وتسمع منهم ، تشكو لهم ، وتحتكم إليهم » .

وإلى غد والغد قريب ، والله وحده يعلم ما سينظره الناس في غدهم .

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الفصل الرابع
الأزهر يَحكم ولا يُحكم عليه

الأزهر يَحكم ولا يُحكم عليه

(١)

إذا تكلم متكلم عن الأزهر الشريف ، وجب عليه أن يتحرز فى انتقاء جمله وعباراته ، فللأزهر الشريف فى القلوب حب وفى النفوس احترام ، قداسته من قداسة الإسلام،منه تخرج قبسات نور تضىء طريق المؤمنين ،وتنير قلوبهم وبصائرهم . علماؤه وشيوخه بررة بمن يلتمس ضوءاً من علوم الدين ، رعوا الأمة الإسلامية بعلمهم وفقههم أكثر من ألف سنة ، وتقدموا طلائع النور والتقدم والمدنية على مر التاريخ فى مصر والعالم الإسلامى ،الأزهر قلب مصر وعقلها ، وروحها وأنفس شىء عليها . إنه أقدم جامعة عرفها العالم فى التاريخ الوسيط والحديث ، امتد نورها منذ أن سطع علمها ، عمره من عمر قاهرة المعز ، منذ أنشئت فى القرن الرابع الهجرى لتصبح أم الدنيا .

الأزهر مرجع الأمة الإسلامية فى فقه دينها ، وحين تحل النوازل .

الأزهر ليس سلطة تنفيذية ، ولا قضائية ، ولكنه عقل اجتهاد الأمة وقلبها ، يلجأ إليه الحكام وشعوبهم إذا ما التبس عليهم أمر فى شؤون دينهم ودنياهم . فيجتهد علماؤه بالرأى الشرعى ، بحسب أحكام الشريعة الإسلامية الغراء .

وهذا ما كان من الأزهر الشريف فى قضية رواية (وليمة لأعشاب البحر) فقد اجتهد علماء الأزهر وأفتوا،ورفعوا فتواهم إلى السلطة التشريعية العليا فى مصر (مجلس الشعب) . وكان مجلس الشعب قد ناقش موضوع الرواية ، ورأى أن يحوله لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ليقول كلمته .

ابتداء : يجب التنبيه إلى أن الأزهر الشريف ليس هيئة قضائية تحكم فى القضايا ، فحكم القضاء له محاكم خاصة بمراحل مختلفة يناط بها الحكم القضائى ، ولكنه الهيئة الدينية المختصة بإبداء الرأى فى الشؤون الإسلامية المتداخلة فى الشؤون المدنية ، وهذا ما حدث بالفعل فى قضية رواية (وليمة لأعشاب البحر)،فالرواية عمل أدبى مس أموراً تتعلق بالشأن الدينى الإسلامى ، وأحدث أزمة ، وأثار جدلا انتهى إلى مجلس الشعب فى يوم ٩ / ٥ / ٢٠٠٠ فناقشته اللجنة الدينية بالمجلس ، ثم قرر مجلس الشعب إحالة

بيان اللجنة الدينية بمجلس الشعب إلى الأزهر الشريف باعتباره جهة الاختصاص فى الأمور الدينية التى تبين الحلال من الحرام ، وما بينهما من أمور مشتبهات . والأزهر فى هذه الحالة لا ينظر إلى الرواية على أساس أنها عمل إبداعى ، ولكن بالدرجة الأولى ينظر إليها من زاوية الحلال والحرام ، ومدى تطاولها على المقدسات ، ليس من عند نفسه ، ولكن بتحويل الأمر من الهيئة التشريعية العليا إليه .

كان الدكتور أحمد عمر هاشم قد أعلن قبل قراءة البيان أنه قرأ الرواية ، وقرر أنها مليئة بالعبارات البذيئة ، والخيالات الجنسية التى لا تخطر على ذهن الشيطان نفسه ،وأن بها مساسا بكل الأديان السماوية ، وفى مقدمتها الإسلام ، كما استعرض أمر مظاهرات طالبات جامعة الأزهر وطلابها ومبرراتها ، وغيرة الطلاب على دينهم ، وإن رأى أنهم لو كانوا جنحوا للهدوء ورفع الأمر إلى شيوخهم لكان أفضل .

وحمل الدكتور أحمد عمر هاشم ، وأعضاء اللجنة الدينية بمجلس الشعب وزير الثقافة والمسؤولين عن النشر بالوزارة مسؤولية الأحداث كاملة .

وبصرف النظر عن تطاول المقالات على الأزهر الشريف ورموزه الفضلاء الذين أناروا العالم الإسلامى أكثر من ألف عام،ووصفهم بأنهم يزحفون بالأمة الإسلامية إلى الخلف، نحو عصور الجهل والظلام،فقد تفرع عن بيان اللجنة الدينية بمجلس الشعب ، وعن بيان الأزهر الشريف الذى وقعه فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر نفسه لا رئيس مجمع البحوث الإسلامية عدة أمور :منها ما هو قانونى،ومنها ما يميل إلى نصب فخ للأزهر وشيخه الأكبر وعلمائه .

طرح التنويريون هذا السؤال التالى:هل من حق الأزهر الحكم على الأعمال الإبداعية الأدبية ؟ولكى يكون السؤال واضحا يمكن إضافة هذه العبارة إلى السؤال:من قبل بعض علمائه المتخصصين بعلوم الأدب والنقد والبلاغة ، أو كهيئة عملها الأساسى البحث فى أصول الدين وعلومه ؟ .

إذا كان الأمر يتعلق بعمل كلية اللغة العربية بالأزهر، فإن النظر فى الأعمال الأدبية من صميم عملها ، كما هو عمل الأقسام المناظرة فى كلية الآداب ، وكلية دار العلوم مع أن معايير قياس درجة الإبداع تختلف فى كل واحدة منها عن الأخرى ، وهذا الاختلاف لا يعطى لأى واحدة منها الحجر على معايير الآخرين ، بل يجب أن يحتكم الجميع إلى

أدب الاختلاف ، مع العلم بأن معايير الاتفاق ستكون أقرب من معايير الاختلاف إلى أحكام الجميع .

أما إذا كان الأمر متعلقا بأمور الحلال والحرام التى تخللت الأعمال الأدبية بما يجرح مشاعر المتدينين الذين لهم حق مدنى بجانب الحق الدينى فى ضرورة احترام مشاعرهم ، كان من حقهم ضمانا لهذا الحق أن يرفعوا أمرهم إلى من يلى الأمر،فإذا رأى الاسترشاد برأى الأزهر على اعتبار أنه المختص بالنظر فيما يتعلق بالشأن الإسلامى بموجب فتوى مجلس الدولة ، وبموجب قوانين سابقة واجبة الاحترام ، كان على الأزهر أن يقدم الرأى الدينى فى مسائل الشأن الإسلامى ،ويرفع فتواه إلى ولاة الأمر .

قبل الاسترسال فى هذا الموضوع يجب تبيين أن الأزهر الشريف فى إبداء آرائه الفقهية فى المسائل التى تتعلق بالأعمال الإبداعية ، التى تمس الدين بسوء ، يستند على فتوى صدرت من الجمعية العمومية للفتوى والتشريع بمجلس الدولة بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٩٤ وفيها : أن الأزهر الشريف وحده صاحب الرأى الملزم لوزارة الثقافة فى تقدير الشأن الإسلامى للترخيص ،أو رفض الترخيص للمصنفات السمعية أو السمعية البصرية « وهى الفتوى التى صاغها الأستاذ المستشار طارق البشرى ، وأقرتها الجمعية العمومية للفتوى والتشريع بمجلس الدولة » .

وقد يعترض معترض من التنويريين فيقول:إن رواية (وليمة لأعشاب البحر) ليست من المصنفات السمعية (مثل الإذاعة) ولا السمعية البصرية (مثل السينما والتليفزيون)، ويرد عليهم بأن كل الأعمال الفنية الإبداعية مقروءة أو مسموعة أو مرئية تقاس على فتوى الجمعية العمومية للفتوى والتشريع بمجلس الدولة ـ سالفة الذكر . وهى الفتوى التى صاغها الأستاذ المستشار طارق البشرى ، وأقرتها الجمعية العمومية للفتوى والتشريع بمجلس الدولة .

وعلى أن رأى الأزهر الشريف فى مثل هذه القضايا ليس حكما قضائيا ، ولكنه رأى استشارى يمكن أن يستند عليه الحكم القضائى ، كما تستند أى هيئة مدنية على رأى خبير متخصص فى علم ما أو فن ما ، يحتاج إلى رأيه على أساس أنه من أهل الخبرة فى هذا العلم أو هذا الفن . وقياسا على هذه القاعدة القانونية ، فإن الأزهر يملك حق مراقبة الأعمال ذات الشأن الإسلامى ،وكذا الأعمال الفنية بصفة عامة إذا تخللها شأن إسلامى .على أن دوره ينحصر فى حدود رسالته الشرعية،فيما يتصل بالأقوال والأفعال

التى بها مساس سوء بالدين . ويلخص الدكتور محمد سليم العوا ـ وهو رجل فقه قانونى ـ حق الأزهر فيما يلى : « قانون الأزهر الشريف يعطى له المرجعية النهائية فيما يخص أمور الدين الإسلامى، من قرآن وسنة وحديث، أما الروايات والقصص والأفلام التى تحتوى على أشياء تمس الدين ، فيجب أن يبدى الأزهر رأيه فيها ، أى أن هناك تفرقة بين الكتاب الدينى ، وبين الكتب الإبداعية والأعمال الفنية . فى الأولى: الأزهر الشريف هو صاحب الكلمة الفصل فى السماح بنشرها ، أو عدم نشرها . أما الثانية: فلا رقابة مسبقة أو لاحقة عليها من الأزهر الشريف ، ولكن من واجب الأزهر طبقا لقانونه أن يبدى رأيه للأمة والدولة ، وليس هذا نوعا من الرقابة على الإبداع ، لكنه أداء لواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى يملكه كل فرد مسلم ، وبالتالى يملكه الأزهر الشريف والنص الدستورى يقرر حقا ، وليس هناك حق فى مصر أو فى غيرها من دول العالم إلا ويمارس فى حدود القانون .وبالتالى الفتوى صحيحة » (١) .

ويؤكد الدكتور أحمد سعد أستاذ القانون المدنى:أن الفتوى ملزمة وتجد مصدرها فى المادة (٢) من الدستور التى تنص على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيس للتشريع، وفى المادة (١٢) التى تنص على أنه يجب على كافة المؤسسات والأفراد احترام التقاليد والقيم الدينية ، وفى القانون (٣٨) لسنة ١٩٩٤ يجعل حرية نشر المصنفات الفنية السمعية والبصرية محدودة بعدم مخالفة النظام العام للآداب .

« ومن حق الأزهر أن يتدخل فى حالة المساس بالدين ، ومن غير المعقول أن يقف مكتوف الأيدى فى حالة المساس بالذات الإلهية ، أو العمل الأدبى الذى يحل حراما أو يحرم حلالا ، وعلى المبدعين تحمل المسؤولية كاملة فى حالة الصدام مع الأزهر فى مثل هذه الأحوال » (٢).

أما القول الفصل فى هذه المسألة فهو للمستشار طارق البشرى الذى كان يرأس قسمى الفتوى والتشريع ، وقت صدور الفتوى الخاصة بإعطاء الأزهر الحق فى تقدير الشأن الإسلامى للمصنفات الفنية، فقد صرح لمجلة أخبار الأدب قائلا: « صدرت الفتوى ردا على سؤال من فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق ـ شيخ الجامع الأزهر السابق ـ بالنسبة للنظام العام ، فقد انتهت الفتوى بعد دراسة الدستور والقوانين

(١ ، ٢) أخبار الأدب فى ٢٨ مايو ٢٠٠٠ م .

إلى أن الإسلام جزء من النظام العام ،وبوصف الشأن الإسلامى نظاما عاما . والقوانين المنظمة للأزهر تقـول : إنـه صاحب الرأى فيمـا يتعلـق بالشأن الإسلامـى ، وبناء عليـه بالنسبة للمصنفات السمعية ، والسمعية البصرية على وزارة الثقافة اللجوء للأزهر فيما يتعلق بالشأن الإسلامى . ورأى الأزهر ملزم لكن الوزارة هى التى تصدر القرار . والفتوى تبيان لحكم القانون ، والمفتى لا يأتى بشىء من عنده ، لكن يفتى بحكم القوانين ، وبهذا تكون الفتوى ملزمة استنادا إلى أن القانون ملزم » [١] .

ولقد ووجه الأستاذ طارق البشرى بما يلى :

إن القانون (١٠٣) يختص بالكتب الإسلاميـة والتراثيـة ، وفتوى مجلس الدولـة تتصل بالمصنفات السمعية والبصرية ، وأى منهما لم يتحدث عن كتب الفكر والإبداع .

فقال الأستاذ طارق البشرى : « إن الأزهر لا يبدى رأيه فى الجانب الروائى ، ولكن إذا تعلق الأمر بالإسلام ، فله أن يبدى رأيه فى هذه النقطة . . . للأزهر دوره المحدد فى تبيين مدى ما فى الدلالات المستخلصة من القصة أو الرواية من خروج ، أو التزام بالأسس العامة للإسلام ». ووجه الإلزام فى الفتوى يصدر من أن القانون ملزم تطبقه المحاكم وتطبقه الدولة بأجهزتها المختلفة ، والقانون ملزم لجهات الإدارة ، ولأجهزة الدولة ، بمعنى أن أى جهة رسمية إذا تصرفت على خلاف حكم القانون يكون تصرفا معرضا للقضاء بإبطاله والتعويض عنه أيضا ، إن كان هناك محل للتعويض . فوجه الإلزام من القانون يختلف عن الإلزام بالنسبة للمحكمة ، ووجه الإلزام بالنسبة للفتوى أنها بينت ما فى القانون .

« وسلطـة تقديـر الشأن الإسلامـى يكـون ملـزما للجهـات التى نيط بهـا إصدار القرار »[٢] .

ولم يتجاوز الأزهر الشريف حدود الحقوق الممنوحة له ، فهو المؤسسة العلمية التى تعنى بالعلوم الدينية ، كما أنه مؤسسة تعليمية تربوية من أهم مؤسسات الدولة . لكن أرأيت لو أن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر أو أحد أعلام التفكير الدينى قرأ أو سمع كلاما فى الأدب والفن أو فى أى صورة من صور الإبداع يمس مقدسات الإسلام بسوء وأبدى رأيا فيه ، من منطلق قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أيقال له :

---

(١) أخبار الأدب فى ٢٨ مايو ٢٠٠٠ م .　(٢) صحيفة صوت الأزهر ٢ يونيو ٢٠٠٠ م .

إنك لا تفهم فى هذ الأمور ،وعليك أن تتقوقع ،فلا تجاوز الكلام فى القرآن وعلومه ، والحديث وعلومه ؟ وألا تعلم أن فى الأزهر تدرس الدعوة والإرشاد والإعلام الدينى ، ويدرس التشريع والقانون والإدارة والمعاملات،واللغة العربية (لغة ونقدا وأدبا وبلاغة) كما أن جامعة الأزهر تدرس الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ؟! ألا يحق للعلماء الذين يدرسون هذه العلوم أن يقولوا قولا ، أو يبدو رأيا فيما يشغل المجتمع الثقافى فضلا عن المجتمع العام. ثم أرأيت لو أن حاصلا على دبلوم معلمين أولى قرأ بعض الكتب بطريقة غير منهجية ، من حقه أن يعد نفسه مثقفا ، ويعطى لنفسه الحق المطلق فى الحكم على الناس ، وأن يتهم فيه أكبر علماء الأزهر الشريف بأنهم منغلقين على جمودهم ، وإظلامهم ، وأنهم يجرون البلاد إلى عصور الظلام السحيقة ؟

(٢)

إن المسألة ليست مسألة خلاف حول من له حق الإبداع ، ولا غيره . بل لقد تحول الأزهر الشريف إلى هدف ، أو كأنه صار صيدا يفخخ له من جانب العلمانيين . لقد ترك العلمانيون التنويريون الوليمة بطعامها الفاسد وأسنها ،واستهدفوا الأزهر الشريف ، واستخدموا أزمة رواية (وليمة لأعشاب البحر) حربة توجه إلى قلب الأزهر ، وكأنها فرصة مواتية للقضاء عليه ويجب ألا تفلت من أيديهم أو يضيعوها .

ومن هنا انهالت المقالات على الأزهر فى كبرى الصحف المصرية . وعلى رأسها مقال الدكتورة هالة مصطفى (الأزهر والديمقراطية) بجريدة الأهرام فى ٢٢ / ٥ / ٢٠٠٠ وهو مقال مهم ؛ لأنه يضع الأزهر الشريف فى مواجهة الديمقراطية وجها لوجه.

تبدأ الكاتبة السياسية الدكتورة هالة مصطفى مقالها بالسؤال « عن الدور الرقابى الذى يلعبه الأزهر ، فى مجال الفكر والتعبير والإبداع بشكل عام . واختصاص الحديث عن الأزهر الشريف يرجع إلى كونه طرفا فى المعركة التى ترتبت على الحملات الصحفية والحزبية على الرواية التى فجرت الأزمة الأخيرة،بدءاً بالبيان الذى أصدره ستون عالما من علمائه ، وتم استخدامه فى هذه الحملات ،مرورا بالمظاهرات التى نظمها بعض طلابه ، ووصولا إلى طلب بعض الجهات تقريرا منه حول الرواية ،وليس الهدف هنا هو الدخول فى مناقشة حول دور الأزهر ومؤسساته فى الرقابة على الإنتاج الفكرى والإبداعى

بمختلف مجالاته . وهى قضية فرضت نفسها بإلحاح وما زالت على الساحة الثقافية المصرية ، ولا تقف عند حدود الرواية المشار إليها » .

ويمكن الإجابة على هذه الفقرة بما يلى :

١ ـ الدور الرقابى للأزهر فى مجال الفكر والتعبير والإبداع بشكل عام ، محدد بقانون الأزهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ، وبفتوى مجلس الدولة فى فبراير ١٩٩٤ وقد مر ذكرهما . أى أن للأزهر دورا ما بحكم القانون والدستور فى الحكم على كل أشكال الإبداع الفنى إذا دخل فيه شأن إسلامى .

أما صلة الأزهر بما أطلقت عليه معركة فجرتها أزمة (رواية وليمة لأعشاب البحر) فلا اتصال بين الأزهر وأزمة الوليمة ؛ لأن الأزهر ليس طرفا من أطراف هذ الأزمة إلا بقدر ما أنت طرف فيها ، أو أى قارئ ، أو أى كاتب. ولكن يبقى هناك فرق مهم ، أن الأزهر دخل المعترك بتكليف من جهات مسؤولة وصفتها فى مقالك « ببعض الجهات » ولم تعينيها بالاسم تهوينا للأمر . أما هذه الجهات المسؤولة فهى أكبر هيئة تشريعية بالدولة (مجلس الشعب) وأكبر هيئة أمنية وطنية (مباحث أمن الدولة) ،وهذا يؤكد أهمية الموضوع وخطورته على أمن البلاد واستقرارها . وكان دور الأزهر هاهنا استشاريا لا قضائيا ، فى حدود ما منحه القانون والدستور للأزهر ، وفى حدود ما يكون الأزهر أكثر معرفة فيه من غيره من المؤسسات داخل الدولة. وكان تدخلك تطوعيًا من تلقاء نفسك، أى بينما كان تدخل الأزهر الشريف بطلب من جهات مسؤولة مسؤولية كاملة عن التشريع والأمن فى البلاد والعباد ، كان تدخلك تطوعيا ممنوحا من قبل حرية الرأى التى منحها الدستور لكل مواطن يستطيع التعبير . ومن جهة أخرى فإنك تطوعت ثم طوعت قلمك لكتابة مقالك ،فلم يحجر عليك أحد ، ومع ذلك فإن كلامك فى مقالك يوحى بأنك تطلبين الحجر على الأزهر ، وعلى حقه المكفول له بالقانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ وبفتوى مجلس الدولة فى ١٠ فبراير سنة ١٩٩٤ .

ومن هنا يستبين أن الأزهر لم يكن طرفا فى معترك الوليمة ، بقدر ما أصبح حكما طلب منه أن يحكم فى قضية . أما أنت فمجرد صاحبة رأى لا يحل لأحد أن يحجر عليه ، ولكن يبقى القول بأن حق الأزهر فى التدخل يظل أكبر من حقك .

٢ ـ وقولك : « بدءًا بالبيان وانتهاء بالمظاهرات » . فى هذا الترتيب مغالطة ؛ لأن الترتيب كما جاء فى مقالك يوحى بأن البيان تسبب فى المظاهرات،والحقيقة أن المظاهرات

حركت المياه الراكدة ؛ لأنها صدرت من طالبات وطلاب الأزهر ، وانتهى الأمر إلى مجلس الشعب ، فطلب فتوى الأزهر فيه ، فصدر البيان .

٣ - ثم تقولين: « ليس الهدف هنا الدخول في مناقشة حول ما احتوته الرواية، وإنما هى مناسبة لفتح النقاش حول دور الأزهر ومؤسساته فى الرقابة على الإنتاج الفكرى والإبداعى » .

وهو سؤال تكرر ، وتكررت الإجابة عليه . ولكن ألا يستوجب هذا السؤال سؤالا لا جوابا - هو كيف تتركين أصل الأزمة لمناقشة ما نتج عنها ، أو ما دار حولها ؟ كما لو أنك تتجاهلين الحديث عن منابع النيل لتتحدثى عن غدير صغير خرج من أحد روافده ، وهذا لا يصح حتى ولو كان الحديث عن الغدير يوحى بشاعرية الأحاسيس ، ودغدغة المشاعر .

٤ - ثم إنك تقولين : « إن هذه الفتوى غير ملزمة إلا أن المناخ العام الذى صدرت فيه أضفى عليها دلالات مهمة ربما تتجاوز مدى حجيتها ، بل تدعم المخاوف التى أثيرت حول مستقبل الطابع المدنى للدولة » .

نعم ، الفتوى غير ملزمة ، ولكنها ضرورية بالرغم من أنها غير ملزمة ، وليس لها قوة الحكم القضائى ، ولكن ألم تقرئى ما قاله المستشار طارق البشرى ؟ قال: إن القوانين المنظمة للأزهر تقول: إنه صاحب الرأى فيما يتعلق بالشأن الإسلامى ، ورأى الأزهر هنا ملزم ،ألم تتطاول الرواية على المقدسات ؟ وأليست المقدسات شأنا إسلاميا؟ ولكن الجهة التنفيذية هى المنوطة بإصدار القرار ، كما أن المحكمة القضائية ، هى التى تصدر حكم القضاء . إن بيان الأزهر قدم رأى الدين فى قضية دنيوية،وهذا حق من حقوق الناس ، كما أنه للأزهر . أرأيت لو أن أحد المثقفين التنويريين قال رأيا فى نتاج نجيب محفوظ فى التسعينيات ،ورأى أنه ليس روائيا تجريبيا ، أو أنه تخلف عن فكر الحداثة ، أو أنه لم يكتب الرواية الضد :Anti - Hero وما أشبه ! ! وما رأيك فى مثقف تمادى ، وتجاوز خطوط محمية نجيب محفوظ ورأى أنه صار يهلوس ؟ قال هذا المثقف : « إنى لا أتابع قصص نجيب محفوظ الأخيرة ؛ لأنه ينشرها فى مجلة تحتوى على موضوعات مرفهة ، وجمهورها المستهدف خاص جدا . . . وهل ينبغى أن ينشر نجيب محفوظ كل ما يكتبه ، أقول ذلك لأنى أفاجأ ببعض القصص المنشورة له ،

تصل أحيانًا إلى حـد الهلوسة »[1].

ألا تعد هذه المداخلة بالكلام عن هلوسة نجيب محفوظ الأخيرة بحسب كلام المثقف خروجا عن موضوعنا ؟ نعم ، سأسلم لك بذلك ، ولكن بقدر أقل من تركك للرواية الأزمة من أجل الكلام عن بيان الأزهر ، ومدى إلزاميته من عدمه ، وكأن الموضوع يخص شيئا آخر ، غير رواية (الوليمة).

٥ ـ قولك : « الأزهر جامعة عريقة ، ومؤسسة للدعوة الدينية ، وليس لإصدار أحكام على الأفراد ، وهذا ما نظمته قوانين الأزهر المتعاقبة منذ سنة ١٨٩٦ حتى القانون الحالى الصادر سنة ١٩٦١ ، فهذه القوانين لا تعطى الأزهر حق ممارسة سلطة دينية على المجتمع ، ولا صلاحية إغلاق أبواب الفكر والثقافة والإبداع . كما لو كان هيئة كهنوتية على النحو الذى كانت عليه الكنيسة فى عصر محاكم التفتيش » .

هذا فى ظاهره صحيح يا عزيزتى ما لم يكن حقا يراد به باطل .

الأمر كما سطر يراعك ، والأزهر لم يجاوز يوما طوره ولا دوره ، وقد أقر شيوخه بذلك ، وعلى رأسهم فضيلة الإمام الأكبر، وكل المثقفين ـ وأنت منهم ـ يعرفون ذلك. ولكن الأمر ليس كما يبدو من أسلوب الالتواء والالتفاف والخداع .

إن الأزهر لا يملك سلطة دينية ، ولكنه يملك بزمام علوم الدين وشيوخ الأزهر منذ بدأت محاورات فرح أنطون وريتان وهانوتو من جهة ، والشيخ محمد عبده من جهة أخرى متباينة ، يبينون للناس أنه لا كهنوت فى الإسلام ، ولا دولة دينية ، ولكنها دولة مدنية تدين بالإسلام ،وتنتهج طريقه القويم ، وتعمل بشريعته الغراء ،ثم أذكرك بما أبداه بابا روما البابا يوحنا بولس الثانى فى بيانه الذى أصدره بسبب رواية (آيات شيطانية لسلمان رشدى) الذى نشر فى جريدة الفاتيكان الرسمية أوبسر فاتورى رومانو Obser-vatore Romano أدان فيه الرواية وكاتبها،وطالب بتقديم اعتذار للمسلمين. أكان البابا يريد أن يحول مجتمع المسلمين من مجتمع مدنى إلى مجتمع دينى ؟ أو يعيد الإسلام إلى عصر محاكم التفتيش ؟

٦ ـ قولك : إنك لا تريدين أن « يتحمل الأزهر أعباء على حساب دوره الحقيقى أى الدعوة وتدريس علوم الفقه والشريعة وأصول الدين ؛ لأنه (بحسب كلامك) ليس

(١) صحيفة القاهرة فى ١٨ / ٧ / ٢٠٠٠ م .

جهة اختصاص لتقديم الأعمال الأدبية والفنية ، فالحكم عليها يقتضى أدوات معرفية حديثة تختلف عن تلك التقليدية » .

ـ إذا أردت للأزهر ألا يتجاوز البحث فى علوم الدعوة والفقه والشريعة ، وأصول الدين ؛ لأنها تمثل دوره الحقيقى الذى يجب ألا ينشغل بغيره ، فإنك تحولين الأزهر بذلك إلى كهنوت .

ثم كيف حكمت على الأزهر بأن ليس فيه من العلماء من يفهم فى الأعمال الأدبية والفنية ، إنه حكم مرسل بلا روية ، وبدون دليل يؤيده . إنه يشبه زعما يرى أنك لا تفهمين إلا فى العلوم السياسية ، وأنك أقحمت نفسك فى موضوع ينتمى إلى الأدب الذى لا تفهمين فيه .

أتذكر يوما كان فى بداية الستينات فى إحدى جلسات مجمع اللغة العربية ، وكان أمرا سجالا شجر بين الأستاذ العقاد والشيخ أمين الخولى ، وتدخل فى الحوار الدكتور محمد كامل حسين ـ يرحمهم الله جميعا ـ وقال هذا الأخير رأيا ظن العقاد أنه يساند به الشيخ أمين الخولى . وهنا رد العقاد ثائرا مغاضبا : وماذا تفهم فى هذا الأمر أيها المجبر ؟ وكان الدكتور محمد كامل حسين من أعظم أساتذة جراحة العظام فى مصر ، وكان أديبا ، له مؤلفات فى الرواية مثل روايته الشهيرة (قرية ظالمة) تفوق رواية (سارة) للعقاد إن عدت رواية . واستنكر كثيرون مقولة العقاد ؛ لأن الدكتور محمد كامل حسين لم يخطئ ، وكان من حقه أن يتدخل فى الحوار ؛ لأنه حوار علمى. ولكن هكذا يخطئ الحكماء والمثقفون عندما يعدون أنفسهم فوق فهم غيرهم ، أو أنهم يعرفون ما لا يعرف غيرهم .

ثم أطلقت على علوم أصول الدين والتشريع ، والفقه والدعوة علوما تقليدية ، وهل هناك علوم (تقليدية) وعلوم أصلية ؟ وما وجه التقليد والتجديد هاهنا ؟ وباب الاجتهاد ـ بحسب رؤية التفكير الإسلامى ـ مفتوح لمن بلغ شرائطه إلى يوم القيامة ، مالم يقفله المبطلون .

٧ ـ قولك : « والأرجح أن الحملة الأخيرة على الرواية ـ المشار إليها ـ لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه من توتر لولا دعم فريق من علماء الأزهر لها ، انطلاقا من الاعتقاد فى أن دور الأخير ، مراقبة المجتمع » .

ـ أنت تعلمين أن البيان صدر باسم الأزهر ، لا بعض علمائه ، وليس انطلاقا من الاعتقاد فى أن دور الأزهر مراقبة المجتمع ، كما تعلمين بأن الأزهر الشريف يمارس دوره فى حدود علمه ، كلما سئل عن ذلك من جهة مسؤولة ولا يبدى رأيه إلا فى الشأن الإسلامى . ولكن أرأيت لو أن الأزهر تدخل فى أمر دون أن يُسأل عنه ، ألا يجوز ذلك من باب قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى أساس أن الأزهر من القوى المشاركة لأهل الحل والعقد ؟

أقول لك الحق :لقد أشاع التنويريون الالتفافيون أن العيب ليس فى الرواية (وليمة لأعشاب البحر) إنما العيب فى الفهم الإظلامى الخاطئ ، خاصة لدى طلاب الأزهر ومشايخه ، ثم صدقوا الفرية التى كبرت فى عقولهم وعيونهم ، وتضخمت حتى صارت بحجم جبل المقطم ، ولم يعد أحد يستطيع إعادة الأمور إلى نصابها .

إن مصادرة رواية تسيء إلى مشاعر المتدينين أمر طبيعى فى كل الثقافات ، والأمر ليس مقصورا على مشاعر المتدينين المسلمين ، وأنت تعلمين جيدا ماذا صنعت فرنسا مع رجاء جارودى بسبب أسطورة المحرقة ، وهى أسطورة مزيفة ـ المحرقة التى يصر الإعلام الصهيونى على ذكرها بالاسم العبرى الذى اخترعته الدعاية الصهيونية (الشواة: Shoah) أى المشواة باللغة العربية مع أن جارودى طبع كتابه على حسابه الشخصى، وبماله وليس بمال الحكومة الفرنسية .

ألم تعلمى بنبأ مصادرة كتاب فى فرنسا البلد التى قيل فيها : إنها تجمع أكبر عدد من مثقفى أوربا الأحرار منذ القرن ١٨ إلى الآن ، وللعلم فإن حدث مصادرة الكتاب فى فرنسا حدث بعد أزمة (وليمة لأعشاب البحر) فى مصر بأيام ، وليس قبله ، مع أنها فى فرنسا قضية حرية بالدرجة الأولى ، كما أنها قضية لم تمس المقدسات الدينية ؛ لأنها صدرت عن دار نشر (فايار) وليس عن وزارة الثقافة الفرنسية . إنه كتاب الكاتب الفرنسى (رونو كامو) (ريف فرنسا) بسبب احتوائه على عبارات تمس اليهود . ولقد ذكرت شبكة المعلومات العمومية (محيط) التى بثت الخبر على شبكة الإنترنت : أن الجدل الذى دار حول الكتاب كان شبيها بالجدل حول رواية (وليمة لأعشاب البحر) . وكان الخطأ الذى ارتكبه مؤلف الكتاب أنه ألمح فيه إلى سيطرة اليهود على وسائل الإعلام الفرنسية .

كانت مصادرة كتاب (ريف فرنسا) لمؤلفه (رونو كامو) ؛لأنه انتقد وجود عدد كبير من الإعلاميين اليهود الفرنسيين فى برنامج مهم فى التليفزيون الفرنسى، مما يعكس

سطوة اليهود - برأيه - على الحياة الثقافية والإعلامية فى فرنسا . قال فى كتابه : «إنهم يخصصون حلقة أسبوعيا على الأقل للثقافة اليهودية والديانة اليهودية ولحياة اليهود فى فرنسا وفى العالم عبر القرون . وإن هذه الموضوعات تكون أحيانا شديدة الأهمية ، وأحيانا أخرى تكون غير مهمة. ويبدو الأمر مثيراً للغيظ بعض الشيء على المدى الطويل لغياب التوازن . . . وينتابنى الضّيق والحزن أن أرى الناطقين باسم هذه التجربة والثقافة والحضارة هم فى معظم الأحيان أغلبية من اليهود الفرنسيين ، لا يساهمون مباشرة فى هذه التجربة » .

ولقد نجح يهود فرنسا فى إرساء القيود على حرية الفكر الذى يشكك فى أفكار اليهود وأساطيرهم ، واستطاعوا استصدار قانون (فابيوس جايسو) الذى يخدم اليهود والجدير بالتسجيل ، كما تقول فريدة الشوباشى: « إن الصحافة الفرنسية التى تتباهى بحرية التعبير ، واحترام حقوق الإنسان ، رفضت نشر أو توضيح أى رد بعث به المؤلف رداً على اتهامه بمعاداة السامية ، ومحاولة عرض داخليات ضميره ووجدانه بأنه لا يكره اليهود » (١) ، وقد عدوا هذا عداء للسامية. ولقد حاول المؤلف أن يبرر موقفه فذكر: أن ما ورد فى كتابه جاء من وحى الخيال ،ولا يعبر عن قناعته الشخصية، ورُفض تبريره ، فطلب من الناشر حذف المقاطع المثيرة للجدل ، ولكن هذا الطلب رُفض أيضا ، وتمت مصادرة الكتاب،بالرغم من مساندة تيار من المثقفين الفرنسيين للكاتب (رونو كامو)(٢).

حدث هذا فى فرنسا الدولة العلمانية التى ينص دستورها صراحة على أنها دولة علمانية Laic لأنها مست الإعلام اليهودى ، ولم تزد على ذلك ، وكان هذا سببا مبررا لمصادرة الكتاب ، أما الأمر فى بلد الأزهر الشريف فقد بدا على غير ذلك ،مع أن رواية (وليمة لأعشاب البحر) تعمدت الإساءة إلى المقدسات الدينية وازدرائها. وباتت المطالبة بمجرد اعتذار عن خطأ يتهم المطالبين به بالجمود والإظلامية ، وبأنهم يزحفون بالأمة إلى الوراء ، إلى عصور سحيقة ، من التخلف والإظلام .

(٣)

فى السطور التالية رد فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر لكاتب أراد أن يأخذ

---

(١) أخبار الأدب فى ٢ يونيو ٢٠٠٠ م .

(٢) صحيفة آفاق عربية فى ٢٥ مايو ٢٠٠٠ م .

رأى فضيلة الإمام الأكبر فيمن يزعمون أن الأزهر هيئة كهنوتية ، وليس هيئة مدنية تعنى بالشأن الإسلامى فى شؤون الدنيا والدين، وتعمل على تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية فيهما .

ونتيجة طبيعية لوقائع التفكير التى خيمت على الساحة الفكرية ، وما شاع فيها من أفكار بعضها صحيح ، وبعضها غير صحيح . فقد توجهت صحيفة صوت الأزهر - وهى صحيفة يرأس تحريرها الأستاذ جمال بدوى ، المتخرج من جامعة القاهرة ومن كلية الآداب قسم الصحافة ، وعمل فى الصحف المصرية مثل الوفد والأهرام وغيرها من صحف وطنية ، قبل أن يستقر رئيسا لتحرير صوت الأزهر ، أى أنه ليس شيخا من شيوخ الأزهر ، إنما هو مثقف من مثقفى كلية الآداب جامعة القاهرة - إلى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر لتسأله عما إذا كان ما يدور على ألسنة المثقفين الالتفافين وأقلامهم لإبعاد الأزهر عن الإبداع فى محله أم فى غير محله .

بادر محرر الصحيفة فضيلة الإمام الأكبر بهذا التمهيد :هل يمكن أن يتحول الأزهر إلى محكمة تفتيش على ثمرات العقول ، وإبداعات الأدب ؟ وهل يكون خطرًا على حرية التفكير فيصادر الكتب ويحارب المفكرين ؟! إن دعاة الانفلات من الضوابط الدينية والخلقية يرددون هذه الأقاويل بمناسبة الآراء التى يبديها الأزهر فى الكتب ، والمصنفات الفنية التى تمس الأديان والعقائد ، بقصد تخويف الناس والحجر على ممارسة الأزهر رسالته فى حماية الشأن الإسلامى ، ووضعا للأمور فى نصابها الصحيح بعيدا عن اللغط . كان لقاء صوت الأزهر مع فضيلة الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوى ليضع النقاط على الحروف .

قال فضيلة الإمام الأكبر : معاذ الله أن يكون الأزهر مصدرا للتخويف ،ومعاذ الله أن يكون الأزهر سلاحا لمصادرة الإبداع السليم،وكل ما ينطوى على الجمال النقى. ونحن نقرأ فى القرآن الكريم آيات تصف الكون بالجمال فى سمائه وأرضه ونجومه وكواكبه ، نحن نرى الجمال فى كل ما أبدعه الخالق فى هذا الكون،ويكفينا حديث رسول الله ﷺ: « إن الله جميل يحب الجمال » فكيف يتصور عاقل أننا نقف بالمرصاد لكل ما هو جميل فى الفكر الإنسانى ، ومع كل إبداع يتفق مع مكارم الأخلاق ، ومع الذوق السليم ؟

قال المحرر : يقال: إن الأزهر يفتقد المناهج النقدية القادرة على تقويم النص ، وإنما ينظر إليها من زاوية فقهية بحتة .

قال فضيلة الإمام الأكبر : فى هذا الكلام إجحاف وتنقيص من قيمة الأزهر ، فنحن فى الأزهر نتعلم منذ السنوات الدراسية الأولى اللغة العربية وآدابها ، وتدرس البلاغة فى كلية اللغة العربية بصفة خاصة، وفى باقى الكليات بصفة عامة، وعلى الذين ينتقصون من الدراسات الأدبية فى الأزهر أن يعلموا أن الأدب والشعر لهما مكانة فى الأزهر، وما أكثر العلماء الذين تخصصوا فى الأدب والبلاغة تخصصا دقيقا مثل الدكتور محمد نايل عضو مجمع اللغة العربية ، والدكتور محمد رجب البيومى صاحب المؤلفات الأدبية الرصينة ، والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، والدكتور طه أبو كريشة نائب رئيس جامعة الأزهر ، وغيرهم كثيرون لهم نتاج فى مجالات الأدب والنقد .

قال المحرر : ولكن حجة البعض أن عالم الأزهر ينظر إلى النص الأدبى من زاوية فقهية فقط ، وربما خفيت عنه أبعاد أدبية فى النص .

قال فضيلة الإمام الأكبر: نحن الآن فى عصر التخصص الدقيق، أنا شخصيا أحترم ما تقوله اللجان الأدبية المتخصصة ، وفى الوقت نفسه أحترم ما تقوله اللجان الشرعية [فى حالة الحكم على رواية وليمة لأعشاب البحر] فكل منهما ينظر إلى المسألة من زاوية تخصصه ، ولكن هناك أمورا لا أستطيع الموافقة عليها وهى التى تسىء إلى القيم الدينية . وأعتقد أن كل عاقل يوافقنى على ذلك سواء كان متخصصا فى العلوم الشرعية أو الأدبية .

قال المحرر : هل الأزهر يملك سلطة مصادرة الأعمال الأدبية التى يرى فيها مساسا بالدين ؟

قال فضيلة الإمام الأكبر: الأزهر لا يسعى إلى سلطة، وإنما أسند القانون إلى الأزهر مسؤولية الحفاظ على القيم الدينية ، وحدد القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ أن شيخ الأزهر، هو الإمام الأكبر صاحب الرأى فى كل ما يتصل بالشؤون الدينية والمشتغلين بالقرآن وعلوم الإسلام .

وعهد القانون نفسه إلى مجمع البحوث الإسلامية بالعمل على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب، ومعنى ذلك أن الأزهر له المرجعية الأولى فى كل ما يتصل بالدين، ومع ذلك نقول: إن رأينا ليس ملزما، فإذا عرضت علينا جهة مسؤولة كتابا لأحد المؤلفين لنراجعه فنحن نقوم بهذه المهمة ، ونرد على تلك الجهة بما يفيد عدم الموافقة إذا وجدنا فى الكتاب خروجا على القيم ، وعندئذ يكون من حق المؤلف أن يرفع الأمر إلى

القضاء ، ونحن نحترم حكم القضاء ، أما المصادرة فليست من سلطة الأزهر .

قال المحرر : هل طبقت هذه القواعد على الرواية المشؤومة التى أثارت الزوبعة ؟!

قال فضيلة الإمام الأكبر : لقد بدأت مسؤوليتنا منذ تلقيت خطابا من الدكتور أحمد فتحى سرور رئيس مجلس الشعب يطلب فيه رأى الأزهر فى موضوع الرواية (وليمة لأعشاب البحر) وقد أجبناه بما انتهت إليه اللجنة المشكلة من مجمع البحوث الإسلامية ، وتضمن الرد نص التقريرين اللذين كتبهما كل من الدكتور عبد الرحمن العدوى أستاذ الفقه المعروف، والدكتور محمد رأفت عثمان عميد كلية الشريعة ، وبذلك نكون قد أدينا واجبنا فى حدود الصلاحيات المخولة لنا، وفى إطار مفهومنا لما يرضى الله تعالى [١] .

وفى إجابات فضيلة الإمام الأكبر تبيين لدور الأزهر الشريف ومهمته فى القضية بدون تعصب ، إنما بالاحتكام إلى العقل والشرع ، بما خوله له القانون والدستور .

(٤)

ولم يعجب بيان الأزهر الشريف ، ولا رد فضيلة الإمام الأكبر المثقفين الالتفافيين الغمازين النبازين. فالتف أحدهم ليثير زوبعة أخرى حول الدولة الدينية والدولة المدنية ، وحدود الشريعة الإسلامية ، وحقوق الإنسان ، وحقوق المواطنة وهى ليست بالأسئلة المطروحة آنيا، ولم يكن الظرف ظرفها، ولا الحال مواتية لها ، ولكن الالتفافيين يكررونها كلما خسروا موقعا أو بان تهافتهم، أو كلما أرادوا أن ينصبوا فخا للأزهر بحسب ما يهيئ لهم عقلهم من تصور ، ولكن الله سبحانه يحفظ الأزهر الشريف - سببا لكى يحفظ الأزهر رسالة حراسة الإسلام والمحافظة على دين الله عقيدة وشريعة . قدم هذا المثقف الأسئلة الآتية وطالب فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر بالرد عليها :

١ - هل فى الإسلام دولة دينية ؟

٢ - هل تختصر الشريعة فى إقامة الحدود ؟

٣ - هل المسيحيون واليهود المصريون مواطنون أم ذميون ؟

٤ - هل العنف سلاح من أسلحة الدعوة الإسلامية، أم الكلمة الحسنة وحدها السبيل ؟

---

(١) صحيفة صوت الأزهر فى الجمعة ٢٩ صفر ١٤٢١هـ - ٢ / ٦ / ٢٠٠٠ م .

٥ - هل تعتبر البلاد الأجنبية دار حرب ،والسلام الذى بيننا وبينها مجرد هدنة، أم أن هذا التقسيم انتهى زمنه ؛لأن العالم لم يعد ديانات ومللا ، بل أصبح كتلا سياسية ، ومصالح اقتصادية ؟

٦ - هل المسلمون مختلفون عن الأجانب فى كل شىء،فعليهم أن يقاطعوا الثقافات الأخرى ، أم أن الحضارة الإنسانية واحدة وإن تعددت صورها ، فعليهم أن يتعاونوا مع الآخرين ويأخذوا منهم ويعطوهم ؟

٧ - هل يوافق الأزهر على الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ؟

٨ - هل ترفض الحقائق العلمية التى لا تتفق مع بعض النصوص الدينية ، أم تؤول النصوص لتتفق مع حقائق العلم ؟

٩- هل مازال باب الاجتهاد مفتوحا، أم أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ؟

١٠ - هل الأزهر منارة علم وحكمة وقلعة أخوة وتسامح ، أم سلطان حرمان وغفران ؟ (١) .

وكان عبد المعطى قد أرسل بهذه الأسئلة فى مقاله الأسبوعى بالأهرام فى (٢٤/ ٥ / ٢٠٠٠) تحت عنوان :(أدركنا يا صاحب الفضيلة). وطلب من فضيلة الإمام الأكبر الرد عليها . فى الوقت الذى تراكمت فيه النصال على النصال من صحف التنويريين ومجلاتهم فى قلب الأزهر ،ولكن الله تعالى سلم .

وهى أسئلة أقل ما يقال فيها : إنها أسئلة خائبة ، خيب الله كل من يشيعها فى مجتمعنا المستقر الآمن بفضل الله ، ثم بفضل قيادة الرئيس مبارك الحكيمة ، وخيب الله كل صاحب رأس حاف من العقل والفهم والكياسة ، ويرد كيده لهذا الوطن - ورد الذى أحس كل من فيه على اختلاف دينه وعلمه وطبقته بالأمن والسكينة - فى نحره ، آمين .

هى أسئلة دورية يكررها الالتفافيون ومنهم عبد المعطى من حين إلى حين متظاهرين بتحدى فقهاء المسلمين بهذه الأسئلة الساذجة التى يقدر على توجيهها حاصل على دبلوم معلمين أولى ، ويرد عليها هو نفسه ، وقد بدأ هؤلاء الالتفافيون يوجهون مثل هذه

---

(١) صحيفة صوت الأزهر فى يوم الجمعة ٦ من ربيع الأول ١٤٢١ هـ - ٩ / ٦ / ٢٠٠٠ م.

الأسئلة الساذجة لعلماء المسلمين منذ أيام الشيخ محمد عبده . نقلا عن أساتذة الضلال والتضليل من المستشرقين ، ولن تتوقف هذه الأسئلة ما ظل بالساحة كتاب لا يحملون من العلم بقدر ما يحملون من أسفار الجهل والحمق والنزق .

ثم ننبه كل حمال حقد أو ضغينة لوطننا الغالي إلى أنه لا يستطيع أن يوقع بين الأزهر الشريف وبين الدولة ونذكره بقول الله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه : ١١١] ؛ لأن التوجه الرسمى الواضح للدولة الاهتمام بالأزهر الشريف والإسلام وقد تنبه الشاعر فاروق جويدة إلى أن بعض الالتفافيين انتهز أزمة (الوليمة) فرصة للتشكيك فيما بين الأزهر والدولة من عرى وثيقة واحترام فقال : « إن التوجه الواضح الصريح للقيادة السياسية وللدولة تجاه الإسلام ، ولكن بعض المزايدين والمتربصين لا يريدون لهذا الوطن أمنا أو استقرارا . إن بعض هـؤلاء يتصور أن الهجوم على الإسلام ، والاعتداء على المقدسات الدينية ، يجد صدى لدى أجهزة الدولة ، وهـذا تصور خاطئ يعكس خللا فـى التفكير والفهم » (١) .

وكانت إجابات فضيلة الإمام الأكبر كلها سديدة ، ولكن لأن فضيلته ينشد السلام مـع أمثال عبد المعطى فقـد تغاضى عـن أشياء للمصلحة المرسلة ، وكـان ذلك مـن فطنة المؤمن وكياسته . وهى ما كتبناه فى السطور التالية فى ضميمات :

١ ـ ضميمة تضاف لإجابة السؤال الأول : هل فى الإسلام دولة دينية ؟

الحكومة فى الإسلام مدنية تستمد قواعدها وأركانها من التشريع الإسلامى ولهذا نص الدستور المصرى على أن الشريعة الإسلامية، هى المصدر الأول للدستور، والإسلام لا يقبل حكومـة دينية ؛ لأن الحكومـة الدينية هـى التى يتحكم فيهـا الكهنوت ، أما فى الإسلام فالحكم يقوم به أهل الحل والعقد وهم فى عصرنا المجالس التشريعية التى ينوب فيها من يمثلون الشعب بكل طوائفه وفئاته (مجلس الشعب) عن الشعب ، ومجلس الشورى، والهيئات القضائية والتنفيذية، وأصحاب الشوكة (الجيش والشرطة) والمعلمون والمربون بالمدارس والمعاهـد التعليمية والجامعة وكـل مـن يمثل فئات الشعب فى نقابـة أو جمعية أهلية ذات نشاط إيجابى بناء يعمل لمصلحة الوطن. وعلماء الدين وعلماء الاقتصاد والسياسة وكل العلوم وأصحاب الصناعة والمال ، وكلها أسس متلازمة لبنيان الوطن .

---

(١) فاروق جويدة : صحيفة الأهرام فى ٧ مايو ٢٠٠٠ م .

ولقد أصل لها الدكتور محمد ضياء الدين الريس ـ يرحمه الله ـ فقال : « إن صرح التفكير الإسلامى قد بنى على أساس أن الجانبين الدينى والدنيوى متلازمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

الحكومة فى عالم الإسلام لا يوجد فيها كهنوت ولا سلطة دينية من أى شكل، فهى حكومة مدنية تستمد تشريعها من شرع الله : الكتاب والسنة والإجماع والاجتهاد العقلى للإنسان حيث: « تجتمع حكمة العقل الفردى والجمعى والإرشاد النبوى، والغاية الإلهية » وبذلك لا تكون السيادة لطائفة دينية ، ولكن للأمة كلها ممثلة فى أهل الحل والعقد ، وعلى رأسهم رئيس الدولة ـ حفظه الله ورعاه .

٢ ـ ضميمة إلى إجابة السؤال الخامس : فقرة : « العالم لم يعد ديانات ومللا، بل أصبح كتلا سياسية ومصالح اقتصادية » .

إن الديانات لم تنته بعد، ولو كانت ديانات وضعية ، فإنها لا تزال تحكم نفوس البشر ،حتى عند أعلى الشعوب براجماتية (الولايات المتحدة الأمريكية) لن يقتل الدين وإذا كان موجه السؤال لم يقرأ كتاب (إرادة الاعتقاد) The will to Believe لوليم جيمس أكبر مؤسسى البراجماتية،والذى لم يكن متدينا بالمعنى الحرفى للتدين إلا أنه رأى فى كتابه (إرادة الاعتقاد) ضرورة أن يكون لكل إنسان دين ورآه مسألة حتمية،ولو كان الدين غير سماوى؛ لأن التدين يبعث فى نفس المتدين الطمأنينة التى لا يجدها الإنسان فى غير الدين .

ثم هناك كتاب يشغل الناس الآن هو كتاب : صراع الحضارات The Clash of Civilization لصمويل هنتنجتون يقسم الشعوب تقسيم ديانات ،ويرى أن صراعات القرن الواحد والعشرين ستكون صراعات ثقافية على أساس دينى ، وأن العالم ينتظر مواجهة حتمية بين : البروتستانت / الكاثوليك فى مواجهة : الإسلام / الكونفوشية . ألم تقرأ كتاب صمويل هنتنجتون ؟

ألم يأتك نبأ عودة روسيا التى كانت تعلن رسميا أنها ملحدة زمن الاتحاد السوفيتى إلى الأرثوذكسية،وأن أعظم أدبائها الروائى ألكسندر سولجنتسين أرثوذكسى متعصب، وأنه يؤمن بكرامات القديسين ، كما يؤمن معظم أهالى ريف مصر بكرامات السيد البدوى .

وعلى فكرة فقد حصل سولجتسين على جائزة نوبل فى الأدب لأنه كان معارضا للحكم الشيوعى البغيض؛ ولأنه أول من ذكر الله عز شأنه فى قصة طويلة منذ حكم لينين حتى عصر خروشوف . لأن ذلك أعجب الغرب الرأسمالى المسيحى فمنحه جائزة نوبل . كما أعجب الغرب نفسه بنجيب محفوظ بعد ذلك لأنه ازدرى دين الإسلام فى (أولاد حارتنا) وسخر من الله (الجبلاوى) ومن موسى (جبل) وعيسى (رفاعة) ومحمد (قاسم) فمنحه جائزة نوبل .

من الذى ضحك عليك وقال لك : « لم يعد العالم ديانات ومللا » - قل الحق ولا تخف .

هل بلغك أن البابا تخلى عن الكاثوليكية المنبثة من كرسيه البابوى فى كنيسة القديس بطرس ؟ وهل تخلى عن رياسته لجمهورية الفاتيكان الدينية ؟

ألم تعلم أن الأحزاب الكاثوليكية هى أكثر الأحزاب امتلاكا لناصية الحكم فى إيطاليا وألمانيا منذ الحرب العالمية الثانية ؟

٣ - ضميمة إلى إجابة السؤال السادس :هل المسلمون مختلفون عن الأجانب (غير المسلمين) فى كل شىء ؟

أجاب فضيلة الإمام الأكبر إجابة سديدة ، ولكن هناك ضميمة :

إن كل أمة صاحبة حضارة وثقافة ودين، تتفق مع البشر فى أشياء ،وتختلف معهم فى أشياء . هناك معايير إنسانية يشترك فيها الناس جميعا : الأبيض والأسود والأحمر والأصفر - وكلهم مكرمون من الله تعالى ، ويجب أن يظلوا كذلك ، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء] والتكريم هاهنا لكونه إنسانا أى جميع أفراد جنس الإنسان. وهناك أشياء أخرى يختلف فيها البشر ،وهى من خصوصيات كل حضارة ، وكل دين ، وكل ثقافة ومذهب فكرى . وعلى كل أمة مهما كانت حضارتها وثقافتها ودينها أن تشارك الأمم الأخرى ، فى المعايير الإنسانية ، وفى التعاون على البر ،وخير الإنسان فى كل مكان . وعلى كل أمة من الأمم أن تحترم غيرها فيما لم يتفقوا عليه من خصوصيات كل حضارة وكل ثقافة وكل دين .

وإن المسلمين لا يمانعون فى الانفتاح على العالم ، والإفادة مما لدى الدول الأخرى

من تقنية فى مجال العلم الطبيعى والتطبيقى ، ومواكبة التقدم العلمى والتقنى العالمى ، دون التخليص من تراثهم الحضارى والدينى . إن تراثنا أقدم من تراث الغرب وتراث اليهود وأولئك وهؤلاء هم الأجانب الذين تقصدهم ، هم يهتمون بيومهم فقط ، ولكنا نهتم بالأمس واليوم والغد جميعا ، إن تراثنا وهويتنا وتكويننا الروحى الداخلى شيء واحد،إنه كياننا الذى لا يمكن أن نتخلى عنه لنذوب فى حضارة الآخر ،الذى لا يرى إلا حتمية إذابة كل الحضارات فى حضارة واحدة،أى هيمنة حضارة الغرب الكاثوليكى / البروتستانتى كما فى تقسيمات هتنجتون على حضارات العالم بما فيها الحضارة الإسلامية والكونفوشية ، الحضارتان اللتان يفترض مؤلف صدام الحضارات أنهما تستعدان للصدام مع حضارة الغرب ، بعد انهيار الشيوعية . وكذا فى تصور فرانسيس فوكوياما الذى يرى أن نهاية التاريخ ستقف عند قبول العالم للنظام الديمقراطى الرأسمالى بروح أمريكية .

إن تراثنا الحضارى والثقافى والدينى ـ هو السياج الذى يحمينا ، ومن ثم فلا يجب أن نفرط فيه .

أما الأجنبى الآخر الذى تقصده فهم يهود إسرائيل وقد دافعت عنهم فى كتابك : نعم لفولتير ،كبير الالتفافيين لا كبير التنويرين كما تزعم . هل تريد أن يفقد المثقف العربى ذاته ويقبل الأجنبى ، الذى لا يكف عن الصياح بالحرية وحقوق الإنسان والمثاقفة وغير ذلك ويتفاعل مع ذاته ،فإذا خرج منها فقد إنسانيته وتحول إلى مخلوق أنانى ، وهو يتعامل مع غيره خارج حدود ذاته . خاصة مع المسلمين لأنهم خصوم حضاريون معاندون .

وما الذى يجعلك مولعا باليهود ، لقد اغتصبوا أرضا عربية إسلامية ومارسوا العنصرية مع الفلسطينيين بجبروت يفوق كل ما صوروه هم أنفسهم فى معاملة هتلر لهم،إنك كثيراً ما تتعاطف معهم ،وتترحم على موتاهم الذين اضطهدهم الأوربيون يوما ما.لقد كانت الديانة الإسلامية وحضارتها وثقافتها أكثر الحضارات تسامحا مع اليهود فى خلال ١٥قرنا،واليوم أصبح اليهود أكثر أصحاب الحضارات عسفا وظلما بالإنسان العربى فى فلسطين ، الإنسان العربى الذى تسامح معهم ١٥ قرنا ، وأطعمهم وأمنهم .

٤ ـ وفى السؤال السابع وفق الله فضيلة الإمام الأكبر عندما أعلن موافقته على إعلان حقوق الإنسان مشروطا بأن يعطى الإنسان حقه فى الحياة الكريمة إلى آخر الحقوق.
كما وفق الله تعالى فضيلة الإمام الأكبر فى قوله : « ولكنه ليس تحت يدى الآن » .

ويمكن أن يضم إلى إجابة هذا السؤال ضميمة : هذا الإعلان أعلن عن حقوق الإنسان ولم يعلن عن واجباته ثم إن هذه الحقوق على الطريقة الأمريكية .

وهل أعطت الولايات المتحدة لمواطنيها حقوقا إنسانية متساوية ؟ وهل تساوى بين البيض والسود؟وهل تساوى بين الأمريكيين من أصول أوربية شمالية،والأمريكيين من أصول آسيوية وإفريقية؟ وهل ساوت بين اليهود وغير اليهود من المهاجرين من دول شرقية؟

إن المواطن الأمريكى قد يكون حرا فى أمور لا قيمة لها ، لا تعارض مفاهيم النظام الديمقراطى الرأسمالى برؤيته الأمريكية ، ولكن إذا أبدى رأيا مخالفا اعترضه (قانون الأدلة السرية) وهو قانون تعجز المحاكم الأمريكية نفسها عن مناقشته .

وقانون حقوق الإنسان تشهره الولايات المتحدة فى وجه الحكومات التى تغضب عليها،وتعاقبها بعقوبات سياسية واقتصادية ، وتخفيه أمام دول أخرى تؤيدها ، فالشعب الفلسطينى مثلا يعيش فى ظروف غير إنسانية ، والسياسة الإسرائيلية لا تخفى طغيانها بالفلسطينيين بمصادرة أراضيهم،وهدم بيوتهم،واعتقالهم بدون تحقيق ، وتعذيبهم بالصعق الكهربائى،وبوضعهم فى أبيار مليئة بالحشرات والفئران ،وإطلاق الكلاب المتوحشة تنهش لحومهم، وبحرمانهم من النوم أيامًا طويلة، ومع ذلك لا تشهر الولايات المتحدة فى وجوههم سيف حقوق الإنسان ، بل تزعم أن أرضهم هى واحة الديمقراطية الوحيدة فى الشرق العربى .

واخترعت الولايات المتحدة ـ أخيرًا ـ اختراعا غريبا تحت مسمى التدخل الإنسانى يعطيها الحق فى دخول أراضى الدول غير الراضية عنها ، وفرض العقوبات عليها ، وانتهاك مبدأ سيادة الدول . مع فرض القيم الأمريكية ومبادئها .

والولايات المتحدة التى ترفع راية حقوق الإنسان المزعومة تساعد اليهود بمالها على الهجرة من كل مكان إلى فلسطين ، وتدفع المليارات لبناء المستعمرات لتسهيل إقامتهم ، وتقف ضد عودة الفلسطينيين المبعدين إلى ديارهم . يقول الدكتور صالح بكر طيار رئيس مركز الدراسات العربى الأوربى فى باريس : « إن شعارات حقوق الإنسان ترفع عندما يكون للقوى الفعالة عالميا غايات معينة لممارسة ضغوط على دولة ما بهدف تغيير المواقف السياسية أو الاقتصادية التى تتبناها . إن حقوق الإنسان غير مصانة وإن البشر غير حائزين على حقوقهم،لكن هناك فرقًا كبيرًا بين إدانة دولة لا تحترم حقوق الإنسان ، وتمارس على مواطنيها أشد أنواع البطش والقسوة ، وإدانة دولة لأنها تنفذ الشريعة

الإسلامية ، بدلا من القوانين الوضعية .ففى الحالة الأولى تبدو الإدانة طبيعية ، أما فى الحالة الثانية فإن الإدانة نوع من الافتراء مثل الموقف من المملكة العربية السعودية فى تطبيقها للحدود بحسب الشريعة الإسلامية » [1].

إننا مع حقوق الإنسان إذا كانت من أجل الارتقاء بالإنسان .

٥ ـ ضميمة لإجابة السؤال العاشر : « هل الأزهر منارة علم وحكمة وقلعة أخوة وتسامح أم سلطة حرمان وغفران ؟ » .

وهو سؤال ينم عن جهل وغفلة أو سوء طوية وخبث نية ،فهل نما إلى علم سائله يوما أن شيخا من شيوخ الأزهر الشريف وعلمائه أصدر صك حرمان وطرد من رحمة الله،أو صَكَّ لأحد صك غفران يدخل به الجنة، أو ادعى فعل ذلك ؟

هذا العبد المعطى دخل إلى مائدة (الوليمة) كمتطفل لم ترسل له دعوة ،كان يظن أنها (وليمة) الكرام ، عليها من طيبات الطعام ما يملأ جوفه ، ففوجئ دون أن يدرى بأنها (وليمة) لئام،عليها أردأ الطعام وأفسده،ومع ذلك أقبل عليها ،لقد فوجئ (بضجة مفتعلة جدا جدا) إلا أنه أصر على أن يدلى بكلام فج قبل أن يصل إليها ويأكل منها . فقال : « تابعت جانبا من الضجة التى أثيرت فى الأيام الأخيرة اعتراضا على رواية أصدرتها الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة وتضمنت ـ كما يقول المعترضون ـ عبارات غير مهذبة تصدم الذوق ، وتخدش الحياء » .

« وأنا لم أقرأ الرواية ليكون لى رأى فيها ، لكنى أعرف صاحبها ، وهو الروائى السورى المبدع (حيدر حيدر) الذى يعد واحدا من ألمع الروائيين العرب وأكثرهم امتلاكا لفن الرواية ، واحتراما لرسالة الكاتب . (وحيدر حيدر) ليس مجرد كاتب ، ولكنه كاتب مناضل متقشف ذاق مرارة الغربة والنفى فرارا برأيه ودفاعا عن كرامته ».

وانتهى إلى القول بأن « المقصود تدمير الثقافة المصرية ،وإرهاب المثقفين وإسكاتهم حتى يصبح طريق المتطرفين ممهدا إلى سلطة لا ينازعهم فيها أحد » .

« الحقيقة أن الذين يحاولون تدمير الثقافة المصرية يحاولون تدمير مصر ، فمصر هبة الثقافة،هبة الحرث والزرع والحصاد ،مصر هبة الحب وبنت الإنسان،أى ثمرة العقل والإبداع » [2].

---

(١) الأهرام فى ٢٤ / ٥ / ٢٠٠٠ م وأيضا د . إبراهيم البحراوى مقال : المبادئ الغائبة عن الميثاق الأوربى ـ المتوسطى . الأهرام فى ٢٤ / ٥ / ٢٠٠٠ م.

(٢) مقال : ضجة مفتعلة جدا جدا ـ الأهرام فى ٣ / ٥ / ٢٠٠٠ م .

بالله كيف يرد على هذا الكلام غير المسؤول ،وبأى كلام يرد عليه ـ عبد المعطى لم يقرأ ولم يسمع ولم ير شيئا . لم يقرأ الرواية ، بل سمع عن غثائها الذى صدم الذوق وخدش الحياء بحسب كلامه . فما الذى أدراه بأنها كذلك ؟ ثم حكم بأن الذى سمع عنه أزمة وصفها (بالمفتعلة جدا جدا) ، أليس ذلك من الغرائب والعجائب يحكم على ما لم يقرأ ولم ير ولم يسمع؟ !! يحكم قبل أن يعرف شيئا عن حيثيات الموضوع الذى حكم فيه ،لمجرد أنه يعرف الكاتب (والله أعلم) المناضل المتقشف . ثم حكم على الذين أنكروا ما جاء بالرواية من بذاءات وإسقاطات شاذة بأنهم يريدون تدمير مصر ، والعقل والإبداع والحرث والنسل ، (والخيل والبغال والحمير)، حكم عليهم بأنهم يريدون تدمير الثقافة المصرية وإرهاب المثقفين من هم ؟ الذين لم يرهم ولم يعرف عنهم شيئا، كما لم يعرف شيئا عن الرواية دون أن يعرف ما جريرتهم ـ ثم توقف حكمًا لاحقا على حكم سابق ، فحواه أن الذين يحاولون تدمير الثقافة المصرية ، يحاولون تدمير مصر والعقل والنقل والإبداع والحرث والنسل .

هل سمعتم بالأطرش الذى قابل صديقه الأطرش فقال له: إلى أين أنت ذاهب ؟ فرد عليه قائلا: ذاهب إلى الأهرام فقال له الأطرش الأول: لقد حسبتك ذاهبا إلى الأهرام ، فرد عليه الأطرش الثانى : لا والله أنا ذاهب إلى الأهرام. انتهى. هل فهمتم شيئا ؟ لا والله.

ولأنه لم يقل شيئا يفهم ليرد عليه ، فقد رجع إلى كتاب قديم سقط من أحد صبية المستشرقين بـه أسئلة أعـدت مسبقا منـذ عصـر الشيخ محمـد عبـده لعرضهـا كلما حزب الالتفافيين أمر،أو تأزم بهم موقف فحملها ودخل بها متطفلا على مائدة كريم هذه المرة، مائدة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وعرضها على فضيلته لعل وعسى أن يقول شيئا يمكن أن يلفه الالتفافيون،ودون أن يدرى السائل ما إذا كانت هناك مناسبة، أو مقام ، أو لعله يحقق بها دعاية إذا رفض فضيلة الإمام الأكبر الإجابة عليها ، ولكن فضيلة الإمام الأكبر كان من الكياسة والفطنة بالرد عليها ، والله ولى التوفيق .

(٥)

لكن ماذا يكون الحال إذا خسرت مصر الأزهر ؟!

ربما يكون الدافع إلى هذا السؤال رفض تقبيح الدكتور جابر عصفور لدور (أزهر هذا الزمان) فـى المقال الذى وصفه الدكتور رضوان السيد بالتوتر الشديد فهو يحط من

شأن الأزهر الذى تخلى عن دوره ، وتخلى شيوخه وفقهاؤه عن دورهم فى رعاية القرآن وعلومه والسنة وعلومها وتفرغهم كما يزعم الدكتور جابر عصفور وبطانته إلى شن حرب دينية على الإبداع والتنوير .

وفى الأزمة التى صارت حربا بين فريقى التنوير ، وفقهاء الظلام الإظلاميين كما يلقبهم التنويريون . وكأن هؤلاء الأخيرين يرون فى وجود شيوخ الظلام خطراً على خطة التنوير [مع أنها خطة متوهمة ، لم تفعل شيئا حتى الآن إلا تعطيل مسيرة الحياة الفكرية والثقافية والعلمية فى مصر] .

إن أكبر فريات التنويريين ادعاؤهم بأن أصحاب الفضيلة مشايخ الأزهر وعلى رأسهم الإمام الأكبر جاهلون بالمواصفات الأدبية ، وتقاليد الأدب الفنية ، لكن الذى أحزنهم أكثر أن المشايخ غير مثقفين ثقافة جنسية ، مع أن أسلافهم العظام كانوا على دراية بها واستدلوا على ذلك بما ذكره ابن قتيبة فى مقدمة (عيون الأخبار) ، كما يحزنهم أن أصحاب الفضيلة المشايخ يصغون لصراخ المتطرفين وهياجهم ، فَجَنوا بذلك جناية كبرى على التنوير والإبداع والمجتمع المدنى .

والحقيقة لا تنوير ولا إظلام ، ولكن الأمر كما صوره الكاتب اللبنانى الأستاذ رضوان السيد « صراع على هوية الدولة والمجتمع بمصر ، وفى بلدان عربية وإسلامية أخرى ، وقد خاضه التنويريون المصريون فى مقدمة الصفوف ، فأنشؤوا له السلاسل التاريخية والثقافية والأدبية التى أبدعوها على هواهم أو ترجموها ، ووزعوا منها ملايين النسخ بأبخس الأسعار من أجل تمكين الجمهور المصرى والعربى الفقير من الاستمتاع بالثقافة الحديثة والعصرية الراقية والمبدعة والتنويرية . والتنويريون يرون فى أنفسهم أنهم مرابطون على جبهة تكافح جحافل الظلمة والظلام وتتصدى بالنخبوية العصرانية للدينى الذى يتربص (بزعمهم) بالمدنى . وما تناولت تلك العملية التمدينية المزعومة الحاضر والمستقبل المصريين والعربيين وحسب ، بل تناولت فيما تناولت التاريخ الثقافى والسياسى لأرض الكنانة وللأمة كلها » (١) .

تناول التنويريون التاريخ الثقافى والدينى والأدبى للأمة العربية ، بناء وتفكيكا وتهديما ، ولم يسلم منهم أعلام الإسلام فى مجالات العلم والتشريع والفقه والأدب ولم ينج من سخرياتهم أحد ، وذرا للرماد فى العيون فقد خلت قوائمهم الانتقادية من

---

(١) رضوان السيد ، مقال : أزهر هذا الزمان وأزهر كل زمان ، صحيفة الحياة اللندنية فى ٩ / ٦ / ٢٠٠٠م ، وصوت الأزهر المصرية فى ١٦ / ٦ / ٢٠٠٠ م .

بعض أشخاص رأوا فيهم بمعتقدهم استنارة كابن رشد وابن خلدون وكانوا محقين فيهما، ثم أضافوا إليهما شخصيات كانت قلقة أو متمردة أو ملحدة أو مهيجة ، ورأوا فيهم مصابيح إنارة التاريخ الثقافى الإسلامى كله مثل: الحلاج وابن الراوندى الملحد والسهروردى المقتول وابن الجهم وغيلان وأمثالهم . ولم يروا ثواراً إلا الزنج وغلاة الخوارج والقرامطة . أما من بعدهم فلا قيمة يتضمنها تاريخ الإسلام ولا ذكر لعلماء المسلمين فى كل مجالات المعرفة ، الذين استطاعوا أن يكوّنوا نسقا علميا وتفكيريا متميزا قوامه حتمية الوصول إلى الحقيقة ، قوامه البحث فى النفس وفى الوجود بالتجريب والاستقراء وهدفه ترقية الحياة على الأرض خاصة حياة الإنسان وتمكينه .

استطاع محمد بن موسى الخوارزمى أن يتوصل إلى علم الجبر ،كان فى البداية كما بين فى مقدمة كتابه (الجبر والمقابلة) يبحث عن حل يساعد به علماء الفروض (المواريث) فى مسائل استشكلت عليهم فتوصل إلى علم يساعد الفقهاء فى مسائلهم ، كما يصلح فى إيجاد حلول يعمم بها لكل العمليات الرياضية فى الهندسة والحساب . وأضاف إليه ثابت بن قرة إضافات مهمة ، فى حساب المثلثات ثم أضاف عمر الخيام ـ الذى لا يكاد يعرفه الناس إلا عن طريق رباعيات ترجمها محمد السباعى ثم أحمد رامى وغنتها أم كلثوم تنسب إليه ولغيره . أما إضافاته الرياضية فى تصنيف المعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة وحلها فلا يكاد يسمع أحد عنها؛ لأن مدرسة التنوير العصفورى لا يعنيها إلا ثورة أبى منصور الحلاج الذى قال عنه أبو العلاء المعرى : « إنه كان على صلة بثورة الزنج ، وكان يروم إقلاب الدول » . مع أن أسلافهم من تنويريى القرن ١٨ فى فرنسا اهتموا بالعلوم الرياضية والطبيعية والتطبيقية ، وكان اهتمامهم يكاد يكون معدوما بالأمور الفكرية التى تشبه اهتمامات مدرسة التنوير العصفورية ، وطرق تفكيرها .

لم يعن جابر عصفور بما توصل إليه الرياضيون المسلمون الذين وضعوا قواعد التقدم العلمى للمسيرة الرياضية التى بسطت لعلماء أوربا فى العصر الحاضر استخدامها «لاستنباط ميكانيكا الكم والميكانيكا الإحصائية والكهرو ديناميكا » كما بسط فيها القول الدكتور أحمد فؤاد باشا . وقل الشىء نفسه فى علم الطبيعة وعلوم الفلك والأرصاد ، وفى علوم الكيمياء والطب والصيدلة والعلوم البيطرية وعلوم الأرض والتربة .

إن التنوير الحقيقى أن تعرف الشباب العربى بابن سينا فى كتاب (الشفاء) والحسن ابن الهيثم فى كتاب (المناظر) وابن المرزبان فى كتابه (التحصيل) وما كتبوه عن

عناصر الحركة وأنواعها وقوانينها وسريان الضوء وانعطافه وانكساره ، وعبد الرحمن الخازنى فى كتابه (ميزان الحكمة) الذى وضع فيه أساس قاعدة الجاذبية الأرضية التى أقام عليها إسحاق نيوتن (نظريته) فى الجاذبية . وأفاد منه كما أفاد من ابن الهيثم فى نظريات الضوء والإبصار . كما أفادوا من جابر بن حيان فى الكيميا ، والغزالى الذى أفاد منه ديكارت .

أيها الناس فى بلادى ، إذا كان لابد من جابر - فليكن جابر بن حيان لا جابر عصفور فهو الذى يستطيع بعلمه التجريبى الاستقرائى أن يقود البلاد والعباد إلى استنارة حقيقية ، لا استنارة وهمية ، تقوم على الثرثرة العبثية .

إن مدرسة التنوير المصرية بريادة عصفور لا يعنيها التقدم العلمى ،ولكن يعنيها بلبلة التفكير ، وإقلاق العقل العربى بالكلام عن الحركات المنحرفة فى تاريخ الإسلام من جهة ، ومن جهة أخرى الكلام عن بعض الأفكار الحداثية الغربية الممزوجة أو المخلوطة (بالجينز والروك والراب والهامبورجر والكوكاكولا) ،وسيتقدم العالم وسيظل عصفورنا يشقشق بالحداثة أو الموت الزؤام .

معركة التنوير - عفوا - حركة التنوير كما يتغنى بها العصفور - حلم من أحلام العصافير الجميلة ولكنها بلا خطة وبلا تخطيط ، وبلا هدف . فماذا يريد العصافير ومعهم المثقفون الالتفافيون واليساريون ؟ لا أحد يدرى ولا أحد يعرف المسألة عندهم ؛ بل شاغلهم محو التراث وكل ما يتصل به ، ثم بعد ذلك فليكن الطوفان وأين الأزهر الشريف من هؤلاء ؟

إن الأزهر مؤسسة تتحمل مسؤولية الشأن الإسلامى لكنها لا تقدم عملا ولا تبادر بفكر ، بل تنتظر حتى يحركها محرك فتتحرك . كما يلقى بحجر فى ماء راكد فيتحرك أو تطلب منه جهة مسؤولة أن يتدخل ويبدى رأيا (غير ملزم) كما حدث فى موضوع (الوليمة) فإذا قال رأيه بتواضع وعلى استحياء - مع أنه الرأى الفصل لتعلقه بالشأن الإسلامى - قذفه كل أطراف النزاع بالحجارة ، وفى الوقت نفسه تغض الجهة المسؤولة الطرف عن الأزهر ولو أدمته الحجارة .

وفى العقدين الأخيرين تجمعت قوى اليسار والليبراليين وكونوا جبهة « المثقفين التنويريين الالتفافيين » وجيشوا الجيوش ، وأقاموا الحصون ، وأعدوا العدة لهدم كل ما هو إسلامى ، أو أصولى على حد تعبيرهم .

ثم إن جماعة عصفور تدرك أن الأزهر عقبة فيها خطورة عليهم وعلى خطهم التنويرى الالتفافى ؛ لأن شيوخ الأزهر مع ميلهم إلى السكون وتجنب العواصف يملكون علما وفقها ومنهجا ، هم ليسوا كالجماعات الإسلامية الذى تحول كل فرد فيها إلى مجاهد ومفتٍ بين يوم وليلة . فأضروا المجتمع والناس ، وأضروا بأنفسهم .

من هنا ترك عصفور بغاث الطير من طيوره تجابه فلول الرافضين الصغار (للوليمة) واستنسر هو، وقام بنفسه بالهجوم على الأزهر فى مقالات نشرت بجريدة الحياة اللندنية ، فى ١٨ مايو ٢٠٠٠ بعنوان :(ضجة سياسية مصطنعة) ، وفى ٢٤ مايو ٢٠٠٠ بعنوان: (طلاب الجامعة الأزهرية) ، وفى ٢٧ مايو ٢٠٠٠ (موقف الأزهر) وهو المقال نفسه المنشور بأخبار الأدب فى ٢٨ مايو ٢٠٠٠ بعنوان: (أزهر هذا الزمان) وفى جريدة الحياة فى ٣١ / ٥ / ٢٠٠٠ ، ٧ / ٦ / ٢٠٠٠ بعنوان:(ثقافة عنف). ثم جمعت هذه المقالات فى كتاب صدر عن مكتبة الأسرة ـ الأعمال الفكرية ٢٠٠٠ ضمن كتاب بعنوان : هذا التعصب .(من ص ٣٨٩ ـ إلى ص ٤٦٤) صدر فى أول يوليو ٢٠٠٠ .

وكلها مقالات تحمل مضامين مكرورة لفكرة واحدة ، وأهم هذه المقالات ومركزها مقال موقف الأزهر أو (أزهر هذا الزمان) بدأه بالتحسر على أزهر زمان وعلمائه المتنورين أمثال رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وعلى عبد الرازق وطه حسين ثم أخذ يسخر من أزهر الزمان الحالى المتجمد الذى لا يخرج إلا جهالا ؛ لأنه يقبل الطلاب بأقل المجاميع ، ولهذا يقرر أن من الأفضل أن يقفل عليه بابه ويتفرغ لطبع المصحف وطبع السنة ، وأن يقصر دور خريجيه على خطب المساجد بشرط ألا تتجاوز أبواب الترغيب والترهيب ، وأعتاب الجنة والنار ، فلا يكون لهم دور فى الحياة وحركة المجتمع .

كان الهجوم على الأزهر بسبب البيان الذى أصدره الأزهر فى أمر الوليمة ، والأزهر لم يكن متطفلا على الوليمة كبقية الأطراف المتضادة ، ولكنه كان مثل حكم مباريات الأهلى والزمالك .فهو لا يأتى إلا باستدعاء من جهة مسؤولة . والأزهر معذور فهو يعلم أن من ثوابت الإسلام التى يحفظها شيوخه المحافظة على وحدة الأمة مهما كان الاختلاف بين المواطنين ، وهم حريصون على المحافظة على هذا الأصل الدينى ، فلا يتدخلون إلا إذا طلب منهم التدخل لأمر يهم الشأن الإسلامى ودوره فى الحفاظ على أمن الأمة واستقرارها . ومع ذلك فهم يتدخلون بعد تمهل وروية بما تقتضيه حكمة الشرع .

الأزهر يتدخل فى مثل هذه الأحوال . فقد تدخل فى أوقات كثيرة متلاحقة متتابعة أو متراخية ، لكنه فى كل مرة يكون قد أعد العدة وتحصن بعلمه وفقهه ، كما فعل الشيخ محمد عبده يرحمه الله مع رينان وهانوتو وفرح أنطون وأمثالهم وكما فعل الشيخ الخضر حسين يرحمه الله مع على عبد الرازق فى نقض كتاب: الإسلام وأصول الحكم، ومع طه حسين فى نقض كتاب (فى الشعر الجاهلى) وكما فعل مجمع البحوث الإسلامية مع نجيب محفوظ فى رواية (أولاد حارتنا) وكما فعل الدكتور محمد البهى مع المستشرقين ومع زكى نجيب محمود فى كتابه (خرافة الميتافيزيقا) ود . محمد رجب البيومى مع المستشرق الفرنسى (بيرك) .

كان الأزهر فى كل هذه الأحوال حكما أو مدافعا عن شأن إسلامى .

ولكن فى هذه المرة وجد الأزهر نفسه فى موقف مختلف ذى خطورة ؛ لأن بعض طالباته وطلابه تظاهروا ضد (الوليمة) ولأن بعض شيوخه نالهم يأس وضيق من تعامل أجهزة الأمن معهم بقسوة وبهذا وجدوا أنفسهم طرفا فى الأزمة . ثم كان موقف رئيس جامعة الأزهر الذى حزن من أجل أبنائه من الطالبات والطلبة ، وموقفه من نفسه باعتبارين : الأول : كونه رئيسا للجنة الدينية بمجلس الشعب فهو عضو به ، أى أنه أحد ممثلى الشعب بهذه العضوية ، الثانى : كونه أحد علماء الأزهر الشريف ورئيس جامعة الأزهر .

لقد أعلن الدكتور أحمد عمر هاشم غضبته بساحة مجلس الشعب بصفته شيخا من شيوخ الأزهر غيرة على دينه ، وبصفته نائبا عن الشعب نُفرة من عمل هيئة مسؤولة عن الثقافة، نشرت عملا يستهين بالدين ، وبكل شأن إسلامى لقد نفر الأزهر بكل مؤسساته لهذا كله ، مضافا إليه رغبة فى الحفاظ على هيبته وقدسيته في العالم الإسلامى، وحفظ وحدته ومرجعيته فى حراسة الشأن الإسلامى وحرصه على أن يكون الإبداع ملتزما لا فوضويا . وهذا ما لم يرض عنه من نعتوا أنفسهم بالمثقفين المتنورين ، فأعلنوا الحرب على الأزهر قبل إعلانها على خصومهم الحقيقيين ، الذين أرادوا جر الأزهر الشريف ليكونوا مع الأزهر حوزة واحدة .

لكن هل من الحكمة أن يصير الأمر إلى مثل ما صار إليه من الفوضى بسبب رواية رديئة عن (وليمة) فاسدة ؟ من الخاسر إذن ؟ الخاسر مصر والعرب والإسلام فالخير معقود فى مصر الأزهر إلى ما شاء الله .

إن حال الثقافة الملبدة بالغيوم والظلمة التى تعتم على الحقيقة كما تراءت لطرفى الصدام ، تحتاج إلى جبهة حكماء تصون الإبداع الحقيقى الملتزم ، كما تصون الشأن الإسلامى ، ولكن ليس على طريقة المثقفين الالتفافيين العدميين ، ولا يزال هناك وقت وفرص متاحة قبل فوات الأوان .

وإذا كان الدكتور عصفور يصر على أن يحصر مهام الأزهر فى طبع المصحف ، وأن يحصر خريجى الأزهر فى المساجد لتذكير الناس بنعيم الجنة وبعذاب النار ، ونصحهم بعدم الانشغال بالثقافة والفن والإبداع لأنها ميادين يجهلونها ، ومن ثم محظور عليهم دخولها ، يمكن أن يقال: إن الناس يعرفون ، كما يعرف هو أن منهم من أعرف منه بالثقافة والإبداع الجاد. وكما أعطى لنفسه حق حظر الانشغال بالأدب والإبداع عليهم ، فمن حق أدنى رجلٍ من الأزهر أن يقول له : محظور عليك دخول السراديب نفسها ؛ لأن الله تعالى خلقك كما خلقهم بعقل ومدركات وحواس وقدرة على الإدراك والفهم،وإنك حصلت على الدكتوراه من جامعة القاهرة ، التى لا تزيد عراقة عن جامعة الأزهر الشريف . إن لم تقل .

إن حقيقة الأمر كما قال لك رضوان السيد ، الكاتب اللبنانى المعروف ، من خارج مضمار الملعب ، بل من خارج مدرجات المتفرجين: « فيا رئيس المجلس الأعلى للثقافة ، ويا شيخ المثقفين ، هل تريد أن أصدق هذا كله ؟ إن المسألة جهل [بحسب منطقك] يواجه علما،وتقليد يواجه إبداعا،وتنويرية تواجه أصولية،وعلمانية تواجه كهنوتا » (١).

فدع عنك نهبًا صيح فى حجراته ولكن حديثا ما حديث الرواحل

بل إن الأمر بإقرارك بقولك الذى قلت فيه ما ننقله بنصه وحروفه : « على امتداد ديار الإسلام . . . البداية مناقضة المشروع القومى بالمشروع الدينى ، واستبدال التحديث المدنى النزّاع إلى العدل الاجتماعى والحرية الفكرية السياسية التى تبنى على التسليم بحق الاختلاف والتعددية واحترام الآخر ، بالصحوة الأصولية التى تنبنى على تأويل دينى مغلق » (٢) .

---

(١) رضوان السيد :أزهر هذا الزمان وأزهر كل زمان ـ نشر بصحيفة الحياة اللندنية فى ٩ يونيه ٢٠٠٠م ، ثم أعيد نشره فى صحيفة صوت الأزهر فى ١٦ يونيه سنة ٢٠٠٠ م .

(٢) د . جابر عصفور :مقال : عقلية التطرف ص ١٠ مجلة الثقافة الجديدة العدد ١٤١ ـ يونيه ٢٠٠٠ م .

ضميمة إلى ما سبق :

فى مقال أحمد عثمان المقيم بلندن رؤى صائبة نوجزها فيما يلى :

١ ـ يجب أن تتم المصالحة بين الأزهر والمثقفين . فإن الأزهر مسؤول عن حماية العقيدة الدينية والدفاع عن القيم الاجتماعية المتوارثة . ولو تم استفتاء الآن بين أبناء الأمة (الإسلامية) فلن تجد إلا بضعة آلاف يؤيدون حرية احتقار الذات الإلهية فى مواجهة عشرات الملايين التى ترفضها .

٢ ـ كان الدكتور نصر حامد أبو زيد يحصر أبحاثه فى نطاق الدراسات الخاصة ، لم يمنعه أحد ، إلا أنه خرج عن الحدود المتعارف عليها فى جامعاتنا ، عندما فرض أبحاثه هذه على دارس الشريعة الإسلامية ، وانتهت قصة نصر حامد أبى زيد بأن خسرت مصر أسلوبا جديدا فى البحث ، وأصبح منفيا ولم تفلح احتجاجات المثقفين فى إنقاذه ولم تهتم الجماهير بقضيته ، بل إن القضاء الرسمى للدولة هو الذى حكم بإدانته .

٣ ـ بينما تكون الحرية المطلقة هى الوسيلة الوحيدة التى تؤدى إلى ازدهار الفنون والآداب والعلوم ، إلا أن المجتمعات البشرية ترى ضرورة حجب بعض هذه الأعمال كليا أو جزئيا عن الجماهير ، وهذه حقيقة قائمة فى كافة المجتمعات البشرية فى العالم الآن ، وإن كانت تأخذ أشكالا مختلفة .

٤ ـ إذا أمعنا النظر فى المشكلة الحالية ، لوجدنا أن الأزهر لم يعترض على نشر الرواية وإنما على قيام أجهزة الدولة الثقافية بنشرها ، فمن المعروف أن رواية (وليمة لأعشاب البحر) سبق أن تم طبعها ونشرها ، ولم يعترض الأزهر على ذلك ، إلا أن قيام هيئة حكومية بطبع الكتاب وتوزيعه غيرت من طبيعة القضية ، فالدولة عندما تنفق أموال الخزانة العامة لطبع كتاب ، إنما تعطى هذا الكتاب نوعا من الشرعية ، كما تسمح بتوزيعه خارج الدائرة الضيقة التى انتشر فيها من قبل . وأنا شخصيا لا أعتقد أن هذا الكتاب يمثل نوعا متميزا من الإبداع الأدبى ، يجب الحرص على تعريف الشباب العربى بمحتواه فهو إنتاج عادى فى قيمته الأدبية .

٥ ـ القول بأن تقييم الأعمال الأدبية يجب ألا يتم إلا وفقا للمنهج الأدبى فهذا ليس صحيحا ، فلطالما قام الماركسيون بتقييم أعمال الأدب من منظور طبقى ، ومن الطبيعى أن يقوم رجال الأزهر بتقييم أى عمل من خلال منظور دينى ، بل إن المنظور الدينى هو الذى سيستخدمه غالبية القراء فى أى بلد عربى .

٦ ـ علينا ألا ننسى أن الفضل يرجع إلى جيل المثقفين الأزهريين فى إنشاء أول جامعة أهلية بمصر فى أعقاب ثورة ١٩١٩ باسم جامعة فؤاد الأول، وهى التى تحولت إلى هيئة حكومية باسم جامعة القاهرة . . . وهكذا أفرخت هذه الحركة الأهلية أهم رجال الفكر والفن فى المنطقة العربية الذين وضعوا منطقتنا فى طريق الصعود الحضارى .

٧ ـ إلا أن حركة الثقافة العربية أصيبت بضربة قاضية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية [ونكبة فلسطين] فقد سيطر على أمور الثقافة جيل جديد من الماركسيين فى بلادنا العربية ، كان هدفهم الرئيسى استخدام الثقافة للوصول إلى السلطة وتبنى الماركسيون العرب فلسفة التنوير الأوربى كما هى. منكرين تراث الأمة باعتباره خرافة ، وكان رد الفعل الطبيعى للتنوير الجديد ، ظهور حركات أصولية اعتمدت على الدين لتنال شرعيتها ، فى مقابل الشرعية التى يحصل عليها التنويريون من الدولة .

٨ ـ أرى أنه من الأفضل أن تقرر وزارة الثقافة عدم طبع الكتاب وتوزيعه ، وتترك هذه المهمة لأى ناشر آخر ، قد يرى ضرورة طباعته كما يجب أن نقدم مطالبنا إلى المسؤولين التى تتلخص فى إطلاق حرية البحث والإبداع والنشر ، دون أية رقابة سياسية كانت أو دينية .

٩ ـ إننا لا نستطيع أن نطالب أجهزة الدولة القيام بنشر الأعمال التى تعترض عليها لجان الأزهر [١] .

(٦)
الأصولية فى اللغة العربية ، وفى مصطلح الضد

الأصولية مصدر صناعى مقيس على ما تواضع العرب على اشتقاقه إلى الاسم الجامد غير المشتق بإضافة ياء مشددة وتاء تأنيث . للدلالة على الصفة الجوهرية للشىء أو بنيته .

ولكنه فى مصطلح الضد ، تعد كلمة الأصولية مصطلحا شائعا فى أدبيات راهنة ليقابل المصطلح الأجنبى Fudamentalism بتأثير من التداخل الثقافى فى ثقافة المتأثرين بثقافة الغرب كما هى .

---

(١) عن مقال أحمد عثمان : أوقفوا هذه المعركة بين المثقفين والأزهر . بنصه نشر فى أخبار الأدب فى ٢٨ مايو ٢٠٠٠ م ص ٣٧ .

والأصولية كمصدر صناعى دال فى صميم الثقافة العربية لوصف علوم التأسيس الحضارى ـ كأصول الدين ، وأصول اللغة وغيرهما من علوم التأسيس الحضارى كما عرفته العربية . وقد جرى استعمال مصطلح أصولى ـ لكل مشتغل بهذه العلوم .

لكن هذا المصطلح لم يستخدم،ليطلق على اسم مذهب Fudamentalism فى اللغة العربية إلا من عقود قليلة ـ خاصة فى العقدين الأخيرين من هذا القرن ، وهذا دليل على أن استخدامه كاسم مذهب لا يتلاءم مع اللغة العربية ، ولكن نظرا للتوقف الذى أصاب الثقافة العربية بعدم القدرة السريعة على التواؤم بين اللغة وحركة الثقافة والحضارة ، كما كان الشأن فى عصور العربية الأولى فقد نتج عن هذا الاستخدام الغريب لهذا المصطلح ، كغيره من مصطلحات دخلت ثقافتنا المعاصرة نتيجة التأثير السلبى الوارد من ثقافات أقوى ، وضع دلالة المصطلح فى غير موضعها الصحيح.

وأيا كان أصل المصطلح وصحته من خطئه ، فقد صار مصطلحا مستعملا بقوة فى الخطاب السياسى التنويرى ، كلما أراد هذا الأخير وصف التيار المضاد بالسلفية الأصولية والتخلف والجمود والرجعية المعطلة للتنوير والتحديث وتقدم المجتمع المدنى .

إذن صار مصطلحا ـ فى معجم الخطاب السياسى ـ يمثل تيارا يعتمد على الأصول الإسلامية ، باعتبارها حققت التقدم والعزة والتفوق للمسلمين فى القرون الماضية ضد تيار العلمنة ـ أو التنوير ـ الحداثة ـ المجتمع المدنى : بمحاكاة أوربا ، وحذو نموذجها الحضارى ؛ لتحقيق نهضة مثل التى حققها المجتمع الغربى الصناعى . وهى نهضة قامت على الإعلان العلمانى ، ومنطق الرأسمالية الاستهلاكية ، والفلسفات المادية المبعدة للدينى والروحى . وهى النهضة التى يطالب بها (المثقفون التنويريون) والاندماج فى قلبها . ومن ثم فهم ينظرون إلى الآخر بفهم جديد للأصولية ، مع تكريسه فى الخطاب السياسى « بمعنى رد الفعل المتطرف ، والانكفاء على الذات الدينية وهو الفهم الغالب على أدبيات الإعلام الصدامى الراهن فى الشرق والغرب ، وأدخله د . أنور عبد الملك فى حساباته الجديدة فى بحث منشور فى سنة ١٩٨٨ »[1] وأخذ التعامل معها ، على أساس أنها سمة التيارات الإسلامية التى تعتمد على العنف فى الوصول إلى أهدافها ، حركيا ، أما نظريا فعلى أساس أنها ضد العقل والتقدم وقيم الحداثة وحقوق الإنسان وتعطيل تقدم المجتمع المدنى .

---

(١) عن مقال المفكر المصرى المقيم فى باريس : أسامة خليل ـ نشر بأخبار الأدب فى ٢٥ من يونيه ٢٠٠٠م .

ولكن لماذا لا يفيد كل تيار من إيجابيات التيار الآخر ؟

يفيد التيار الأصولى أولا من تراث الإسلام الدينى والعلمى والثقافى فى كل مجالات العلم والمعرفة وهو تراث غنى يمكن أن يكون قاعدة ثابتة للتقدم ، مع الإفادة من تقدم الغرب وتقنياته ، وهذا ميسور فالأصولية الحقة كما وصفها أحد الباحثين : «ليست التخلف والعنف وردود الفعل اللاعقلانية ، لكنها المراس العقلانى المنظم لفاعلية الجماعة البشرية فى تعاملها العلمى والعملى مع الواقع من أجل إعادة امتلاكه وصياغته »[١] ، باعتبارها مشروعا حضاريًا وممارسة واعية لجماعة بشرية قادرة على أن تعمل فى إطار التقدم الإيجابى الإنسانى .

---

(١) عن مقال المفكر المصرى المقيم فى باريس : أسامة خليل - نشر بأخبار الأدب فى ٢٥ من يونيه ٢٠٠٠م .

الفصل الخامس

الأزهر يدافع عن الإبداع

الأزهر يدافع عن الإبداع

بعد إصدار الأزهر بيانه ، اتهمه التنويريون بقتل الإبداع ، وبأنهم غير متخصصين فيه ، وأن الأحرى بهم أن ينؤوا عن مسالكه . ولم يرض علماء الأزهر عن هذا الكلام فقاموا يدافعون عن الإبداع .

١ ـ سئل د . محمد إبراهيم الفيومى الأستاذ بالأزهر ـ تخرج بالأزهر ، وواصل دراسته بالجامعات الأجنبية ـ عقب نشر وزارة الثقافة للرواية عن اتهام التنويريين للأزهريين بأنهم يقيمون (محاكم تفتيش) لقتل الفن والإبداع .

ورد الدكتور محمد إبراهيم الفيومى قائلا : إن تاريخ الإسلام كله لم يعرف تضييقا على إبداع أو فن ، فمن مدرسة بغداد انتشرت الثقافة والعلوم ، وكان القائمون عليها متخصصين فى الدين والثقافة والعلوم ؛ لأن الإسلام لا يعرف الثنائية المتصارعة كتلك التى ظهرت فى أوربا فى العصور الوسطى بين العلمانيين والكهنوتيين ، كان الشيخ المسلم عالما ومفكرا ومتدينا ، وعلى سبيل المثال فإن ابن سينا كان طبيبا وصيدلانيا وعالما وفيلسوفا وشاعرا ومتصوفا ، ولم تتعارض واحدة منها مع الأخرى . ودرس العلماء المسلمون الملل الأخرى مثل الشهرستانى وابن حزم ، كما درسوا العلوم العقلية وتعايشوا مع الأديان الأخرى . وتحدثوا عن الصلة بين الشريعة والحكمة ، ولم يكن ابن رشد مؤلف : فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال ، لم يكن مفرداً فى الميدان ، بل مثالا لكثير من العلماء المسلمين الذين تدارسوا أفكاراً غير إسلامية ، دون تحفظ ، ودون وصم أحد بتكفير ،وفى الوقت نفسه نظر لهم مخالفوهم باحترام الطالب لأستاذه . ومنذ إنشاء قاهرة المعز فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، كان الأزهر تطورا لهذه المدارس التى انتشرت فى العالم الإسلامى كله .

وكان العلماء المسلمون يميلون إلى التسامح دائما، يتفقون ويختلفون، وكان للاتفاق أدبه ، كما كان للاختلاف أدبه ، فحين أعلن أبو الحسن الأشعرى اعتزاله عن مذهب المعتزلة أعلن خروجه من مذهب الاعتزال بحرية واعتدال ، وأخذ يبرر خروجه من الاعتزال بمبررات علمية مؤسسة على قواعد منهجية ، وحاوره الآخرون بأدلتهم العلمية،

وكان فى الإسلام ساحة للاعتدال وقبول الرأى المخالف بسعة صدر ، دون صخب كصخب الجهال ، ودون ما سفول كسفولهم ، بل بكل حرية واعتدال .

وقبل إنشاء الأزهر ، تساءل الناس فى أمصار كثيرة من أمصار الإسلام عن العقيدة الصحيحة ، ولم يجدوا مصرا أكثر سماحة واعتدالا وحرية من مصر ، وكان عالمها الطحاوى شافعيا فى بلد أكثر أهله شافعية فتحول إلى المذهب الحنفى ، فلم يستنكر عليه أحد تحوله عن المذهب الشافعى ، ولم يغضب عليه أحد ، فالمذهب الحنفى ، كالمذهب الشافعى يلتمس كل منهما أدلته الشرعية من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ ، ومن الاجتهاد القائم على فهم الكتاب والسنة وأحوال المسلمين فى معايشهم وأعرافهم ومقاصدهم بما يحقق المصلحة المرسلة ، ما لم يتعارض مع نصوص الكتاب والسنة .

أرسل الناس من كل مكان فى العالم الإسلامى إلى مصر ، إلى الطحاوى عالمها وعالم كل المسلمين يسألونه عن العقيدة الصحيحة ، فكتب لهم رسالة ضمنها معارفه بالعقيدة الصحيحة بعنوان : « هذا بيان للناس » وتقبله المسلمون قبولا حسنا واشتهر بين الناس « بالعقيدة الطحاوية » وأرسل منه نسخا إلى جميع الأمصار الإسلامية ، وتولاه العلماء بعد ذلك بالشرح والتفصيل . ولا يزال محل اهتمامهم إلى اليوم .

ولما قام الأزهر الشريف لم يقم على مذهب معين ، إنما حمل الثقافة الإنسانية مع الثقافة الإسلامية بالتسامح والمحبة ، والتحاور القائم على البحث عن الحقيقة ، فهى ضالة المؤمن أنى وجدها . ولم يقم حوار بالأزهر الشريف على تنابز وتناحر وإقصاء صاحب الرأى المخالف ، وكان العلماء قانعين بما رزقهم الله ، لا تغرهم الدنيا بمتاعها القليل الفانى ، ويذكر التاريخ عالم الأزهر الحسن بن الهيثم الذى يضعه مؤرخو العلم ضمن أعظم ثلاثة علماء فى تاريخ الإسلام ؛ مع ابن سينا والبيرونى - يرحمهم الله - كان يجلس أمام باب الجامع الأزهر يشتغل بنسخ الكتب للأغنياء وللوراقين بأجر زهيد ، فإذا حصل ما يكفى طعامه الضرورى ، ومؤنة قنوعة انصرف إلى الانشغال بالعلم الذى لم يطلب به جاهًا ، إنما كان انشغاله به تقربا إلى الله تعالى وزلفى . وكان الحاكم الفاطمى يحاول أن يقربه إليه ، فكان يتأبى بالحيل حتى يفلت من أسر السلطان ، ليتفرغ لأسر العلم ،كان ابن الهيثم يفر من نعيم دنيوى فى قصر السلطان ، إلى الانشغال بعلم يتقرب به إلى الله تعالى مع تهديد الفقر والفاقة ؛ لأنه رضى أن يكون عالما مسلما وحسبه ذلك .

هكذا كان علماء الأزهر الشريف، وهكذا ظل علماؤه فى العصر الحديث ، ألا يذكر التنويريون، ولعلهم يتذكرون موقف الشيخ عبد الله الشرقاوى الفقيه العظيم الذى رفض مهادنة نابليون بونابرت ، القائد الذى دانت له أوربا كلها ، مع إغرائه له ، بالمنح وأرفع الأوسمة الفرنسية . وليتهم يتذكرون أن سليمان الحلبى الطالب الأزهرى هو قاتل الجنرال كليبر ، قائد الاحتلال الفرنسى على مصر . وأن عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ الأزهرى الذى أقر بعظمته أعظم مؤرخى الغرب المعاصرين (أرنولد توينبى A . Toynbee) فوصفه بأنه أعظم المؤرخين فى كل العصور، رفض الانحناء لمحمد على، فانتقم منه بقتل ابنه خليل ، وكان ابنه الوحيد فبكى عليه الجبرتى حتى كف بصره . ولعلهم يتذكرون من شيوخ الأزهر الأفاضل: رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده والشيخ محمود أبو العيون ، ومصطفى عبد الرازق ومحمد البهى والشيخ المراغى وعبد الحليم محمود ، وجاد الحق على جاد الحق ، وغيرهم كثيرون . ويتذكرون قواد التحرير من الأزهر الذين جابهوا الاحتلال الفرنسى والإنجليزى ـ والتسلط السوفيتى ثم التسلط الأمريكى المتعجرف . وأخيرا ليتذكروا قول نابليون بونابرت : « إن تاريخ الأزهر تأثيره واضح جلى على العالم الإسلامى ؛ لأنه سيطر بمفهوم الإسلام على كل ما هو وطنى وقومى ؛ ولأن مشايخ الأزهر عرفوا كيف يقودون التحرير بالمفهوم الإسلامى » (١) .

لو أن مؤرخا للإسلام ـ خاصة ـ فيما يتعلق بالقطر المصرى ، لم يضمن تاريخه ما قدمه الأزهر إلى المسلمين وإلى مصر فى مجالات : العلم والثقافة والتحرر من المحتل يظل تاريخه منقوصا .

إن ما يدور على الساحة الثقافية الآن يشبه حوار الطرشان؛ لأنه يفتقر إلى موضوع، حوار بلا قضية ، وينبغى أن يكون الحوار حول قضية ، لا أن يكون من أجل إحداث صدام لإثبات تفوق تيار ثقافى على تيار ثقافى آخر مخالف .

لقد خرج الحوار عن موضوعه ، ولأن الوليمة كانت فاسدة ، كان الحوار فاسداً وأصيب الجميع بقىء وإسهال فى التفكير فتركوا أمر (الوليمة) إلى أمور كريهة ، وانتهى الأمر إلى تقرير صدر من التيار العلمانى يرى أن التنوير يجب أن يقطع الصلة بكل الأصول التراثية .

---

(١) د . محمد الفيومى ـ صوت الأزهر فى ٢ / ٦ / ٢٠٠٠ م .

والتنوير مصطلح من مخلفات القرن ١٨ فى أوربا ، تقدمت أوربا بعده قرنين من الزمان ، ودخلت بداية القرن الثالث، ولا تزال العصافير فى مصر تشقشق بما تشقشق به عصافير القرن ١٨ الأوربى - فهم يعيشون فى القرن ٢١ بأحلام العصافير فى القرن ١٨ .

« أما المفاهيم التى يدخلونها فى الأدب من عرى وعهر ومجون ظهرت فى أوربا فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، حين سيطر النازى على باريس ، مما دفع الفرنسيين إلى السخرية من كل المقدسات تحت وطأة الهزيمة ، وبعد ذلك انتهت هذه الفورة التى لم تكن ثقافية أو فكرية ، إنما فورة عصبية وليدة ظروف خاصة »[(١)] .

يبدو أن وزارة الثقافة تحرص على طبع أدب من نوعية رواية (وليمة لأعشاب البحر) وتنشره على جماهير القراء ، وكأنها تقدم لهم خدمة وطنية .

لقد عرف الأدب العربى الغزل وحب المرأة منذ العصر الجاهلى إلى العصر الحديث، وألف فيه الشعراء والناثرون إبداعا ونقدا ، وشاركهم العلماء والفقهاء ، فقد كتب ابن حزم على سبيل المثال : طوق الحمامة ، الذى صور فيه الحب قيمةً إنسانية عليا ، وهو الكتاب الذى اهتم به مؤرخو الأدب فى الشرق العربى ، والغرب الأوربى على السواء . وعدوه من الكتب العربية المؤثرة فى تصور الحب الفروسى فى الشعر الغنائى الأوربى - خاصة الذى اشتهر بفن (التروبادور) الذى أفاد منه ، كما أفاد من فن التوشيح الأندلسى. والجدير بالذكر أن الإمام ابن حزم كان إماما فى الفقه فهو صاحب أكبر موسوعة فى الفقه الظاهرى التى عرفت بكتاب (المحلى) وصاحب أكبر موسوعة إسلامية فى العقائد والمذاهب فى مختلف الأديان والملل والنحل التى عرفت بكتاب : (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) وهناك أيضًا كتاب فى (العشق والعشاق) المنسوب لأبى داود الأنطاكى ، صاحب كتاب (التذكرة) فى النبات والأدوية .

لقد عرف الأدب العربى حب المرأة شعرا ونثرا ونقداً ؛ لأن الإبداع قيمة إسلامية عليا ، رفيعة المقام . والبديع (عز شأنه) اسم من أسماء الله الحسنى ، فسبحانه وتعالى بديع السموات والأرض. والمسلم مطالب بالإبداع، ولكن ما يدعو إلى الاستغراب أن يزعم العلمانيون بأنهم وحدهم المبدعون ، وأنهم وحدهم الذين يفهمون فى الإبداع . فإن كان الإبداع بالمفهوم الذى اصطلح عليه الناس فهم كاذبون بلا شك ، وإذا كان إبداعا شاذا يوافق مشاربهم وهواهم مثل الذى جاء فى رواية (وليمة لأعشاب البحر)

---

(١) د. محمد الفيومى - صوت الأزهر فى ٢ / ٦ / ٢٠٠٠ م .

إبداع الفحش والمجون فهم صادقون بلا أدنى شك ؛لأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة بين الناس تحت غطاء الإبداع .

* * *

كان بإمكان الأزهر الشريف أن يسكت عن الرواية ويتجاهلها لكى لا يشتهر مؤلفها، ويذيع اسمه ، وأيضا لكى لا يشارك الأزهر بسكوته فى إشاعة الفاحشة بين الناس ، ولكن الأزمة فرضت نفسها على المناخ الفكرى العام ؛ لأن الصورة التى أظهرت بها وزارة الثقافة الرواية للناس ، على اعتبار أنها تحمل قيمة أدبية مما أوحى بأن الوزارة تريد أن توجه جماهير القراء إلى وجهة لا تحمد عقباها ، كل هذا حمل الأزهر على أن يصدر بيانه المشهود ، ولهذه الأسباب أكد الدكتور محمد إبراهيم الفيومى « حق الأزهر فى إبداء رأيه فى موضوع رواية (وليمة لأعشاب البحر) ؛ لأن مؤسسة مسؤولة من مؤسسات الدولة قامت بطبعها ونشرها » [(١)] .

٢ ـ أقدم د . محمد عمارة (أزهرى درعمى) فى مقال : الفارق بين البدعة والإبداع ، يفصل رأى علماء الإسلام ، وكأنه أراد أن يبين أن مسألة الإبداع ضرورة إسلامية منذ نشأة الفكر الإسلامى وتطوره . قال : « إن الإبداع يعرفه علماء علوم القرآن الكريم ، إنشاء صنعة جديدة بلا احتذاء،هو نفسه تعريف معاجم اللغة العربية ، فبدع الشىء بدعا وابتدعه أنشأه ، وبدأه واخترعه لا على مثال » .

« وإذا كان التجديد من سنن الاجتماع فى النسق الفكرى الإسلامى ، فإن التجديد يكون ثمرة للإبداع ، ومثمرا لمقادير من الإبداع » .

« والبدعة قد تكون محمودة ، وقد تكون مذمومة ، وهى المنهى عنها لمخالفتها لمبادئ الشريعة ، وأحكام الدين ، وهو ما يؤيده حديث رسول الله ﷺ :« من سن سنة حسنة (طريقة أو بدعة لم يكن لها وجود فى الشرع) كان له أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

يقول د . محمد عمارة : « فواجب إبداع العلوم التى لا تقوم فرائض الدين ، وواجبات خلافة الإنسان فى عمران الأرض إلا بإبداعها شرعية كانت أو مدنية ومحرم ابتداع المحرمات المخالفة لأوامر الشرع ونواهيه » [(٢)] .

---

(١) ارجع إلى حديث د . محمد إبراهيم الفيومى ـ لصحيفة صوت الأزهر فى ٢ / ٦ / ٢٠٠٠ م .
(٢) د . محمد عمارة ـ صحيفة صوت الأزهر فى ١٦ / ٦ / ٢٠٠٠ م .

فإذا كان الإبداع واقعا تحت عموم ما ندب الله تعالى إليه لتحقيق مصلحة الناس ولا يتعارض مع نص شرعى ، فهو الإبداع المحمود ، وما كان واقعا تحت عموم الضلال ، فهو الابتداع المذموم .

وكأن الدكتور محمد عمارة بعد تبيين الفارق بين الإبداع المحمود ، والابتداع المذموم يترك لقارئ رواية (وليمة لأعشاب البحر) أن يقرر إلى أيهما تنتمى رواية (وليمة لأعشاب البحر) دون ما إشارة إليها ؛ لأنه أراد أن يكون كلامه حكما عاما على كل عمل أخذ صفة الإبداع المحمود ، وآخر أخذ صفة الإبداع المذموم . مع أنه قال كلامه هذا فى مورد الحديث عن الرواية ذاتها .

وكان د . محمد عمارة سبق وقال رأيه فى (الوليمة) قبل ذلك بعدة أسابيع بصحيفة الشعب (فى ٩ مايو ٢٠٠٠) وعد الرواية « من كبائر الإثم والفواحش » . ولأن الدكتور محمد عمارة لم يقبل النزول إلى فكر الغرائز ، ورضى بالارتفاع إلى فكر العقل فقد تساءل : « هل نحن أمام حالات فردية أم اتجاه وظاهرة فى الثقافة والإعلام ؟ لأن الأمر إذا كان نزوة فردية لكاتب ما لهان الأمر . . . إنها قضية مؤسسات دولة فى مصر الإسلامية ، ليس لها سابقة فى تاريخ مصر . . . إننا أمام تيار يعرف ما يريد وله وظيفة ومقاصد ، ثم يقولون : هذا إبداع ، وأن الكلام جاء على لسان بطل الرواية ، وليس دليلا على أن البطل يتبنى هذا الكلام . إننى أقول : إن الأمر لو كان حكاية عن كلام أحد أبطال الرواية لكان محاكاة لا علاقة لها بالإبداع . فالإبداع ابتكار شىء جديد غير مسبوق . أما إذا كتب الواقع والطبيعة فهذا ليس له علاقة بالأدب إطلاقا ، علاوة على أن يكون له علاقة بالإبداع . وسأفترض أننى أكتب رواية وأن أحد أشخاص الرواية كافر ويقول هذا الكلام ، فالمفترض فى الكاتب إذا كان يحترم عقيدة الأمة ، ألا يأتى بشخص آخر فى الرواية يردد هذا الكفر » .

« إننى حينما أتأمل ما يكتبه هؤلاء المنحرفون أجدهم فى أغلبهم الأعم تنطبق عليهم صفة الغلو العلمانى الذى يجرح الثوابت والعقائد، وأغلبهم من سواقط الماركسية » [١] .

٣ ـ الدكتور أحمد رجب عضو اللجنة الفنية بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر يؤكد أن الأزهر لم يصادر عملا إبداعيا قط ولن يفعل ذلك أبدا ، والأزهر لا يحجر

---

(١) صحيفة الشعب فى ٩ مايو ٢٠٠٠ م .

على فكر ولا يكفر أحدا، لأنه ليس محكمة تفتيش ، ولا يتدخل فى أى عمل إبداعى إلا إذا طلبت منه جهة من الجهات المسؤولة أن يبدى رأيا فيه . أو يبدى رأيا فى كتاب يتصل بالشأن الإسلامى . بل إن الأزهر يسعى إلى تشجيع الإبداع إلا إذا كان يخدش الدين أو يسب الله والأنبياء ، وعندئذ يسعى بالحسنى لرد المخطئ عن خطئه ، استنادا على المعايير الشرعية لا الفنية أو النقدية . .

« إن الأزهر لا يسعى إلى إثارة المشاكل وإحداث الفتن وعلماؤه لا يملكون ضبطية قضائية ، ولا يناقشون عملا أدبيا أو فنيا إلا إذا طلب منهم ذلك من جهة مسؤولة تسعى للحفاظ على الدين ، فهم لا يصادرون الأفكار والإبداع ، بل يقفون بجانب من يقومون بحماية المجتمع بنص من الشرع » [1] .

٤ ـ طالب المدافعون عن الرواية (وليمة لأعشاب البحر) أن تعامل بقواعد النقد الأدبى . ولا اختلاف على هذا، استنادا على قواعد بناء الرواية وآليات السرد والحوار .

الفكرة المسيطرة على الرواية انكسار الإنسان المعاصر فى العالم العربى ، وأنه فى صراع ، يرجع إلى التفكير الإسلامى ، ثم إن الرواية طالت الإسلام بسوء فى بلاد دستورها مستمد من الإسلام ، وهذه فكرة تضلل الحقيقة . ومن هنا كان دفاع الدكتور عبده زايد أستاذ البلاغة والنقد الأدبى بجامعة الأزهر ـ رئيس مكتب رابطة الأدب الإسلامى العالمية بالقاهرة ، فى قضية (الوليمة) قال :

إن الإسلام لم يلزم مبدعا أو شاعرا أو ناثرا ، أو أديبا أو مفكرًا أن يلتزم بمنهج بعينه فى الأدب . ولكنه دعا إلى الحق ، وترك الكتاب أحرارًا فيما يقولون « إلا أن يخوضوا فى الأعراض ويستبيحوا الحرمات ، ويشيعوا الفواحش ، ويهزؤوا بالدين ، ويسخروا من الله والأنبياء ، فحينذاك يحدث تجاوز لحدود المباح ، فيلقون من اللوم والعقاب ما يكافئ خروجهم ، ولا يشفع لهم حينئذ إبداعهم ، ولا تجويدهم » [2] .

الإسلام دين ونظام حياة ، يشرع للناس دينهم وحياتهم ، بحيث ينتشر الانسجام والتوافق فيما بينهم ، الإسلام لا يوجه الكاتب إلى منهج إبداعى بعينه ، ولكنه لا يطلق حرية الأديب فيسىء للمقدسات أو للناس . ومن حوادث التاريخ المعروفة أن عمر بن الخطاب ﷺ سجن الحطيئة بعد أن فشا شره بشعره بين الناس. وحادثة هجائه للزبرقان

---

(١) صحيفة القاهرة فى ٢٣ مايو ٢٠٠٠ م .

(٢) صحيفة صوت الأزهر فى ٢ يونيه ٢٠٠٠ م .

ابن بدر رضي الله عنه مشهورة مع أنه القائل فى القصيدة نفسها بيتا من أحسن الشعر حضا على فعل الخير ومكارم الأخلاق إذ يقول :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

وهو قول جيد لم يشفع له من العقوبة على هجاء الناس . ولم تكن العقوبة إلا ليحمى بها عمر رضي الله عنه أعراض الناس من تجريح لسانه .

ومع أن الحطيئة كان أمير الشعراء المخضرمين ، وله التقدم على سائر الشعراء المعاصرين له ، إلا أنه لم يكن فوق تنفيذ العقوبة ؛ لأن المبدع صاحب الموهبة ـ مهما كانت درجة موهبته علوا ـ لا يجب أن يتخذها سلاحا يرمى به أعراض الناس أو يهددهم.

الإسلام يدعو إلى توظيف موهبة الإبداع توظيفا حسنا لخير الناس ، ولو ترك الحبل على الغارب ليقول كل مبدع ما يريد دون ضوابط دينية أو أخلاقية لعمت الفوضى بين الناس ، وفشت الفاحشة فيهم ؛ولهذا فعندما تفحش الحطيئة فى هجاء الناس ، سجنه عمر رضي الله عنه ، فاستعطفه الحطيئة قائلا :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ   زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم فى بئر مظلمة   فاغفر عفاك الله يا عمر

فاستتابه وعفا عنه ، وتوعده بقطع لسانه إذا عاد إلى هجاء الناس .

ولا ينبغى لمبدع ،وقد أعطاه الله تعالى الموهبة أن يستخدمها فى الإساءة إلى الناس؛ بل عليه أن يعبر عن روح المجتمع وتراثه ونظامه وأخلاقه ـ بصورة تأخذ بيد التفكير العام المبدع لحركة المجتمع كله . كما فعل أحمد شوقى أمير الشعراء ، ومحمد إقبال الشاعر والمفكر الإسلامى الشهير .

٥ ـ ومن خير الدفاع عن موقف الأزهر من الإبداع ، دفاع الدكتور محمد رجب البيومى ، والدكتور محمد رجب البيومى أديب مارس الكتابة ، ودرّس الأدب والنقد بجامعات الأزهر والمنصورة والإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض . والدكتور محمد رجب البيومى يمثل خير ثمار المدرسة الأسلوبية فى الكتابة الأدبية ـ مدرسة الرسالة التى أنشأها الأستاذ أحمد حسن الزيات ـ يرحمه الله .

بدأ دفاعه بمؤاخذ المتحدثين عن الأزهر الشريف بأنهم يتحدثون بما لا يعلمون . فالأزهر يزن الأعمال بميزان الإسلام ، ويقبل الشريفة منها ، ويرفض ما تحمل آراء باطلة وينتقدها و« ذلك من صميم رسالته ؛ لأنه اختص بنشر تعاليم الإسلام، وتفنيد ما يوجه إليه من أباطيل »[1] .

وماذا يقول العالم الإسلامى لو أن الأزهر سكت عن قول الحق وتفنيد الباطل وإظهاره أمام الناس ؟ تساءل الدكتور محمد رجب البيومى .

إن قضية رواية (وليمة لأعشاب البحر) ليست أول الأعمال التى تصدى لها الأزهر الشريف ، فقد تصدى من قبل لعمل الشيخ على عبد الرازق ، الأزهرى الذى كان يعمل وقت إصدار كتابه (الإسلام وأصول الحكم) قاضيا بالمحاكم الشرعية وقد تضمن هذا الكتاب آراء باطلة مثل قوله : « إن الشريعة الإسلامية ، شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ ، وأن الدينا من أولها إلى آخرها أهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول ، وأهون من أن يبعث لها رسولا » . ويقول : « إن التشريع ينقسم إلى شطرين فالشطر الأول المتعلق بأمور الدنيا لا صلة للدين به ، أما المتعلق بالعبادة فهو المقصود » . ويقول : « إن جهاد الرسول ﷺ كان فى سبيل الملك لا فى سبيل نشر الدعوة ، وذلك خارج عن حدود رسالته ، كما أن كل ما فى شرعة الإسلام ، وأخذ به النبى ﷺ ليس فيه أى شىء من أساليب الحكم السياسى ، وهو إذا جمع لا يمثل غير جزء يسير لما يلزم لدولة مدنية سياسية وقوانين » . ويقول : «إن دعوى إجماع الصحابة على وجوب إقامة إمام عادل لا تجد مساغا لقبولها ، وليس لها من دليل صحيح . وأن الخلافة ليست فى شىء من أمور ديننا » .

وقد رد عليه علماء الأزهر ، فهل أخطأ علماء الأزهر الشريف فى ذلك ، وهل كان من الممكن أن يسكتوا ؟!

ثم إن الأزهر الشريف عندما رد أباطيل طه حسين فى الشعر الجاهلى ، لم يكن يقصد الشعر نفسه ، ولكن قصد مخالفات طه حسين ، التى خالفت معلوما من الدين بالضرورة أذاعه على طلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة .

كان على الأزهر أن يفند الأباطيل التى وردت بكتاب (فى الشعر الجاهلى) تلك

---

(١) صوت الأزهر فى ٢ يونيه ٢٠٠٠ م .

الأباطيل نقلها طه حسين وترجمها عن مستشرق يهودى متعصب يدعى مرجليوث بدون بينة . الذى اعترض عليه الأزهر ليس قضية (انتحال أو نحل الشعر الجاهلى) فهى قضية مشهورة تحدثت عنها كتب التراث وفى مقدمتها كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحى باعتدال ، دون الولوج فى قضايا دينية ، بخبث نية وسوء طوية كما فعل طه حسين .

لقد غالى طه حسين فى الحديث عن هذه القضية بالتأكيد ، وكان تفنيدها من عمل النقاد المحققين ، وقد تصدى لها منهم الدكتور ناصر الدين الأسد ، ونقضها فى كتاب مشهور بعنوان (مصادر الشعر الجاهلى). بالإضافة إلى نقض مزاعم طه حسين من وجهة النظر النقدية الأدبية ، للدكتور ناصر الدين الأسد ، كان نقض الأزهر للكتاب نفسه ، لما ورد فيه من أباطيل من صميم الشأن الإسلامى مثل قوله : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا ،ولكن وجود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما » . وهذا رد لمعلوم من الدين بالضرورة ؛ لأن إنكار صحة ما أخبر عنه القرآن يعنى أن الحقائق التى تضمنها القرآن غير صحيحة ، وفى ذلك خروج على معلوم من الدين بالضرورة .

كما أن طه حسين « تحدث فى دروسه لطلاب الجامعة ، عن أسلوب القرآن الكريم واختلافه فى السور المكية عنه فى السور المدنية ، مدعيا أن البيئة المدنية قد ساعدت على نضج تفكير رسول الله » وهى فرية قال بها بعض المستشرقين ، خاصة المستشرقين الفرنسيين ، كما ذكر الدكتور إبراهيم عوض فى كتابه : (المستشرقون والقرآن) و« هذا افتراء صريح فجميع ما تقدم من التهجم على القرآن ، وجد المفندين المتخصصين من علماء الأزهر ولدينا كتب الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر) والأستاذ الشيخ محمد أحمد عرفة والأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى ، والأستاذ الشيخ محمد نجيب المطيعى ، والأستاذ الشيخ محمد الغزالى ، والأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ، وكلهم من شيوخ الأزهر الشريف وكل ردودهم تدور حول رد الشبهات التى تهاجم الدين . ووقف بجانبهم من غير الأزهريين من أصحاب الحمية الدينية أمثال الأساتذة : محمد فريد وجدى ، ومحمد أحمد الغمراوى ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومحمد لطفى جمعة وغيرهم كثيرون » .

وشأن الكتب السابقة فيما يتعلق بالشأن الإسلامى ، هو الشأن نفسه فى رواية

(وليمة لأعشاب البحر) وكان على علماء الأزهر الشريف أن يردوا ما جاء بها من أباطيل عن نحر الأمة ، وإصدار رأيٍ فى الإبداع أم « تهون قيمة رسول الله ﷺ لدى المسلمين حتى يتشجع كل ملحد بالافتراء عليه . بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل صعد إلى رب السموات والأرض » .

« ثم ما هى رسالة الإبداع فى العالم الأدبى ؟ أهى ارتقاء للأحاسيس ، وارتفاع بالغرائز عن النزوات الهابطة ؟ أم هى التسفل الخلقى ، والانحدار العقلى ؟ وإذا أدى الإبداع إلى التسفل الخلقى ، وحض على الجريمة ماذا يكون الفرق بين المبدع ، ورئيس العصابة ، وصاحب الماخور ، وقواد العاهرات ؟ » .

« وإذا كان الإبداع يهاجم المقدسات،فإنه ليس إبداعا ،ولكنه جريمة تتستر بالأدب ، وأصابها عملاء لقوم يحاربون الإسلام ، فهو من الناحية القانونية ضد دستور البلاد ، ومن الناحية الأدبية معارضة خطيرة للحقائق الخلقية المعترف بها والتى بفقدها ينهار المجتمع ويصبح إباحيا » .

وإذا قيل: إن الأزهر يجب أن يحتفظ لنفسه بدور الفقيه ،وأنه لا يجب أن يتعرض لدور الأديب ، فيرد عليهم « بأن الفقيه لا يتعرض للأديب إطلاقا ، إلا إذا مس ناصية الشريعة أو العقيدة . إن الأزهر لا يحارب حرية الفكر والإبداع الأدبى فكيف يكون عائقا أمام الثقافة ، وأكثر روافدها انحدرت من نهره العظيم ؟ » (١) .

٦ ـ وقد يحلو للتنويريين أن يحتجوا بالشيخ الأزهرى رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) والشيخ محمد عبده (ت ١٩٠٥) وعبد الله النديم (١٨٤٥ ـ ١٨٩٦) زاعمين أنهم أزهريون تنويريون ، فهموا حقيقة الاستنارة ، كما لم يفهمها (أزهريو هذا الزمان) .

وكان يجب عليهم أن يبدؤوا من الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، لا الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ولكن هل قَبِلَ هؤلاء الشيوخ التنوير الغربى أو الاستنارة كما هى لدى الغرب ، كما يريدها التنويريون المصريون المعاصرون ؟

لقد نظر الجبرتى إلى الفرنسيين من وجهين أولهما : أن الفرنسيين أصحاب حضارة وثقافة وعلم يجب احترامه والإفادة منه . وعندما تكلم عن مكتبتهم العلمية التى أقيمت

---

(١) ما بين علامات التنصيص من مقال د . محمد رجب البيومى فى صوت الأزهر فى ٢ يونيه ٢٠٠٠ م.

ليفيد منها كل طلاب المعرفة أعجب بهم وتمنى لو أن القائمين على الأمر بمصر اصطنعوا ذلك كما أعجب بنظمهم الإدارية والمالية ، وتطبيق القانون .

ولكن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى عندما احتك بفكرهم المادى ، رأى فيهم ماديين وَضعيين لا يقيمون وزنا للدين ، ويزدرون الغيبى ، ومن ثم رفضهم من هذه الوجهة .

الجبرتى ـ يرحمه الله ـ عندما واجه الحضارة الغربية متمثلة فى فرنسا ، فرق بين ما هو خير لنا وطالب بتطبيقه والإفادة منه ، ورفض ما يضاد الدين ولا يرجى منه نفع .

الشيء نفسه رآه رفاعة الطهطاوى بعد سنوات خمس قضاها فى باريس ، فقد رأى فى ثقافتهم قطيعة بينهم وبين الله سبحانه ،وبين الوحى والفكر والعقل ، وأنهم يلوذون بالعقل ، ويرون أن كل ما يسمح به العقل صواب . فيقدمون عليه ، وكانت شهادة الشيخ رفاعة عليهم : إنهم مع القطيعة بينهم وبين الوحى والدين ، فقد حازوا التقدم فى العلوم الدنيوية ، ووصف حالهم شعرا فقال :

أيوجد مثل باريس ديار ... شموس العلم فيها لا تغيب

وليل الكفر ليس له صباح ... أما هذا وحقكم عجيب

ولعل موقف الشيخ عبد الله النديم (١٨٤٥ ـ ١٨٩٦) من مجلة المقتطف ، تلك المجلة التى دأبت على تسريب الثقافة الإلحادية إلى البيئة الإسلامية من داخلها ، لا من خارجها ، فقد وظفوها لترجمة كلام من لا يدينون بدين كما وصفهم النديم « فهم يرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة منكرين وجود الإله الخالق ، وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية وما هى إلا معاول هدم ، يهدمون بها عموم الأديان».

ويعلق الدكتور محمد عمارة على كلام عبد الله النديم بقوله : « هكذا تمتع علماء الأمة بهذا العمق ونفاذ الرؤية ، فميزوا بين نهضة الغرب الأوربى فى العلوم الطبيعية وتطبيقاتها وبين وضعية ثقافتهم ولا دينيتها ، وهو عمق ونفاذ رؤية يفتقر إليها الذين انخدعوا بالحداثة من المثقفين التغريبيين ويمثلهم أركون فيقول عنها :« إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته ، وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة ومكان تسلط الذات الإلهية وهيمنتها على الكون » .

إنها ثقافة القطيعة بين الله والإنسان ، وليتها وقفت عند القطيعة فقد تجاوزتها رواية (وليمة لأعشاب البحر) إلى حد الاستهزاء والازدراء .

قال تعالى فيهم : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤)﴾ [الجاثية] ويقرر فيهم القرآن الكريم : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ [الروم]

٧ ـ آخر كلمة :لا كلام هاهنا إلا لما يخص المقام ، أى ما أثارته كتابات انزلقت إلى مائدة (الوليمة) .

العلمانيون بكل تياراتهم ـ خاصة اليسارية ـ خططوا لإزاحة الإسلام مبررين موقفهم بالرغبة فى إقامة دولة مدنية ، ومن هنا شنوا حربهم فى أشكال مختلفة فى أطوار مختلفة منها تجفيف ينابيع الإسلام ، ثم تطوير الحدث إلى ضرب الإسلام نفسه .

قالوا : فى بادئ الأمر بضرورة إيجاد هوية إسلامية جديدة ، ثم نادوا بتجفيف الينابيع ، ثم قرروا هدم الينابيع وتدميرها من أجل إقامة حكم زمنى وحكومة مدنية .

أيمكن طرح السؤال التالى : ألا يمكن أن تكون دولة الإسلام مدنية ، أى يقوم عليها من يصلح أمرها من الناس مستمدا هذا الإصلاح من الشريعة والعقيدة والفقه الإسلامى ؟ وقد قال بهذا فضيلة الشيخ محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الحالى . وهو رأى يرى أن الغاية هى تحقق المصلحة العامة فى الدولة المدنية ، التى تلتزم بالإسلام عقيدة وشريعة .

ولكن هل فى هذا التصور فرق بين أن تكون الدولة مدنية بهذا التصور ، أو أن تكون مدنية بتصور علمانى ؟ نعم .

فى الحالة الأولى تستمد الحكومة المدنية أسس حكمها من شرع الله ، فى الحكم فى هذه الحالة ما يؤخذ من الثوابت ، كما فيه ما فيه من غير الثوابت ، وهما متلازمان لا ينفصلان . قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ١٨٩] .

وقال تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٥) ﴾ [الحديد] .

الإرادة لله ، فما موقف الإنسان من هذه الإرادة ؟ موقفه يتحدد فى قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

أى أن الإنسان موكل فى الأرض لتنفيذ السلطة التشريعية والسياسية بأمر الله

تعالى. وبتفويض منه عز شأنه للإنسان ، المزود بالعقل والقدرة على الفهم والتجريب والعمل .

وهل لهذه السلطة التشريعية والسياسية شكل محدد ؟ أوصورة معينة ؟ لم يبين القرآن الكريم ، ولا السنة النبوية شكل هذه السلطة ؛ ولهذا فتح الإسلام أبواب الاجتهاد ، والمقصود به الاجتهاد المطلق ، لا اجتهاد المذهب ، وجعله حقا لكل مسلم قادر عليه بضوابط معرفية وشرعية ، أى لمن يقدر عليه علما وعملا فى حدود تلتمس من جوهر الشريعة الإسلامية ، بالتصور الذى يضمن للأمة تماسكها ووحدتها ويحقق لها العدل والأمن والكفاية لكل من يكفله النظام العام للدولة .

وهذا التصور يخالف تصور القوانين الوضعية ، نتيجة للتنظيمات الاجتماعية أو عقود ومواثيق بين الحاكم وشعبه ؛ لأنها عرضة للأهواء والتقلبات .

فى البداية نظمت أمور الدولة الإسلامية ، وكان الرسول ﷺ قد وضع الصحيفة لتنظم حال الجماعة ـ أول حكومة إسلامية . ثم جاء الخلفاء من بعده فاجتهدوا على هدى من الشرع الحكيم يوم السقيفة. وبحسب المواقف الدنيوية والحياتية المعيشية ، فعندما كتب رسول الله ﷺ (صحيفة المدينة) لتقنين العلاقات بين طوائف المجتمع المدنى بالمدينة ،لم تكن الصحيفة نصا قرآنيا ، ولكنها كانت نصا مدنيا لا يخالف الشرع. وعليه ،فإن على الناس فى مجتمع المسلمين بعد ذلك أن ينظموا أمورهم الحياتية بحسب مصالحهم ومقاصدهم دون الالتزام بنظام ثابت يتوارثونه من جيل إلى جيل ، فهم فقط ملزمون بتوارث الثوابت .

ولقد فطن فقهاء المسلمين إلى هذه المسألة المهمة فى نظم الحكم،فاجتهدوا وأصدروا من بين اجتهاداتهم قواعد سد الذرائع والترجيح والاستحسان ، والمصالح المرسلة . ولقد تطورت هذه الأصول التشريعية إلى أن وزنت بها مقاصد التشريع الإسلامى الخمسة: حفظ الدين ـ حفظ النفس ـ حفظ العقل ـ حفظ المال ـ حفظ النسل . وتحولت إلى فقه اجتهادى مطلق يرعى مقاصد المسلمين فى مجال الضروريات والحاجيات والتحسينات ، كما فصلها المشرع الإسلامى المقاصدى العظيم أبو إسحاق الشاطبى الفقيه المالكى يرحمه الله فى كتاب (الموافقات) .

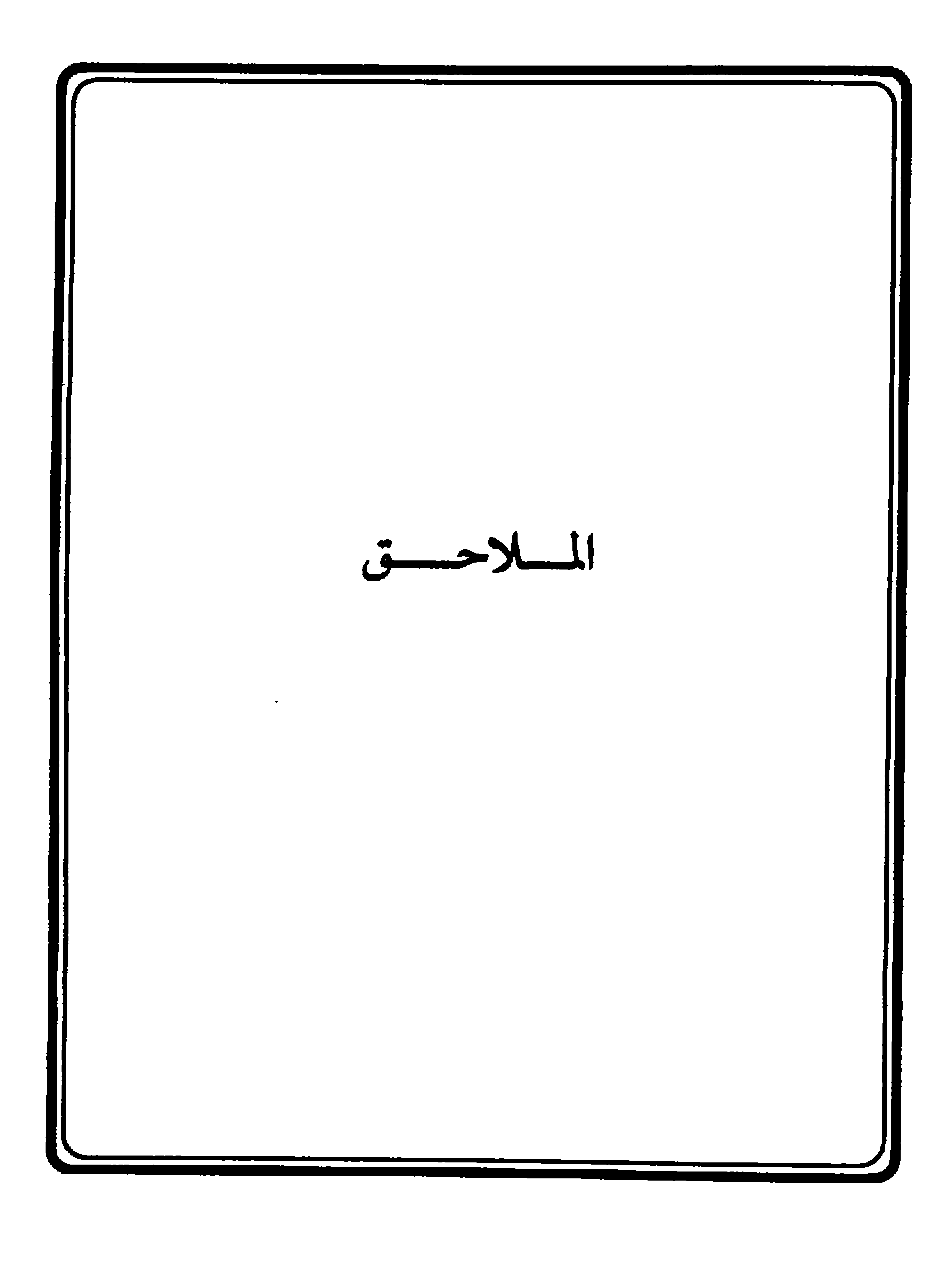
ولقد أمر الله تعالى المسلمين بطاعة هذا النظام قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

أطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُم ﴾ [النساء : ٥٨] أى أن الأمر بطاعة الله عز وجل ، وطاعة ما جاء به الرسول ﷺ ، ثم طاعة أولى الأمر من المسلمين الذين يطيعون الله ورسوله واجب عينى على كل مسلم .

ألا تعد (صحيفة المدينة) ودولة المدينة أول نشأة للدولة المدنية التى تحكم بدستور يلتمس قوانينه من شريعة الله وسنة نبيه مثالا يحتذى ؟ نعم ، ولكن ليس بطريقة المطابقة، ولكن بالمماثلة .

إن جوهر الإسلام لا يعارض التقدم المدنى وتطوره وتقدمه ، ولكن يلزم المسلمون لتحقيق هذا التقدم تطوير شؤون حياتهم بالحركة والسعى والحصول على المعرفة ، مع تطويع الجانب المتغير أو القابل للتغير فى الشريعة لحركة العصر وسرعته من أجل تحقيق تقدم صناعى ، وتحقيق عدالة اجتماعية ، وتأمين سعادة الإنسان وأمنه .

لقد بيّن لنا القرآن الكريم ثوابت الإيمان والعبادات وكل التعاليم العقدية ، كما بين لنا التعاليم التنظيمية للحياة ، وتعاليم المقاصد والمعاملات التى تبين التنظيم الفعلى للحياة العملية والتنموية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . . . إلخ حتى ولو كان صاحب الخبرة فيها قد آتاه الله علما لم يؤت لغيره قال ﷺ : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » مع أن هـذا العلـم لا يرفع أصحابـه إلى مرتبة النبوة ، ولـو كانت المعرفة مستجلبة من عند غير المسلمين ،« فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها » ومن ثم فتقبلها ممن حصل عليها واجب عينى لينتفع بها المسلمون .



الملاحق

ملحق رقم (١)
بيان مجمع البحوث الإسلامية
حول رواية (وليمة لأعشاب البحر)

« وردت هذه الرواية إلى مجمع البحوث الإسلامية من مباحث أمن الدولة بتاريخ ٦ / ٥ / ٢٠٠٠ لبيان ما بها من مخالفات شرعية ، وإبداء الرأى نحوها .

كما ورد كتاب من السيد الأستاذ الدكتور رئيس مجلس الشعب بهذا المعنى بتاريخ ١٣ / ٥ / ٢٠٠٠ وقد تم عرض الموضوع على لجنة البحوث الفقهية فكلفت اثنين من أعضائها المتخصصين بكتابة تقريرين منفصلين عن الرواية لعرضهما فى جلسة استثنائية لمجمع البحوث الإسلامية حدد لها يوم الأربعاء ١٧ / ٥ / ٢٠٠٠ وقد تم عرض هذين التقريرين والرواية على المجمع فى جلسته الاستثنائية وتبين ما يلى :

أولا : أن وزارة الثقافة التى نشرت هذه الرواية لم تستطلع رأى الأزهر أو مجمع البحوث الإسلامية مع ما ورد فيها من أمور كثيرة تتصل بالإسلام والعقيدة والشريعة وذلك على خلاف ما يقضى به القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها ولائحته التنفيذية ، والقوانين المتصلة بحماية حق المؤلف ، وتنظيم وزارة الثقافة مما قطعت فيه الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع بمجلس الدولة بفتواها الصادرة بجلسة ٢ / ٢ / ١٩٩٤ ملف رقم ٥٨ / ١ ـ ٦١ من أن الأزهر الشريف هو وحده صاحب الرأى الملزم لوزارة الثقافة فى تقدير الشأن الإسلامى للترخيص أو رفض الترخيص بالمصنفات، وأن شيخ الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية ، وما يتبعه من إدارات هو صاحب الولاية فى فحص المؤلفات والمصنفات التى تتعرض للإسلام لإبداء الرأى فيها .

ثانيا : أن الرواية مليئة بالألفاظ والعبارات التى تحقر وتهين جميع المقدسات الدينية بما فى ذلك ذات الله سبحانه وتعالى، والرسول ﷺ، والقرآن الكريم، واليوم الآخر، والقيم الدينية. ومن ذلك أنها تستهزئ بذات الله مثل وصفه « بأنه فنان فاشل » (ص ٢١٩) و«أنه نسى بعض مخلوقاته من تراكم مشاغله التى لا تحد فى بلاد العرب» (ص ٣٥) و«أنه أقام مملكته الوهمية فى فراغ السموات ليدخل فى خلود ذاته بذاته » (ص ٤٢٦) .

كما يفترى على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنه « تزوج بأكثر من عشرين ما بين شرعية وخليلة ومتعة » (ص ١٤٨) ، و« أنه كان يتزوج من القبائل بغية توحيدها » (ص ٤٢٦ ، ٤٢٧) وأنه حرف فى آيات القرآن الكريم ونسب إليه ما ليس منه كقوله : « والله قال فى كتابه العزيز : إذا بليتم بالمعاصى فاستتروا » (ص ١٤٨) .

كما أن الرواية تحرض على الخروج عن الشريعة الإسلامية، وعدم التمسك بأحكامها بالدعوة إلى ضرورة الانفصال عن « الدين والله والأخلاق والتقاليد والأزمنة الموحلة ، والجنة والجحيم الخرافيين ، وطاعة أولى الأمر والوالدين ، والزواج المبارك بالشرع ، وسائر الأكاذيب والطقوس التى رسمتها دهور الكذب» (ص ٣٤٨) .

ثالثا : أن الرواية خرجت عن الآداب العامة خروجا فادحا بالدعوة إلى الجنس غير المشروع (الزنا) واستعمال الألفاظ (البذيئة) فى الوقاع وأعضائه الجنسية للذكر والأنثى بلا حياء مما يعف اللسان عن ذكرها وكتابة نصها حفاظا على الحياء العام الذى انتهكته الرواية .

رابعا : أن الرواية لم تكتف بذلك ، بل حرضت صراحة على إهانة جميع الحكام العرب ووصفتهم بأقبح الأوصاف وأقذعها ، مما يعف المقام عن ذكرها ، وطالبت بالخروج عليهم والثورة ، ولو بإراقة الدماء .

خامسا :اتضح لمجمع البحوث الإسلامية من كل ما سبق أن ما ورد فى رواية (وليمة لأعشاب البحر) لمؤلفها حيدر حيدر خروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة وينتهك المقدسات الدينية والشرائع السماوية ، والآداب العامة ، والقيم القومية ، ويثير الفتن ، ويزعزع تماسك وحدة الأمة التى هى الركيزة الأساسية لبناء الدولة ، ويضع على عاتق من نشر هذه الرواية دون استطلاع رأى أهل الاختصاص المسؤولية الكاملة عن هذا التجاوز والآثار المترتبة عليه دينيا واجتماعيا ، على النحو الموضح تفضيلا بالتقريرين المقدمين من عضوى مجمع البحوث المشار إليهما » .

والله ولى التوفيق

شيخ الأزهر

أ . د محمد سيد طنطاوى

تحريرا فى ١٣ من صفر ١٤٢١ هـ ـ ١٧ / ٥/ ٢٠٠٠م

ملحق رقم (٢)

محضر اجتماع اللجنة العلمية المشكلة لإعداد تقرير عن رواية « وليمة لأعشاب البحر » (*)

اجتمعت اللجنة العلمية المشكلة بقرار الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة رقم ٥٤ لسنة ٢٠٠٠ لإعداد تقرير عن رواية « وليمة لأعشاب البحر » ، للكاتب السورى حيدر حيدر فى تمام السابعة من مساء الثلاثاء ٩ / ٥ / ٢٠٠٠ م بحضور كل من :

أ.د . عبد القادر القط مقرر اللجنة .

أ.د . صلاح فضل عضوا .

أ.د . كامل زهيرى عضوا .

أ.د . مصطفى مندور عضوا .

د . عماد بدر الدين أبو غازى أمينا للجنة .

وقد اعتذر عن عدم الحضور :

أ.د . أحمد هيكل لمرضه.

وقد استعرضت اللجنة التقارير الفردية المقدمة من أعضائها وتناقشت فيها باستفاضة (مرفق صورة منها) ثم انتهت إلى صياغة تقرير جماعى يعبر عن رؤية اللجنة (مرفق نص التقرير) .

وقد انتهى الاجتماع فى تمام الساعة التاسعة والنصف مساء .

أمين اللجنة	مقرر اللجنة
د . عماد بدر الدين أبو غازى	أ.د . عبد القادر القط

(*) أخبار الأدب فى ١٤ / ٥ / ٢٠٠٠ م .

تقرير اللجنة العلمية عن رواية (وليمة لأعشاب البحر) :

تقدم رواية (وليمة لأعشاب البحر) رؤية مركبة للواقع السياسى المتحرك للتيارات التى ماج بها الوطن العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وتبرز المشاهد الاستهلالية للرواية الروح التى تسيطر على اتجاه المعنى فيها ، حيث تصور وداع مهدى جواد ـ الشخصية المحورية ـ قبل رحيله إلى الجزائر على النحو التالى : « أخت فى لون المرارة وشهقة النحيب ترفع القرآن بيد واليد الآخرى صحنا من الطحين على الكتاب المطهر يضع راحة كفه ، ثم يعبر بخشية وجلال منحنيا بقامته ورأسه تحت قوس الطحين تمتمات وأدعية تنطلق من أعماق السلالة التى تودع طفلها : أقسم بهذا المقدس وبهذه النعمة أن أكون وفيا وألا أنسى فى الغربة البعيدة رائحة البيت والأرض والخبز ، وصلوات الأجداد، والحليب والدم ، وصرخة الحسين وهو يذبح بسيف الشمر » إنه من السلالة النبوية ، على الرغم من أنه أصبح ثوريا شيوعيا وربما حنث بقسمه بعد ذلك .

ولكن قبل أن نمضى فى تدليل القراءة الصحيحة للرواية ينبغى أن نتذكر أن تقييم الأعمال الإبداعية عامة ، والرواية على وجه الخصوص يعتمد على إدراك طبيعة الرواية ، بوصفها تتمثل فى إبداع عالم فنى متخيل ، يحاكى فى قوانينه العالم الكبير اعتمادا على تكوين شخصيات متخيلة ، تنسب إليها أقوال وأفعال خاصة ، ومواقف مماثلة لما يحدث فى الحياة بشكل أو آخر ، وكل العبارات التى ترد فى الأعمال الروائية لا يمكن أن تفهم على وجهها الصحيح منفصلة عن سياقها ، ولا عن طبيعة الشخصيات التى تنطق بها ، ولا التعليقات التى ترد عليها من شخصيات أخرى ، وأى اجتزاء لعبارة من عمل روائى وفهمها خارج سياقها وبعيدا عن شخصية الناطق بها ورد المستمع لها فهو فهم غير سليم . ومن ناحية أخرى فإن وظيفة الأدب الروائى هى نقد الحياة وتعميق الوعى الجمالى بها ، وهذا يقتضى المحافظة على حرية التخيل من ناحية وقوة التعبير الفنى وصدقه من ناحية أخرى .

وأية محاولة لانتقاص حرية التخيل أو إضعاف الصدق تؤدى إلى إضرار بالوظيفة الأدبية الجوهرية .

والرواية تقدم تجربة واسعة لعراقيين يعتنقان الفكر الشيوعى ، ويقاومان مع كثير من عامة الشعب العراقى الحكم العسكرى القائم على العسف والمطاردة والقتل والتعذيب والمحاكمات الصورية أيام حكم انقلاب عسكرى معروف ، وحين لا يجدان

بعد المطاردة والسجن والتعذيب منجى من الموت إلا الهجرة إلى بلد عربي يتوسمان فيه الأمان والترحيب يهاجران إلى الجزائر بعد أن كانت ثورتها قد نجحت وطرد المستعمرون الفرنسيون ، واستولى الوطنيون على الحكم كان مهدى جواد ومهيار الباهلى يأملان أن يجدا شيئا من الطمأنينة النفسية تعيد إليهما الاستقرار فى تلك المدينة الجزائرية الصغيرة «بونة » على ساحل البحر .

لكن الجزائريين كانوا يجتازون حينذاك فترة انتقال يسودها القلق والإحساس بأن السياسيين والانتهازيين قد جنوا ثمار ثورتهم التى ضحى آلاف الشهداء بأرواحهم فى سبيلها، فكان فى نفوسهم كثير من الشك فيما بينهم وكثير من الشك فيمن يفد إليهم من الغرباء .

وهكذا تحول العذاب الجسدى والنفسى الذى لقياه فى العراق إلى قلق دائم وإحساس بالغربة والعجز عن التواصل مع أبناء مهجرهم إلا من خلال علاقات عاطفية شخصية محدودة ، يصفها الراوى بأسلوب شعرى جميل وهو يصور حب مهدى جواد وآسيا الأخضر فى رحاب البحر والطبيعة وصخور الشاطئ وفى مجابهة محفوفة بالمخاطر مع مجتمع المدينة الصغيرة المحافظ ، ورسم الراوى صلة أخرى ذات طبيعة حسية خالصة وإن لم تخل من مشاركة فى ذكريات المقاومة العراقية والثورة الجزائرية بين مهيار الباهلى وفلة العنابية ، وهى امرأة شاركت فى الثورة مشاركة فعالة ثم وجدت نفسها فى النهاية ـ كما وجد كثير من الجزائريين أنفسهم ـ وحيدة منبوذة ، فلم تجد إلا الجنس سلوانا عن هزيمتها .

والمعنى الكلى للرواية يشير إلى قيام حركتين ثوريتين إحداهما شيوعية مجافية للدين فى أهوار العراق ويكون مصيرها الفشل الذريع ، والأخرى ثورية تحررية رفعت القرآن الكريم واعتمدت على الإيمان فانتصرت فى الجزائر كما يقول الراوى: « حين هبط ثوار حرب التحرير الجزائرية من الجبال المصبوغة بالدم كانوا يهللون بتكبيرات عصور الفتح الأول كل مجاهد علق على صدره قرآنا عربيا كان بمثابة الرقية ضد رصاص المستعمر » .

ونلاحظ أن طبيعة الشخصيات التى تتحرك فى الرواية على قدر كبير من القلق والتوتر العصبى ، يجعل أحاديثها أحيانا تبدو متجاوزة للمألوف ، وقد يجد فيها القارئ غير المتمرس بقراءة الأعمال الإبداعية إسرافا فى المرارة والحدة ، لكنه عندما ينسبها إلى

طبيعة الشخصية ويستحضر الموقف فى جملته يتبين أنها تعبر عن لحظة بعينها وتصبح ضرورية من الوجهة الفنية لتصوير الموقف .

ومن هنا فإن ما نسب إلى الرواية من بعض العبارات التى يبدو فى الظاهر أنها يمكن أن تمس شعور القارئ غير المدرب لما يظن أنه مساس بالدين أو طعن فى القرآن الكريم أو تعريض بحياة الرسول ﷺ فهو من قبيل سوء فهم الفن الروائى وتحريف عباراته وانتزاعها من سياقها وتجاهل ما يرد فى النص ذاته من رد عليها من شخصيات مخالفة ، والمشاهد المشار إليها على وجه التحديد هى ما يلى :

أولا : ما ورد فى صفحة ١٢٨ ، ١٢٩ من الطبعة المصرية على لسان الشيوعى الهارب « مهيار الباهلى » فى صور نقد ادعاء حكومة الرئيس بومدين تبرير التأميمات الاشتراكية بأنها من الإسلام ، حيث تقول الشخصية المتخيلة فى حوارها مع الآخرين :

« التأميم ليس الاشتراكية ، وهذا الذى يحدث ليس أكثر من ترقيع مزيف لا يمحو الاستلاب الجوهرى للإنسان، اشتراكية بروح العلم لا بروح الدين هذا ما ينبغى أن يكون. . . الوعى العميق بالتاريخ غائب،وهؤلاء يهمشون التاريخ ويعيدونه مليون عام إلى الوراء. . . فى عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجر ، يحكموننا بقوانين آلهة البدو وتعاليم القرآن . . . خراء » ثم تتابع الرواية على الفور شرح رد فعل الشخصية الثانية « كان مهدى جواد يتملى البحر من خلال الزجاج المغبش مراقبا الدوران الأبله لطيور النورس . . . ولكى يبعد عن رأسه طنين الكلمات الضخمة التى يطلقها عقل السيد الباهلى الملتاث كان يسلسل العنان لخياله » .

وبقراءة هذا المشهد يتضح أنه يعبر عن موقفين لشخصيتين تنتميان إلى الحزب الشيوعى إحداهما تنقد تجربة الجزائر فى التأميمات باسم الدين والقرآن ، وتؤكد على الجانب اللا دينى ، وتصف التجربة بأنها خراء ، والآخر ـ وهو شيوعى أيضا ـ لا يقبل كلامه ويحكم عليه بأنه ملتاث العقل وعندئذ لابد لنا من ملاحظة ما يلى :

١ ـ نسبة هذه الأقوال إلى الرواية والمؤلف غير صحيحة ؛ لأنها تصدر عن شخصية متخيلة ، تناسب معتقدها ، وهى فى منظور شخصية أخرى نوع من لوثة العقل .

٢ ـ إلغاء النقطة التى جاءت بعد لفظة القرآن والقول بأن الوصف البذىء الذى جاء عقبها ينصب على كلمة القرآن فيه تحريض مقصود ، وإساءة واضحة لتهييج

المشاعر الدينية ،وهو مخالف لأمانة النقل، يترتب عليه تغيير للمعنى واختلاف الدلالة ؛لأن ما يوصف بأنه خراء هو الحكم السياسي بتبريرات دينية.

٣ ـ إهمال الإشارة إلى رد فعل الشخصية المقابلة واعتبار كلامها لوثة عقل مختل يصبح من قبيل : لا تقربوا الصلاة .

على أنه من المعروف ـ حتى فى الكتابة غير الأدبية ـ أن من يروى الكفر ليس بكافر، والقرآن الكريم ملىء بأقوال الملحدين والكفار الواردة فى سياق الرد عليه وتفنيدها ولا ينتظر من الأعمال الإبداعية سوى أمرين :

ـ أن تكون الأقوال ملائمة لطبيعة الشخصية التى تنطقها ، وهذا متحقق .

ـ أن تكون الدلالة الكلية للعمل مغايرة لهذا المنظور الجزئى .

والقراءة الكاملة للنص الروائى تشهد بورود عشرات العبارات الأخرى التى تعلى من شأن التجربة الدينية التى أدت إلى انتصار ثورة الجزائر،وتؤكد شعور التقديس المهيمن على بقية الشخوص تجاه القرآن الكريم واحترام التربية الإسلامية والتنديد بالاستعمار الأجنبى،ومنها وصية الشهيد الجزائرى ـ والد الفتاة التى تلعب دور البطولة ـ لزوجته : « ربيهم تربية تليق بنا كمسلمين نحن نقاتل حتى لا يلوث الاستعمار شرفنا ، ومن لا يحافظ على بيته لا يحافظ على وطنه » (ص ٦٤) .

ويقول مهيار الباهلى ـ أحد الشخصيتين الرئيسيتين :« الفلاحون شجرة الثورة ووقودها هم الذين أبقوا الجذوة متقدة حتى النصر هؤلاء هم البحر ونحن السمك الآن نحن بينهم كما كان رسولنا محمد مع المهاجرين والأنصار » .

وحينما تقول آسيا عن المستعمرين الفرنسيين : « غرسوا فى ذاكرتنا أن المسلمين والعرب كانوا غزاة فاتحين ، كانوا يؤكدون لنا أن القرآن مأخوذ عن الإنجيل والتوراة ، واللغة العربية لغة دين وشعر لا لغة علم ، وهذا هو سبب تخلف العرب فى العلوم والحضارة الحديثة » ويرد عليها صديقها مهدى بقوله : « هذا طبيعى ، إنهم منطقيون ومنسجمون مع غاياتهم ، الاستعمار فى النهاية ليس العنف وحده ، بل التزوير والاستلاب والقطيعة مع الجماعة » .

ثانيا : ما جاء فى صفحة ١٤٨ من الحوار التالى الذى يدور بين مهدى جواد مدرس اللغة العربية والحاج محمد ـ صاحب المنزل الذى يسكن فيه ـ عقب نقاش حاد اتهم فيه

الحاج محمد المدرس بالفاحشة لمجرد أنه كان يعطى درسا لتلميذة لديه ، وشرع فى طرده ليسكن مكانه شخص فرنسى سوف يضاعف له الأجر ، ويأتى الحوار هكذا :

« فاجأه مهدى هازئا : عمى الحاج بصلاة محمد على رأسك ، هل أحببت فى حياتك ؟

وقال الحاج : واحدة واحدة على سنة الله ورسوله .

ـ طبعا تزوجتها

ـ أكيد

ـ ولكن الله قال : انكحوا ما طاب لكم ورسولنا المعظم كان مثالنا جميعا ، ونحن على سنته لقد تزوج أكثر من عشرين امرأة ، بين شرعية وخليلة ومتعة ،وكان صلوات الله عليه وسلم يقول : (تناسلوا تناسلوا فإنى مفاخر بكم الأمم).

استبد الغضب بالحاج : الرسول تزوج حسب الشريعة أما أنتم فتريدونها شيوعية والله تعالى قال فى كتابه العزيز:« إذا بليتم بالمعاصى فاستتروا ». وهذا المشهد يدور بين شخصيتين متخيلتين، إحداهما مدرس غريب يتعرض للطرد من مسكنه ، بحجة خروجه على الأخلاق وقد كان ملتزما بها حتى هذا المشهد ، بينما يكمن السبب الحقيقى فى الرغبة فى مضاعفة الكسب ولو بالتعامل مع بقايا الاستعمار الفرنسى ،والطرف الثانى يتذرع بالدين وهو جاهل به ، والشيوعى لم يخطئ فى نسبة الآية الكريمة « انكحوا ما طاب لكم » ، ولكن الحاج الجاهل نسب إلى القرآن ما ليس فيه ، وهنا تكمن المفارقة القصصية وكل منهما يعبر عن رأيه وموقفه ، وتذرع المدرس بفعل الرسول ﷺ لا يقصد به الطعن عليه فى هذا الموقف ، بل يحاول أن يستند إلى حجة دينية فى خطابه للحاج الذى يظهر التدين ، ولا يمكن عند القراءة الأدبية للنص فى جملته أن نستشعر رغبة المساس بشخصية الرسول فهى ترد بوصف المعظم ،وإن كانت تبالغ فى عدد نسائه، ورد فعل الحاج الغاضب عليها تعديل للمعنى ونسبته إلى الفكر الشيوعى لمحاوره .

أما المشهد الثالث هو غزلى عابث ، يدور بين مهدى جواد ، المدرس الشيوعى وتلميذته التى تتحول إلى عاشقة ويمضى هكذا :

« تجذبه آسيا من شعره فيلتقى بصراهما ،أنت لى، هاه ، عليك أن تفهم ذلك منذ

الليلة ، ويضحك،أنفها الكبير المفلطح يواجهه ،يقرص أنفها ،لكن أنفك هذا سيعترض مستقبلنا .

ـ هو من صنع ربى ، لماذا تسخر منه .

ـ لابد أن ربك فنان فاشل إذن ».

ونلاحظ على هذا المشهد ثلاثة أمور :

أولها :أنه يأتى على سبيل الدعابة وروح الفكاهة،فى لحظة غزلية بعيدة عن الجد ، ومن شأن الأدب فى هذه المواقف أن يتظرف بعبارات غير لائقة تأتى على لسان الشخصيات الملائمة لها .

ثانيها : أن الفتاة تحاول التخلص من عيبها الخلقى فى فلطحة الأنف بنسبته إلى ربها على الطريقة الجزائرية فى العامية الدارجة ، وهو يلتقط منها الخيط ليدين تصورها لربها لا ربه هو ولا الذات الإلهية .

ثالثها : أن موقف القراء من مثل هذه العبارات يتوقف على مدى شعورهم بالحرج والتحفظ أو الاكتفاء بادانة الشخصية المتخيلة فى سوء تعبيرها . ولا يمكن أن يلغى مثل هذا النزق التعبيرى عشرات العبارات والمشاهد الأخرى بروح الاحترام والتقديس للدين، فالحياة مفعمة بالجانبين ، وعندما يتصدى الأدب لنقدها ، ويجعلنا نشعر بالتحرج منها ، يكون قد قام بوظيفته فى انفتاح وعينا بالمخالفين لنا وتشكيل خبرتنا بالكون والوجود .

لهذا فإن إعادة نشر هذه الرواية لا يمكن أن يعد مساساً بالدين ولا يجوز محاكمتها، من منظور غير أدبى ، وما قيل عنها فيه تجن كبير عليها وتحريف لمواضعها ، وتجاهل لقيمتها الفنية المتميزة .

ملحق رقم (٣) (*)
دور الأزهر فى الرقابة على النشر

اختلفت الآراء حول الدور المخول للأزهر الشريف فى الرقابة على الكتب التى تنشرها وزارة الثقافة وما إذا كان رأى الأزهر فيها ملزما أو غير ملزم وقد استندت الآراء المؤيدة لتدخل الأزهر والمعارضة له ، إلى القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ، وإلى الفتوى التى أصدرتهـا الجمعيـة العمومية لقسمى الفتوى والتشريع عـام ١٩٩٤ .

حـول الموضوع نفسـه «صوت الأزهر » توجهت إلى واحد من أعمدة الفكر والقضاء فى مصر لاستجلاء الإطار القانونى الذى يحكم العلاقة بين الأزهر الشريف والمنشورات والمصنفات التى تصدرها وزارة الثقافة وهيئاتها الرسمية وفى هذا الحوار يجيب المستشار طارق البشرى عن الأسئلة القانونية التى أثارتها الأزمة الأخيرة ،ويوضح ما غمض منها مستعينا بعقل المفكر المبدع ، وضمير القاضى معا .

ثمة بعـد قانونى فـى الخلاف الذى أثير أخيراً حـول رواية « وليمة لأعشاب البحر » لسنا معنيين الآن بالرواية المشؤومة وما ثار حولها ، فهذا حدث ـ مهما كانت جلبته ـ عارض وإلى زوال، ولكننا معنيون بالتأكيد بما أسفرت عنه هذه الضجة وخصوصا ما قيل عن دور الأزهر فى مراقبة ما ينشر عن جهات رسمية من كتب ومصنفات سمعية وبصرية، والحديث فى هذا الصدد يشير إلى القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ وإلى فتوى الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع التى ترأستها لمدة ٥ سنوات وصدرت الفتوى فى عهد رياستك لها .

نريد أن نستجلى حقيقة الوضع القانونى فى هذ المسألة ؟

أحب ـ **أولاً** ـ أن أشير إلى أن أحد الاختصاصات الأصلية للجمعية الواردة فى قانون الدولة منذ سنة ١٩٤٦ ، وفى كل التعديلات التى عدل بها هذا القانون حتى الآن تفصل برأى ملزم فى الخلافات والنزاعات التى تنشأ بين الهيئات الرسمية والوزارات والمصالح والهيـئات العامـة المختلفـة ؛ لأن القانـون يـرى فـى التنظيـم الإدارى العـام

(*) صوت الأزهر فى ٢٩ صفر ١٤٢١هـ ـ ٢ / ٦ / ٢٠٠٠ م .

والدستورى للدولة أنه يمكن أن يقوم خلاف أو نزاع بين هيئتين رسميتين وهذا النزاع لا ينبغى أن يصل إلى القضاء؛ لأنه فى النهاية نزاع داخلى بين هيئات الدولة وسلطاتها .

والجمعية العمومية للفتوى والتشريع هى قاضى هذه المنازعات ، والقانون يعبر عن هذا بأنها تصدر فيها رأيا ملزما حتى لو كان خلافا يدور حول اعتمادات مالية معينة بين وزارة ووزارة أو هيئة رسمية وأخرى ، وأحد مجالات الخلاف بين الهيئات الرسمية بعضها وبعض يكون عادة حين تتداخل الاختصاصات بين هذه الهيئات أو يغمض الفاصل بين اختصاصات جهة ما وجهة أخرى ، وحول حدود العلاقة بين هذ الجهات بعضها وبعض ، فلمجلس الدولة اختصاص أصيل فى هذا الأمر .

النقطة الثانية: أن هذا الاختصاص يمارسه مجلس الدولة والجمعية العمومية منذ إنشائها حتى اليوم (٥٥ سنة) وفى حدود معرفتى وتجربتى الشخصية واطلاعاتى لم ألحظ قط أن خلافًا من هذه الخلافات أو رأيا من هذه الآراء جاءته إحدى الجهات الرسمية وطرحتها على الصحافة وجعلتها قضية رأى عام،وأثارت عددا من الكتاب ليتبنوا الحديث عنها ويشككوا فى الجهات الرسمية الأخرى ومدى صلاحيتها لممارسة اختصاصاتها ،ويطعنوا بكفاءتها ،ويرموها بالجمود وعدم القدرة على القيام بوظائفها .

ولم ألحظ قط أن جهة من هذه الجهات طعنت فى مصداقية الفتاوى التى تصدرها الجمعية العمومية للفتوى والتشريع وفى صحتها وفى دوافعها ،وحاولت أن تحور الرأى المبدى إلى موقف شخصى وذاتى ، لم يحدث هذا فى علمى قط إلا فى هذ الحالة الأخيرة التى تتعلق بمدى الدور الذى يقوم به الأزهر الشريف فى تقدير الشأن الإسلامى بالنسبة للقرارات التى تصدر من الجهات الرسمية المتعلقة ،وأولها طبعا وزراة الثقافة التى طلب الرأى بشأنها فى هذا الأمر .

أستاذ طارق ، الخلاف الدائر ليس حول مجافاة الفتوى لحرية الإبداع أو تناسقها معها.الخلاف حول نطاق الفتوى،فهى تخص المصنفات السمعية والبصرية لا كتب الفكر والإبداع ؟

هناك طلب إفتاء صدر من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ليتبين دور الأزهر فيما يتعلق بالشؤون الإسلامية ودوره فى إبداء رأيه ، ومدى أهمية هذا الرأى من الناحية القانونية بالنسبة لما يصدر من مصنفات ، وكان طلب الرأى يتعلق بالذات بالمصنفات السمعية والسمعية البصرية ، وهى منظمة بقانون من قوانين الدولة ويعطى الترخيص بها

أو عدم الترخيص لوزارة الثقافة وهو القانون ٣٥٤ لسنة ١٩٥٤ والقانون ٤٣٠ لسنة ١٩٥٥ وعدل القانونان بقانون رقم ٣٨ لسنة ١٩٩٢ وورد السؤال بعد صدور هذا التعديل الأخير .

الترخيص يصدر عن وزارة الثقافة ولها أن ترفض الترخيص ؛ لحماية النظام العام والأداء ومصالح الدولة العليا ، هكذا قال القانون فجهة الرقابة هى وزارة الثقافة ، وأى كلام يوجه إلى حرية الرأى والإبداع أو الحق فى التعبير والمساس بالحريات العامة أو الدستورية أى كلام فى هذا الشأن يجب أن يوجه إلى وزارة الثقافة وليس لغيرها ، ولذلك يكون عجبًا أن يترك المبدأ الخاص لتقدير القيد على هذه الحريات وهو القيد المعطى لوزارة الثقافة لتناقش دور الأزهر ومدى إلزام تقديره لوزارة الثقافة فى إعمال هذه السلطة بالنسبة للشؤون الإسلامية .

فقد ترك القانون الخاص بفرض الرقابة لم يعترض عليه معترض، وأمسكوا بتلابيب الفتوى كيف تعطى للأزهر إمكانية المشاركة فى الترخيص أو عدم الترخيص .

تركت وزارة الثقافة صاحبة القرار وطعن فى الأزهر المشارك فى القرار لتوفير أحد عناصره فيما يتعلق بالشؤون الإسلامية ، وهذه كانت مفارقة غريبة لازمت أغلب التعقيبات التى نشرت فى الصحف وقيلت فى المؤتمرات التى انعقدت فى هذا الشأن .

أقول المؤتمرات؛ لأنه بعد أن صدرت الفتوى من مجلس الدولة فى هذا الأمر وكانت فى ٢ فبراير سنة ١٩٩٤ عقدت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان مؤتمرين فى جلستين متتابعتين فى يوم ٨ و٩ مارس سنة ١٩٩٤ وقال الداعون إليها: إن الفتوى جاءت بالمخالفة لنصوص الدستور التى تقرر حرية التعبير ، وأنها لم تحدد طبيعة التزام وزارة الثقافة برأى الأزهر إلى غير ذلك مما ورد فى هذين المؤتمرين اللذين نشرا فى كتاب أصدرته المنظمة بعد ذلك .

وشبهة المخالفة ـ وإن كانت هناك شبهة لمخالفة الدستور فهى تتعلق بالقانون وليس بالفتوى ـ تتعلق بوزارة الثقافة وليس بالأزهر؛ لأن دور الأزهر دور مشارك فقط حسبما ذكرت الفتوى .

وقد حضر هذين الاجتماعين بعض من كبار المسؤولين فى وزارة الثقافة وأداروا الحوار بشأنه ومنهم مدير هيئة الرقابة على المصنفات الفنية الذى يعتبر عمله فى ذاته هو ما

يتعين النظر إليه فى إطار الدستور وليس دور الأزهر ، وكان هؤلاء السادة الأجلاء فى هذين المؤتمرين هم الموجبون للنقاش حول مخالفة الفتوى للدستور وحقوق الإنسان؛ لأنها تفرض وصاية على الفكر ،فالوصاية لا تطبقها إلا وزارة الثقافة فى هذا الشأن،وكان كل ما جرى فى الفتوى أن وزارة الثقافة بإعمالها لسلطتها المخولة لها بالقانون بالترخيص ، أو عدم الترخيص بالمصنفات السمعية والبصرية يكون رأى الأزهر ملزما لها إن كان الأمر يتعلق بشأن من الشؤون الإسلامية .

ومن جهة أخرى فنحن نعرف أن الدولة وأجهزتها الإدارية والرسمية المختلفة تتوزع وفقا لاختصاصات وتخصصات بعضها فيما يتعلق بجوانب من المعرفة ، وتتخصص فيها من حيث العلم والخبرة ، وبعضها وظيفى يتعلق بنوع الخدمة المؤداة ، وبعضها إقليمى يتعرض للنطاق الجغرافى ، وفى كل هذا تحدث تداخلات بين الاختصاصات أحيانا تحتاج إلى من يوضحها .

ومن ضمن أساليب الإدارة المعروفة والمقررة ما نسميه بالقرار الإدارى المركب فى مواجهة القرار الإدراى البسيط،القرار البسيط هو قرار يصدره شخص معين أو جهة معينة يخولها القانون إصدار هذا القرار بعد الدراسات وإدراك النفع فى تطبيقه ، والقرار المركب هو قرار لا يصدر من جهة واحدة وإنما تتداوله فى التشيىء والتخليق عدة جهات لكل منها إرادتها المتميزة التى تصدر عنها ، وعندما تلتقى هذه الإرادات جميعا يتوج العمل بقرار يصدر من جهة منها بعد استيفاء كل الظواهر السابقة .

وهـذه أمـور مقررة فـى نظم الإدارة مـن جهة وفـى فقـه القانون الإدارى من جهة أخرى ونتعامل بها فى عملنا الفنى ، والفتوى التى صدرت من قبل حول دور الأزهر الشريف بالنسبة للترخيص أو عدم الترخيص بالمصنفات صدرت فى إطار هذا الفهم العلمى والفقهى لأوضاع تنظيم الإدارات العامة وأساليب اتخاذ القرارات بشأنها ، ولكن كثيرا من المناقشين لم يدركوا أبدا مثل هذه الجوانب العلمية .

وكذلك فإن كل قرار يصدر بشأن الترخيص أو عدم الترخيص أو الموافقة أو الرفض فيما يتعلق بالأنشطة المرفقية الجارية ، كل قرار من هذه القرارت إنما يتكون من الناحية الفقهية مـن عـدة أركـان ، وطلبـة كليـة الحقـوق يدرسون مـن أركان القرار الإدارى ركن السبب ، وهى الوقائع المختصة الثابتة التى صدر القرار ليواجهها تثبيتا لها إن كانت نافعة أو نفيا لها إن كانت ضارة .

وكذلك ركن الغاية وهو توخى المصلحة العامة فى الإجراء وفى القرار الذى يتخذ، ومن جهة أخرى فإن القانون عندما ينص على أن الترخيص أو عدم الترخيص بالمصنف الفنى إنما يصدر بناء على ما رؤى من موافقة ومفارقة للنظام العام والآداب ومصلحة الدولة العليا فقد حدد بذلك وجوه المصالح العامة التى هى ركن الغاية فى القرار الإدارى ، والنظام العام مفهوم قانونى والتعريفات بالنسبة له تجعله دائما من ضمن المفاهيم المرنة التى تختلف باختلاف الزمان والمكان ؛ لأنه نافذة من النوافذ الأساسية التى تصل ما بين النظام القانونى المحكم والواقع المعيشى ، وتجعل القانون دائما على اتصال ببيئة الواقع وأوضاعه الثقافية والحضارية .

ولذلك فإن الذين يتكلمون عما يقال من أن الشؤون الإسلامية غير منضبطة . المفهوم هنا واسع ومرن ويتقبل قدرا من وجهات النظر ،ومفروض أن يكون كذلك حتى لا يغلق القانون عن مسايرة مصالح الواقع المعيشى وما يجد عليه من مصالح وظروف .

وكل ما صنعته الفتوى فى هذا الأمر أنها استندت إلى مفهوم النظام العام الوارد فى القانون كواحد من أسباب الترخيص أو عدم الترخيص بشأن المصنفات ، ثم تساءلت إذا كان الإسلام يعبر عن النظام العام أم لا .

وما من مواطن فى مصر أو فى غيرها يختلف فى أن الإسلام هو من النظام العام ثقافة وحضارة واتباع سلوك إن لم يكن عقيدة ودينًا ،ومع ذلك فإن الفتوى لم تكتف بهذا الشعور العام لتبنى حكمها إنما عادت إلى الفتاوى السابقة وتابعت الدساتير المختلفة التى عرفتها مصر،وهى دساتير وضعية كلها وكلها تتضمن أن دين الدولة الإسلام واستفادت من وجود النص فى الدستور ، ومن تتابع ذكره فى الدساتير المختلفة ، رغم ما بينها من اختلافات جوهرية فى أنظمة الحكم والنظم السياسية والاجتماعية .استفادت من حقيقة نصية ووضعية أن الإسلام مكون أساسى من مكونات الجماعة وهو يتخلل بالنظام العام.

وإذا كان الإسلام هذه هى صلته للنظام العام، فمن الذى يعتد برأيه فى مدى الاتفاق أو عدم الاتفاق مع الإسلام فى الأعمال التى تتعرض للشؤون الإسلامية ؟ هنا أيضا الفتوى استعادت منهجها التاريخى فى البحث وعرضت للقوانين التى نظمت الجامع الأزهر والمعاهد الدينية منذ أول قانون صدر فى هذا الشأن بتنظيم شامل وهو القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ ثم القوانين التى تلته حتى القانون رقم ١٠٣ لسنة ٦١ السارى تطبيقه الآن.

وكل هذه القوانين تنص على أن الأزهر قائم على حفظ الشريعة الغراء وفهم علومها ونشرها ،وأن شيخ الجامع الأزهر هو الإمام الأكبر لجميع علماء الدين والرئيس العام للتعليم ، فالأمر الخاص بحفظ الشريعة الغراء يتردد فى القوانين الوضعية التى نظمت الأزهر بوصفة مؤسسة رسمية ينظمها القانون،والقانون الأخير رقم١٠٣ لسنة ٦١ نص على أنه هو الهيئة العلمية الإسلامية الكبرى التى تقوم على حفظ التراث ورسالته وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب ، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره . هذا هو موقف التشريع الوضعى الذى بنى هياكل الدولة الحديثة ومؤسساتها بالنسبة للأزهر ووظيفته ودوره بين المؤسسات الأخرى .

واللائحة التنفيذية للقانون تجعل من واجبات مجمع البحوث الإسلامية تتبع ما ينشر عن الإسلام والتراث الإسلامى وإبداء الرأى الصحيح بشأنه ومواجهته بالتصحيح والرد.

لذلك فالفتوى قالت : إن مجمع البحوث الإسلامية هو من له التصدى للمؤلفات والمصنفات التى تتعرض للإسلام ، وإبداء الرأى فيها ، وهو صاحب التقدير فيما يتعلق بالشؤون الإسلامية .

وعندما تعطى هذه الوظائف والاختصاصات لجهة ما فهو يكون الخبير الأول ، وصاحب الرأى والتقدير الأول فيما يتعلق بالشؤون الإسلامية بالنسبة لكل ما تمارسه الدولة من سلطات ومن أنواع أنشطة ، ويكون الإسلام عنصرا من هذه الأنشطة ؛لأنه جهة صاحبة اختصاص فى التقدير فى هذا الشأن ،وإذا كانت الفتوى انتهت إلى الحديث فقط عن المصنفات ؛ فلأن هذه المصنفات كانت هى محل السؤال ،وفى العمل الإفتائى والقضائى جرى الاعتياد على أن منظومة الفتوى أو منطوق الحكم لا يجاوز حدود طلب الرأى المطلوب، لكن الأسباب التى بنيت عليها الفتوى تفيد أن اختصاص الأزهر فى هذا الشأن بأنه هو من يقدم المشورة لأى من أجهزة الدولة عندما تمارس أى سلطة من سلطاتها أو أى نشاط من أنشطتها إن كانت ممارسة هذه السلطة أو هذا النشاط مما يدخل فيه أمر متعلق بالشؤون الإسلامية ، وبتقدير وجه الصواب فى الرأى وفيما تسعه أحكام الإسلام أو لا تسعه .

لكننا سنلاحظ ، وفق ما ذكرته سيادتكم الآن ، أن القانون ١٠٣ يختص بالكتب الإسلامية والتراثية ، والفتوى تتصل بالمصنفات السمعية والبصرية فأى منهما لم يتحدث

عن كتب الفكر والإبداع ؟

هذا أمر يحتاج إلى توضيح . . . الأزهر لن يبدى رأيه فى الجانب الروائى ولكن إذا تعلق الأمر بالإسلام فله أن يبدى رأيه فى هذه النقطة يعنى أن يكون هذا الحديث خارجا عن الإسلام أم لا؟ مسيئا للإسلام أم لا ؟ فهذا، أمر يتعلق بالشؤون الإسلامية.

هناك وظيفتان تتعلقان بهذا الأمر ، المتخصصون فى الأدب من نقاد ومتذوقين وممارسين للتذوق فى هذه الأعمال لهم مجالهم فى التعليق،واستخراج الدلالات الخاصة بما يرد فى القصة من أقوال وأعمال وسلوكيات وللأزهر دوره فى تبيين مدى ما فى الدلالات المستخلصة من القصة أو الرواية من خروج أو التزام للأسس العامة للإسلام.

والأمر فى القصة المطروحة أن التفرقة لا تدق بشأنها ؛لأن ما ورد فى العمل هى عبارات فيها نوع من السب البواح ، أو نوع من التهجم على الذات الإلهية أو المقدسات التى لا يختلف بشأنها مثل مقام النبوة والقرآن الكريم ، وقد قيل فى الدفاع عن القصة: إن الشخصية المرسومة تفرض نفسها على المؤلف ؛ وهو فى رسمه لها لا يستطيع فكاكًا من أن يصدر بعض ألفاظ أو يصور بعض سلوكيات قد تتأذى منها النفس المؤمنة ، وأنه لا يجب أن يوضع قيد على المؤلف فى أن يستخدم ما يشاء من العبارات ويصور ما يشاء من السلوكيات للتعبير عن شخصياته الروائية .

وأنا بفهمى المتواضع للقصص والروايات وفى حدود اطلاعى ـ وكان قديما اطلاعا واسعا إلى حد ما ـ أستطيع أن أقول :إن كاتب الرواية لديه قدرة من البدائل التعبيرية عندما يريد أن يعبر عن شخصية معينة ،وأن لفظا بعينه أو سلوكا بعينه ليس أمرا لازما بالنسبة لتصوير الشخصية ، ودليلى على هذا من القصة محل الخلاف الآن ، أن الكاتب وهو شيوعى سورى ينتقد الحكم القومى آثر أن يجعل البطل شيوعيا عراقيا ينتقد الحكم فى العراق وليس فى سوريا ، أليس هذا نوعًا من البدائل التى تطرح على الكاتب إذا سرنا وراء الظن الذى استولد من قراءة الرواية أن البطل إنما يعبر فى كثير من أقواله وآرائه عن تجربة المؤلف ، ودليل آخر أيضا أنه عندما أراد أن يتعرض بالنقد لواحد من ملوك العرب ، أشار إليه دون أن يعينه .

ودليل أكثر من هذا كله ـ بعد ذلك ـ أن المؤلف نفسه فى حديثه لمجلة المصور فى العدد السابق أشار فى معرض بيان حسن مقاصده إلى أنه كتب هذه القصة وفى ذهنه القارئ السورى ،وقال:لو كنت فى مصر لغيرت هذه المفردات ،بمعنى أنه يستطيع أن

يغير مفردات فى قصته دون أن يعتبر هذا مسيئا إلى وضعها الفنى ولا إلى رسمه لشخصياتها ، فكيف يتأتى للمدافعين عنه أن يقولوا خلاف ما ذهب إليه هو فى حديثه؟!

نحن لا نقول: إن الأزهر يتدخل فى العمل الأدبى من نواحيه الفنية ، لكن إذا اتصل العمل الفنى بالشؤون الإسلامية فهذا مجال من المجالات الأساسية التى يبدى الرأى فيها ، وهو يجب هنا تماما إذا كان الأمر عاما أو لجهة من الجهات إذا كان الأمر يتعلق بجانب من أنشطتها .

لكن هناك مخاوف طرحها من يطالبون بإقصاء الأزهر عن إبداء رأيه فى الإبداع الأدبى ، من أن القراءة الدينية ستحجم المبدعين وتجور على فكرهم ؟

أدرك هذه المخاوف التى ترى أن النظر فى الشأن الدينى فى العمل الفنى قد يتوغل إلى حد يغادر به ويجاوز به هذا الشأن الدينى ويتوغل فى فنيات العمل .

هذا الاحتمال قائم ولكن لا يعالج بشل يد الأزهر عن إبداء الرأى ، ولكن يعالج فى كل حالة على حدة بالأخذ والعطاء وبالنقاش والحوار وبإطلاق الفكر وبضبط أنواع الممارسة .

نحن نعطى للقاضى أن يحكم فى النزاعات بين الناس ونحن نعرف أن احتمال خطأ القاضى وارد وعدم تبينه للحقيقة وارد ونعالج ذلك بتعدد درجات التقاضى ،وبالمناقشة الهادئة الوقورة ، وبمحاولة معالجتها عبر القنوات المختلفة .

ونحن هنا يتعين أن نطرح جانبًا أن هذه النقطة نقطة خصام بين مؤسسات رسمية أو بين آراء متعلقة بأقوال متناقشين كل يحاول أن يفرض رأيه على الآخر .

إنما فقط حوار وجدل بين وجهات نظر متعددة فى النظر إلى الأعمال الفنية والأدبية، واختلاف حول تبين الحدود الضابطة للأوضاع العامة بالنسبة لعناصر الشعب كله ، ونتعاون فى ذلك من أجل عدم المساس بحرية الفكر فى إطار المرجعيات الشرعية السائدة والعقائد الأساسية التى تحكم المجتمع وأسس قيام الجماعة فيه .

هل يكون رأى الأزهر فى هذه الحالة ملزما للجهة التى طلبت الرأى أو حتى بحكم القانون ؟

نحن نقول: إن الحكم ملزم بمعنى معين بأنه فردى ،ويصدر فى دعوى فردية وينفذ بالقوة الجبرية عند الضرورة ،والموظف الذى يمتنع عن تنفيذه يعرض نفسه لعقوبة الحبس

فى جريمة عدم تنفيذ أحكام ،ولكن كل ذلك فى إطار الحق الفردى الذى قضى به الحكم لفلان على فلان ، إنما ما اشتمله الحكم من مبادئ فى تفسير القانون فهذا يعتبر فى حكم الإفتاء أى بيان وجه الرأى الصحيح فى فهم القانون .

والفتوى قد تصدر فى حالة شخصية محددة ، ولكنها تصدر لصاحب القرار الذى يتعين أن يصدر القرار وفقا له ، والفتوى فيما تفسره من نصوص القانون وفيما توضحه من أحكامه تعتبر بيانا لحكم القانون ، والمفتى لا يأتى بحكم من عنده ، وإنما يوضح ما غمض من أحكام القانون وما ثار من خلاف حوله ـ فوجه الإلزام فى الفتوى يصدر عن أن القانون ملزم تطبقه المحاكم وتطبقه الدولة بأجهزتها المختلفة ، والقانون ملزم لجهات الإدارة ولأجهزة الدولة بمعنى أن أى جهة رسمية إذا تصرفت على خلاف حكم القانون يكون تصرفها معرضا للقضاء بإبطاله والتعويض عنه أيضا إن كان هناك محل للتعويض ، فوجه الإلزام فى القانون يختلف عن الإلزام بالنسبة للمحكمة ، ووجه الإلزام بالنسبة للفتوى أنها بينت ما فى القانون .

ووجه إلزام الفتوى لأجهزة الدولة يصدر عن ذلك أى أن أجهزة الدولة إن خالفت الفتوى تكون خالفت مقتضى القانون وعرضت تصرفها للإبطال أمام المحاكم ، وتبقى نقطة أخيرة أنه بالنسبة للخلاف والنزاعات التى تقوم بين الجهات الرسمية فإن فتاوى الجمعية العمومية للفتوى والتشريع تكون ملزمة للجهة التى صدرت الفتوى على خلاف رأيها ، وعليها أن تلتزم برأى الجمعية ، ومخالفة الحكم القانونى الملزم سواء كان نصا صريحا أو تفسيرا واضحا تبنته الفتاوى والأحكام هذه المخالفة تعرض صاحبها للمساءلة القانونية إن جاز ،كما تعرضه أيضا للمساءلة السياسية والإدارية ؛لأن الموظف العام ملزم بتطبيق القانون ، ومخالفته للقانون تعرضه للحساب .

وأشير هنا إلى المجموعة الرسمية الصادرة عن مجلس الدولة بشأن فتاوى الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع ،والتى صدرت عام ١٩٩١ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وتضمنت الفتوى التى نتحدث عنها ، وهى تلخص المبادئ الخاصة لها ثم تأتى بنصها وجاء فيها :

« سلطة تقدير الشأن الإسلامى من ولايات الأزهر ، إبداء الرأى بواسطة هيئاته فى تقدير هذا الشأن الإسلامى يكون ملزما للجهات التى نيط بها إصدار القرار » .

ملحق رقم (٤)

رد فضيلة الإمام الأكبر على أسئلة أحمد عبد المعطى حجازى (*)

هل فى الإسلام دولة دينية ؟

إذا كان المقصود بالدولة الدينية دولة يحكمها رجال الدين ، ثم يقتلون ويظلمون باسم الدين ، كما حدث فى محاكم التفتيش بأوربا فى القرون الوسطى ، فلا يوجد فى جميع مراحل التاريخ الإسلامى دولة بهذه الصفة .

أما إذا كان المقصود بالدولة الدينية ، دولة تحترم أحكام الدين الإسلامى وآدابه وتشريعاته التى تقوم على العدل والرحمة وإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، ونصرة المظلوم، ومقاومة الظالم ،وتنفيذ أركان الإسلام من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان ، وحج البيت الحرام لمن استطاع إليه سبيلا .

إذا كان المقصود بالدولة الدينية هذا المعنى ، فكل الدول الإسلامية يجب أن تكون كذلك ،ولا أعرف دولة فى تاريخ الإسلام ، كان جميع حكامها من رجال الدين فقط ، وإنما جميع الدول الإسلامية كان حكامها يجمع بينهم قاسم مشترك من رجال السياسة ومن رجال الدين،ومن رجال الدفاع عن الأوطان ،ومن الخبراء فى الجوانب التاريخية ، والاجتماعية والحربية ، والفقهية ، والعلمية والأدبية .

والخلاصة: أنه لا يوجد فى الإسلام دولة دينية بالمعنى الأول ، وإنما توجد فى الإسلام دولة إسلامية تحترم أحكام الدين وتنفذ ما أمر به من عقائد وعبادات ومعاملات، وفضائل ، ويرأسها أهل الكفاءة العقلية والخلقية والإدارية ،سواء أكانوا من المتخصصين فى الجوانب الفقهية أم السياسية أم الاقتصادية أم العسكرية ، أم غير ذلك من شتى التخصصات التى لا غنى للأمة عنها .

وعلى سبيل المثال فأبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو أول رئيس للدولة الإسلامية ، بعد رسول الله ﷺ اختاره المسلمون ليكون خليفة لهم ؛لأنه أول من دخل فى الإسلام من

(*) صوت الأزهر فى ٦ ربيع الأول ١٤٢١هـ - ٩ / ٦ / ٢٠٠٠ م .

الرجال ، ولأنه كان مع ذلك أوفرهم عقلا ودراية بشؤون إدارة الأمة فهو - حتى قبل الإسلام - كان من أعرف الناس بأنساب العرب ، وكان تاجرا ناجحا فى تجارته .

ولم يكن ﷺ أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ،ولم يقل يوما بأنه أحفظهم للقرآن الكريم ، أو بأنه أعرفهم بأحكام شريعة الإسلام ، وإنما كان إذا التبس عليه حكم من الأحكام سأل غيره من الصحابة ، وعلى هذا المنوال كان الخلفاء الراشدون الذين جاؤوا من بعده ، وكثير ممن تولى مقاليد الحكم بعدهم .

إقامة الحدود :

هل تختصر الشريعة فى إقامة الحدود؟

ما قال عاقل باختصار الشريعة الإسلامية فى إقامة الحدود ، كحد القتل أو السرقة أو شرب الخمر ، أو القذف ، أو الحرابة .

وإنما الشريعة الإسلامية تشمل إقامة الحدود ، وتشمل العقيدة التى أساسها إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، والإيمان بملائكته وكتبه وبرسله وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره .

وتشمل أداء العبادات التى كلفنا الله - تعالى - بأدائها عن طريق رسوله محمد ﷺ كالصلاة والزكاة والصيام والحج لمن استطاع إليه سبيلا .

وتشمل تنفيذ المعاملات التى أحلها الله تعالى - بالطريقة التى أمرنا بها رسوله ﷺ كالبيع والشراء والإجارة ، والرهن ، والوكالة والكفالة ، والحوالة ، والسلم ، والمرابحة والإقالة، والجعالة ، والمزارعة ، والمساقاة ، والاستصناع ، وغير ذلك من المعاملات التى جاءت بها شريعة الإسلام ، ووضعت لها الشروط والآداب التى متى اتبعها الناس ، سعدوا فى دينهم وفى دنياهم .

وتشمل العلاقات الاجتماعية التى لا غنى للناس عنها ، كشؤون الزواج والطلاق والأسرة ، والمجتمع ، وما يجب على الأبناء نحو آبائهم ، وما يجب على الآباء نحو أبنائهم ، وحقوق الزوج على زوجته وحقوق الزوجة على زوجها ، وحقوق الجار على جاره ، وحقوق الحاكم على المحكوم ، وحقوق المحكوم على الحاكم .

وتشمل العلاقات الدولية التى تقوم على تبادل المنافع التى أحلها الله بين دولة وأخرى ، وما يجب على الدولة الإسلامية نحو غيرها من الدول،وما يجب على الدول

الأخرى بالنسبة للدولة الإسلامية .

والخلاصة: أن شريعة الإسلام تشمل جميع شؤون الدين، وجميع شؤون الدنيا ، ومن يختصرها على إقامة الحدود فهو جاهل بها .

مواطنون ... أم ذميون ؟

هل المسيحيون واليهود المصريون مواطنون أم ذميون ؟

المسيحيون واليهود الذين يحملون الجنسية المصرية،هم مواطنون ومصريون،لهم كافة الحقوق التى للمسلمين المصريين ،وعليهم كافة الواجبات التى على المسلمين المصريين، أى:أن كل من يحمل الجنسية المصرية يتساوى فى الحقوق والواجبات مع غيره، وفى الوقت نفسه لكل إنسان عقيدته؛لأنه لا إكراه على العقائد،بدليل قوله تعالى ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] والله ـ عز وجل ـ هو وحده الذى يحاسب الناس على العقائد، والإكراه على العقائد لا يأتى بمؤمنين صادقين ،وإنما يأتى بمنافقين كاذبين .

وهذا لا يمنع من أن كل صاحب عقيدة له أن يبين أصولها وأحكامها وآدابها ، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة .

والمسيحيون واليهود المصريون بجانب أنهم مواطنون مصريون هم ـ أيضا ـ ذميون ، بمعنى أن بينهم وبين المسلمين الذين يعيشون معهم فى دولة واحدة ، ذمة وعهدًا ، على أن يعيشوا جميعا فى أمان على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقائدهم .

لأن كلمة « الذمى » مأخوذة من الذمة التى هى العهد والأمان والكفالة ،فهى كلمة تعطى معنى التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، كما تعطى معنى الوفاء والتواصل . وفى الحديث الشريف يقول ﷺ :« من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » .

الدعوة الإسلامية :

هل العنف سلاح من أسلحة الدعوة الإسلامية أم الكلمة الحسنة وحدها السبيل ؟

الآية رقم ١٢٥ من سورة النحل وهى قوله تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)** ﴾ .

هذه الآية الكريمة أرشدت الدعاة إلى ثلاث وسائل متى اتبعوها ،نجحوا فى دعوتهم، والتفت القلوب من حولهم :

أما الوسيلة الأولى : فتتمثل فى قوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ** ﴾ أى ادع - أيها الرسول الكريم الناس إلى دين ربك وشريعته بالقول المحكم الموضح للحق ، والمزيل للباطل ، والواقع فى النفس أجمل موقع .

والوسيلة الثانية : تتجلى فى قوله - سبحانه :﴿ **وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ أى وادعهم - أيضا - إلى الحق بالأقوال المشتملة على العظات والعبر التى ترقق القلوب ، وتهذب النفوس وتقنعهم بصحة ما تدعو إليها ، وترغبهم فى الفضائل ، وتحذرهم من سوء عاقبة الرذائل .

والوسيلة الثالثة: نراها فى قوله - عز وجل : ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ أى : وجادل المعاند من الناس بالطريقة التى هى أحسن الطرق وأجملها ، بأن تكون مجادلتك لهم مبنية على حسن الإقناع وعلى الرفق واللين وسعة الصدر،فإن ذلك أبلغ فى إطفاء نار غضبهم ، وفى التقليل من عنادهم ، وفى إصلاح شأن أنفسهم ، وفى إيمانهم بأنك إنما تريد من وراء مجادلتهم الوصول إلى الحق دون أى شىء سواه .

وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد رسمت أقوم الطرق فى الدعوة إلى الله - تعالى - وحددت أفضل وسائلها ، وأنجعها فى هداية الناس إلى الصراط المستقيم .

والعنف - الذى هو بمعنى السب والقذف وسوء الأدب - ما كان فى يوم من الأيام سلاحا من أسلحة الدعوة الإسلامية ، وإنما سلاحها دائما هو الحكمة ، والموعظة الحسنة ،والجدال بالتى هى أحسن ، والله - عز وجل - هو العليم بالضالين والمهتدين ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

هل تعتبر البلاد الأجنبية دار حرب ، والسلام الذى بيننا وبينها مجرد هدنة تنتهى حين نستطيع القتال ؟ أم أن هذا التقسيم انتهى زمنه ؛ لأن العالم لم يعد ديانات ومللا ، بل أصبح كتلا سياسية ومصالح اقتصادية ؟

شريعة الإسلام تعتبر الناس جميعا سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين إخوة فى الإنسانية ؛ لأنهم من أب واحد ومن أم واحدة ، ومن الأدلة على ذلك قوله - تعالى - فى أول آية من سورة « النساء »: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**

وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ... ﴾ .

وقال سبحانه فى سورة الحجرات الآية ١٣ : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (١٣) ﴾ .

ولفظ الإسلام ـ الذى هو عنوان ديننا ـ مشتق من مادة السلام الذى هو اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ وما قال عاقل: إن البلاد الأجنبية جميعها دار حرب ، والسلام الذى بيننا وبينها مجرد هدنة ، تنتهى حين نستطيع القتال ، وإنما الذى قاله العقلاء هو ما خلاصته: إن البلاد الأجنبية ـ أى غير الإسلامية ـ تنقسم إلى ثلاثة أقسام : إما قوم لا يعيشون معنا ولا نعيش معهم ، وإنما هم فى بلادهم ـ كأوربا وأمريكا وغيرها ـ ونحن فى بلادنا كمصر وغيرها،وهؤلاء ما داموا لم يسيؤوا إلينا ، فنحن ملزمون دينيا ألا نسىء إليهم ، والدليل على ذلك قوله ـ تعالى : ﴿ **فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** (٧) ﴾ [التوبة]. وقوله تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** (٨) ﴾ [الممتحنة].

وإما قوم لا يعيشون معنا ولا نعيش معهم ـ كالسابقين ـ ولكنهم يسيؤون إلينا ويعتدون على حقوقنا،وهؤلاء أذن الله ـ تعالى ـ لنا فى دفع عدوانهم بدليل قوله ـ تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** (١٩٠) ﴾ [البقرة]

وإما قوم غير مسلمين ولكنهم يعيشون معنا ونعيش معهم ، وكلنا يحمل الجنسية المصرية وكلنا نعيش على أرض واحدة وهؤلاء لهم ما لنا وعليهم ما علينا . وبهذا نرى أن شريعة الإسلام هى شريعة السلام والأمان والرحمة والعدل والمساواة ، وأنها لا تأمر أتباعها بأن يرفعوا سلاحهم إلا فى وجه من يعتدى عليهم .

الثقافات الأخرى :

هل المسلمون مختلفون عن الأجانب فى كل شىء ، فعليهم أن يقاطعوا الثقافات الأخرى ؟ أم أن الحضارة الإنسانية واحدة وإن تعددت صورها ، فعليهم أن يتعاونوا مع الآخرين ويأخذوا منهم ويعطوهم ؟

مرة أخرى أقول : ما قال عاقل بأن المسلمين مختلفون عن الأجانب فى كل شىء ،

وإنما الذى قاله الله ـ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ ، ومعنى ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ لتتواصلوا فيما بينكم وتتعاونوا على البر والتقوى وعلى ما يصلح من شأنكم،وما دامت الثقافات الأخرى لا تتعارض مع عقيدة المسلمين، ومع أحكامهم وآدابهم ، فمرحبا بها ، وعلينا أن نتواصل معها ، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنّى وجدها .

والحضارة الإنسانية ما دامت تقوم على ما أحله الله ـ تعالى ـ وعلى ما ينفع الإنسان ويرقى بعقله وفكره ووجدانه ، وينهض به فى كل مجالات الحياة الصناعية أو الزراعية أو الطبية أو الهندسية أو غيرها ، فمرحبا بها ، وعلينا ـ كمسلمين ـ أن نتعاون مع غيرنا فى استمرار هذه الحضارة وفى النهوض بها من الحسن إلى الأحسن ، ومن الصلاح إلى الأصلح ولقد كان النبى ﷺ يرسل بعض أصحابه إلى بعض البلاد الأخرى ليتعلموا منهم ما ينفعهم فى حربهم وسلمهم ، وثبت أنه ﷺ أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلم اللغة السريانية .

والخلاصة : أن كل ثقافة رفيعة فاضلة، وكل حضارة إنسانية رشيدة سواء أكانت من الشرق أم من الغرب ، أم من الشمال أم من الجنوب ، فعلى المسلمين أن يتعاونوا مع غيرهم على انتشارها وازدهارها ، وأن يأخذوا منهم وأن يعطوهم . وهذا ما حدث فى عهد الدولة العباسية ، وفى غيرها من العهود التى يطول الحديث عن تفاصيلها .

حقوق الإنسان :

هل يوافق الأزهر على الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ؟

نعم، أنا كواحد من علماء الأزهر أوافق على الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، ما دام هذا الإعلان ـ الذى هو ليس تحت يدى الآن ـ يعطى الإنسان حقه فى الحياة الحرة الكريمة،وحقه فى التملك المشروع ، وحقه فى الحرية التى لا تضر الآخرين ، وحقه فى التعلم،وحقه فى العمل ،وحقه فى التعبير عن رأيه ، وحقه فى الدفاع عن عقيدته وعن عرضه ،وحقه فى التمتع بالكرامة الإنسانية التى كفلها له خالقه ـ عز وجل ـ فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾ [الإسراء] .

فهذه الآية الكريمة لم تقل : ولقد كرمنا أنواعا معينة من الناس ، وإنما قالت :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ بقطع النظر عن جنسياتهم، وألوانهم ، وعقائدهم ، ولغاتهم ، وأوطانهم ، وقومياتهم ، ومراكزهم الاجتماعية .

إن شريعة الإسلام قد كرمت الإنسان أعظم تكريم ، ومن مظاهر ذلك أن الله ـ تعالى ـ قد خلق الإنسان فى أحسن تقويم، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا، وجعله خليفته فى أرضه لكى يعمرها، فأى تكريم للإنسان أسمى من هذا التكريم ؟ إن كل إعلان يعطى الإنسان جميع حقوقه الدينية والمدنية والسياسية وغيرها نوافق عليه ونؤيده بكل قوة وشجاعة وصدق .

هل نرفض الحقائق العلمية التى لا تتفق مع بعض النصوص الدينية ؟ أم نؤول النصوص لتتفق مع حقائق العلم ؟

الذى أعلمه وأومن به أنه لا توجد حقائق علمية يقينية لا تتفق مع النصوص الدينية الصحيحة ؛ لأن دين الإسلام الذى يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم، والذى يقول كتابه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

والذى يقول للنبى ﷺ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

والذى تكرر فيه الحديث عن فضيلة العلم ، وعن فضل العلماء ، الذين سخروا علمهم لخدمة الحق ، سواء أكان علما دينيا أم علما دنيويا هذا الدين أستبعد أن يكون من بين نصوصه الصحيحة ما لا يتفق مع الحقائق العلمية الثابتة .

وعلى من يظنون أن هناك حقائق علمية لا تتفق مع النصوص الدينية الصحيحة ، أن يسألوا المتخصصين فى العلوم الدينية والشرعية وسيجدون عندهم الجواب الشافى ـ بإذن الله ـ وقد أمرنا القرآن الكريم أن نسأل أهل الخبرة والعلم فيما يخفى علينا فقال : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٧ ﴾ [الأنبياء] .

والعلماء الراسخون فى العلم ـ كل فى مجال تخصصه ـ عندهم ـ بعون الله ـ القدرة على التفسير الصحيح الذى يجعل الحقائق العلمية تتفق مع النصوص الدينية .

هل ما زال باب الاجتهاد مفتوحًا ، أم أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ؟

باب الاجتهاد مازال مفتوحا فى كل مسألة أو قضية أو حكم أو موضوع يجوز فيه الاجتهاد ، أما كلمة : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » فهى من الكلمات التى قالها اللاحقون احتراما للسابقين ، على سبيل التواضع وحسن الأدب ، وإلا فإن كثيرا من

اللاحقين قد فاقوا من سبقهم فى شتى ألوان العلم والمعرفة ورجاحة العقل . ولكنى أدلل لسيادتك على أن باب الاجتهاد مفتوح وسيظل مفتوحا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . سأبعث لسيادتك بكتابى الذى عنوانه : « الاجتهاد فى الأحكام الشرعية » وسترى فيه ألوانا من اجتهاد الرسول ﷺ ومن اجتهاد أصحابه ﷺ ومن اجتهاد التابعين وتابعيهم ، ومن اجتهاد مشايخنا فى العصر الحديث ـ رحمهم الله وألحقنا بهم جميعا فى زمرة الصالحين .

إلى يوم الدين :

هل الأزهر منارة علم وحكمة وقلعة أخوة وتسامح .. أم هو سلطة حرمان وغفران ؟

الأزهر ـ يا أستاذ أحمد ـ منارة علم وحكمة وقلعة أخوة وتسامح وستبقى له هذه الصفات ـ بإذن الله تعالى ومشيئته ـ إلى يوم الدين .

هو منارة علم ؛ لأنه منذ أكثر من ألف سنة وهو ينشر العلم النافع فى مصر وفى خارج مصر ، وهو منارة حكمة ؛ لأنه يستمد علومه من كتاب الله ـ تعالى ـ ومن السنة النبوية المطهرة ومن أقوال الراسخين فى كل فنون العلم ، وهو لا يتعصب لمذهب دون مذهب ، وإنما تقوم الدراسة فيه على الاعتدال والتوسط والموضوعية. وهو قلعة أخوة، لأنه يضم بين معاهده وكلياته عددا كبيرا من أبناء وبنات العشرات من الدول فى مشارق الأرض ومغاربها ، دون تفرقة بينهم فى حسن المعاملة وكرم الضيافة،وهو قلعة تسامح ؛ لأن الدارسين فيه يستقون دراستهم من شريعة الإسلام التى تقوم على اليسر والسماحة ورفع الحرج .

ولم يكن ولن يكون فى يوم من الأيام سلطة حرمان وغفران ، إنما هى لله ـ عز وجل ـ وحده : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ [الأعراف].

ثبت المراجع

١ ـ ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى) : عيون الأخبار ، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب ، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

٢ ـ ابن القيم (محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية) : كتاب الفوائد ، تحقيق: أحمد راتب عرموش ، دار النفائس بيروت ، الطبعة الخامسة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

٣ ـ ابن منظور : لسان العرب ، طبعة دار المعارف بمصر .

٤ ـ أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين ، بتحقيق بدوى طبانة ١٩٥٨م .

٥ ـ د . جابر عصفور : ضد التعصب ، سلسلة القراءة للجميع ٢٠٠٠م .

٦ ـ جان بول سارتر:ما الأدب ؟ ترجمة : د. محمد غنيمى هلال ـ مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠ م.

٧ ـ رتشاردز : مبادئ النقد الأدبى ، ترجمة :د. محمد مصطفى بدوى ، مراجعة الدكتور لويس عوض ، طبع ونشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦١م .

٨ ـ د . عبد الملك مرتاض : فى نظرية الرواية ـ بحث فى تقنيات السرد ، عالم المعرفة (٢٤٠) ، الكويت ١٩٩٨ م .

٩ ـ الشيخ محمد عبده : الأعمال الكاملة ، تحقيق :د . محمد عمارة ، بيروت ١٩٧٢م.

الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات الأسبوعية والشهرية :

١ ـ آفاق عربية .

٢ ـ الأخبار .

٣ ـ أخبار الأدب .

٤ ـ الأسبوع .

٥ ـ الأهرام .

٦ ـ الأهرام العربى .

٧ ـ الثقافة الجديدة .

٨ ـ الحياة اللندنية .

٩ ـ القاهرة .

١٠ ـ المصور .

١١ ـ وجهات نظر .

الفهرس

الموضوع الصفحة

رقم الإيداع: ٣٤٢٦ / ٢٠٠١م

I. S. B. N : 977 - 15 - 0314 -6

هذا الكتاب

* بدأ الحوار حول رواية وليمة لأعشاب البحر أكبر من مجرد حوار حول رواية تجاوزت الأيديولوجية إلى التجديف وسب المقدسات الإسلامية ، مما أدى إلى أحداث تتابعت حتى صارت أزمة .

* ومع أن تيارات فكرية عديدة تداخلت فى الحوار ، إلا أن الحوار انتهى إلى صدام بين تيارين من بين كل التيارات . الأول : علمانى أطلق على نفسه تيار التنوير المدافع عن حرية الإبداع ، والثانى : تيار المدافعين عن الثوابت الإسلامية من علماء الأزهر الشريف ، فى مقدمتهم الإمام الأكبر شيخ الأزهر نفسه .

* اتهم التيار العلمانى (الأزهر) بإجهاض حرية الإبداع ؛ لأنه يقرأ النص الأدبى قراءة دينية لا أدبية ، ومن ثم طالبوا الأزهر بألايتدخل فى الأعمال الإبداعية .

ودافع الأزهر عن نفسه ، وبين أنه لم يتدخل إلا بالقدر الذى منحه له الدستور والقانون ؛ لأنه الجهة صاحبة الاختصاص فى التقدير فيما يتعلق بالشأن الإسلامى لكل ما تمترسه الدولة من سلطات وأنشطة متعلقة بالشؤون الإسلامية . ومن ثم طالب علماء الأزهر الشريف بممارسة حقهم المدنى المعتضد بفهمهم الدينى فى الحكم على الرواية التى طالت المقدسات الإسلامية بسوء ؛ لأن الإسلام لم يعرف الثنائية المتصارعة بين ما هو دينى وما هو مدنى .

* وكتاب (حوار حول الوليمة) يقدم رؤية أقرب ما تكون بالتسجيلية لما دار من حوار حول الرواية تجاوز النقد الأدبى إلى صدام بين تيارين متباينين .

* ودار الوفاء يسرها أن تقدم هذا الكتاب إلى قرائها الكرام ، رجاء أن يعم به النفع ، والله من وراء القصد .





دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ ـ فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ت٢٢٤٩٥١٣/ ٠٥٠
E-Mail : DAR ELWAFA @ HOTMAIL. COM